شخصيات عسكرية إسلامية

محمد فرج

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

محمد فرج

شخصيات عسكرية إسلامية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي
١١ شارع جواد حسني / القاهرة
ص ب ١٣٠ - ت ٧٦٠٥٢٣

الإهـــداء

إلى عمالقة العبور
فى معركة العاشر من شهر رمضان العظيم
ابتغاء نصر مؤزّر أو استشهاد كريم

محمد فرج

شخصيات الكتاب

علي بن أبي طالب
سعد بن أبي وقاص
خالد بن الوليد
عمرو بن العاص
المثنى بن حارثة

مقـــــدمة المـــؤلف

الطبعة الثانية

أحمد الله حمدا كبيرا واشكره تعالى شكرا كثيرا واصلى واســـلم على اعظم الخلق محمد بن عبد الله نبى الهدى رسول الرحمة خاتم الأنبياء ســـيد المرسلين ، وعلى آله واصحابه واتباعه واحبابه ، ومن دعا بدعوته باحسان الى يوم الدين ، واســــــتفتح بالذى هو خير « ربنا عليك توكلنا واليك أنبنا واليك المصير » .

أما بعـــد

فان دراسة التاريخ الاسلامى وترجمة الشخصيات العسكرية الاسلامية لم تنل ما تستحقه من البحث والتسجيل والتحليل ، بما يتكافأ مع أبعاد ذلك التاريخ وعظمة تلك الشخصيات وحجم المعارك الاسلامية .

من هذا المنطلق قدمت لقراء العربية والاسلام هذا الكتاب ، وفى فهمى أن ألحقه بكتب أخرى تتناول عددا آخر من الشخصيات العسكرية الاسلامية ذات الأمجاد فى تاريخ الحرب والجهاد .

ولم يكن يخطر ببالى أبدا أن الكتاب — بعد أن غمر الأسواق — سيجد القارىء العربى متلهفا على اقتنائه والاطلاع عليه والوقوف على ســــــيرة شـــخصياته .

وتلقيت خلال الأشهر الأولى من صــــدور الكتاب العديد من الآراء من كتاب فى داخل حدود مصر ومن خارجها ، امتدح بعضها الكتاب فكرة وعرضـــا وأسلوبا واختيارا لشخصياته ، وكان للبعض الآخـــر — بجانب الاعجــــــاب الذى أبداه — آراء تلقيتها بالشكر والامتنان ، دارت حولها دراســـات كثيرة ومناقشات عديدة أفدت منها وأفاد أصحابها أيضا ، ولا عجب فى ذلك فان هذا كله كان نتيجة طبيعية لمنهج الاســــــلام التربوى فى توجيه النفوس والقلوب والعقول وهدايتها الى الجادة .

اننا امة أراد لها قدر الاختبار والابتـلاء أن تصيبها طعنـات خلفت من ورائها جراحات وعاشت امتنا تأمل ان تلتئم الجراح وأن تستعيد قوتها ومنعتها ، وعندما تنادى الشعوب على مجدها القديم فى زمن المحنة فهى تنادى على قوتها التى تدفعها الى الأمام فى اتجاه أعز امانيها ، ولقد كان يوم العاشر من رمضان يوما أعز الله فيه بلادنا ونصر جيشنا ودمر عدونا ، وجعل القـوة والقدرة الى جانبنا ، فبدأت امتنا تتنفس من جديد هواء صحيا منبعه الايمان الصادق ومصدره قيم الاسلام وأخلاقياته ، ومبعثه سيرة الصالحين ومواقف المجاهدين من اتباع رسول الله الذين اكدوا مجد الأمة الاسلامية وعزتها بالجهاد فى سبيل الله .

وهأنذا — على غير ما تعودت وبناء على رغبات كثيرة — اقدم الطبعة الثانية من الكتاب ترجمة صادقة لبطولة هؤلاء القادة العظام ، وتسـجيلا لمعاركهم المجيدة بمنطق العصر ، فقد آن الأوان لكى نستدرك ما فاتنا وأن نقوم بواجبنا فى احياء تراثنا فلا ريب فى أن الحرص على احيائه هو حرص على حياتنا ، واذا كنا فى حاضرنا المرجى الى مستقبلنا المأمول ، نحتاج الى دفعات قوية مباركة نحو أهدافنا الشريفة فى معركتنا المظفرة باذن الله ، فان فى بطولات شخصيات الكتاب مددا معطاء لا ينضب ، والله وحده المستعان لما فيه خير البلاد وخير العباد و « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » ، والحمد لله أولا وآخرا .

مقـــــدمة المـؤلف

الطبعـــــة الأولى

سطع نور الاسلام فى الجزيرة العربية ، وبدأت الدعوة اليه من مكة على لسان رسول الله خاتم النبيين وسيد المرسلين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ... وعارضت القبائل العربية الدعوة الجديدة ووقفت فى وجهها وكثر المعارضون وتكتلت جبهتهم والقت بثقلها فى المعـــركة تريد أن يبقى دين الأجداد والآباء ، وأن يقبر الدين الجديد قبل أن يقوى ويشتد ويدخل فيـــــه النـــاس .

ورغم تمسك الرسول بالدعوة السامية للدين الجديد ، الا أنه كان لابد للقوتين ــ وقد اشتدت المعارضة ــ من أن تتلاقيا وجها لوجه وأن يقع الصدام المســلح بينهما .

ووقع الصدام المسلح فعلا رغم محاولات الســـــلم المتعددة من جانب رسول الله ، وأذن للمسلمين بحمل السلاح ومقاومة العدوان والدفاع عن الدين وعن الداخلين فيه المؤمنين به .

وبرز خلال المعارك رجال أبطال أشداء كانوا يرفعون الوية المســـــلمين ويذودون عنهـــا ... يقودون الجيوش ويعدون للمعـــارك ويواجهون الأعداء وينتزعون النصر الذى وعد الله به المجاهدين من عباده .

وسطعت فوق أرض المعارك قيادات اسلامية كان لها قصب الســـبق والتدرج المعلى ، فقد تولت قيادة الجيوش الاسلامية عن فهم وادراك ، ووعى ومقدرة ، وكفاءة وعلم بشئون المعركة وأمورها ومستلزماتها ، وحققت بهـــذا كله أعظم انتصـــارات فى تاريخ الحروب أكدت أصـــالة الفن العســـــكرى الاســـــلامى .

وان المتتبع لدور هذه القيـــادات والانتصارات العظيمة التى تمت تحت لوائها ليشعر بالزهو والفخر ، ذلك أن هذه القيادات فاقت القيادات الأخرى التى جاءت بعد الاســـــلام ، وحفل بها التاريخ الحربى الحديث ، وتصدرت قائمة القادة الأمجاد .

وموطن الزهو والفخر هنا أن هذه القيادات لم تتعلم الفن الحربى فى مدرسة ولم تتلق اصوله فى أكاديمية ولم تطلع على تاريخ الحروب التى سبقتها لتأخذ عنها .

وموطن الزهو والفخر أيضا أن هذه القيادات مارست القتال كأعظم ما تكون الممارسة ، فلم يخض قائد عربى اسلامى غمار معركة قبل أن يلم بظروفها ويرتب لها ، ويعد جنده وسلاحه ويضع خطته ... فاذا ما دار القتال أشرف بنفسه على أحداث المعركة حتى ينتزع النصر .

وموطن الزهو والفخر أيضا أن هذه القيادات واجهت فى ميادين القتال جيوشا جرارة ذات عدد وعدة ، ولها تاريخ سابق معروف فى مجالات الحرب ، وانتصرت هذه القيادات فى المعارك الكثيرة المتعددة فأزالت سلطة قريش فى فى مكة ، وقوة اليهود فى المدينة وفى المواقع الأخرى ، وجبروت الفرس والروم فى موطنهما .

وموطن الزهو والفخر أيضا أن هذه القيادات خاضت غمار المعارك بقلوب ثابتة ونفوس مؤمنة واعصاب لا تلين ، لم تفزعها احداث المعارك الرهيبة ، ولم تهن من قوتها شدة العدو وقسوته ، ولم ترهبها أعداد تفوقها واسلحة لا تعرفها ، ولم تزعجها هزيمة ألمت بها لأنها كانت تصبر عليها وتستمد منها أسباب النصر وعوامله وتحولها الى نصر ساحق عظيم ...

كانت هذه القيادات تخرج الى القتال يداعبها أحد أملين ، اما نصر عظيم يعز الله به الاسلام والمسلمين ، أوموت كريم تنال به الشهادة فتحظى عند ربها بالجنة ... قيادات تمكنت منها العقيدة وسيطر عليها الايمان .. لقد جعلت العقيدة من كل فرد فى المعارك الاسلامية معنى يتحرك وجعل الايمان للحرب هدفا يستعذب فيه المحارب أن يقتل كأقصى ما يكون الأمل ... كانت القيادات لا تقاتل ببشر من لحم ودم وانما كانت تقود أرواحا مجندة متآلفة استبشرت بما باعت واندفعت الى لقاء ربها ايمانا به وجهادا فى سبيله ولسان كل منهم وقلبه يرددان قول الحق تبارك وتعالى « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » وقوله تعالى ... « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة

فى جنــات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين » .

فها هو ذا عبد الله بن جحش يدعو ربه « اللهم لقنى من المشركين رجلا عظيما كفره ، شديدا حرده ، فأقابله فيقتلنى فيك ويســلبنى ثم يجدع أنفى وأذنى ، فاذا لقيتك فقلت : يا عبد الله بن جحش فيم جدعت قلت : فيك يا رب » وها هو ذا خالد بن الوليد يقــول لأهل فارس « والله الذى لا اله الا هو لأســيرن اليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحيــاة ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا » .. وها هو ذا المغيرة بن شعبة يخاطب يزدجرد « يدخل من قتل منا الجنة ، ومن قتل منــكم النار ، ويظهر من بقى منــا على من بقى منكم » .. وها هو ذا مالك بن سنان يقول « نحن والله بين احدى الحسنيين ، اما أن يظفرنا الله بهم فلا يبقى منهم الا الشريد ، والأخرى أن يرزقنا الشهادة ، ووالله ما نبالى أيها كان ... ان كلا لفيه الخير » .

وانه لمما يدعو الى الأسف أن الناس فى العصر الحديث أصبحوا يعرفون عن نابليون ومونتجمرى وروميل وغيرهم من قادة الحرب اكثر مما يعرفون عن خالد وعمرو والمثنى والزبير وعلى بن ابى طالب وجعفر بن ابى طالب وزيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة وشرحبيل بن حسنه وأبى عبيدة بن الجراح وسعد ابن ابى وقاص وغيرهم من قادة الاسلام الأمجاد الميامين .. ولهذا أصبح من الواجب والضرورى أن تعنى الهيئات الاســلامية والمؤرخون ورجال الحرب بنشر تاريخ هؤلاء القــادة وصفحات حياتهم المشرقة ليعرف الناس فضــلهم ويقدرون منزلتهم ويضعونهم حيث يجب أن يكونوا بين قادة الحرب ورجالات المعــارك .

ومن خلال ايمانى بهذا الواجب واحســاسى بضرورته ، أعددت هــذا الكتاب ، تناولت فيه بالدراسة والتحليل خمس شخصيات اسلامية ، أسهمت كلها فى تطوير الفن الحربى ، وكانت لها فى مجالات الحرب جولات وبطولات .

وقد يتســاءل البعض .. لماذا وقع الاختيار على هذه الشــخصيات بالذات دون غيرها ؟

لقد وقع اختيارى على **على بن أبى طالب** فهو شخصية اسلامية متميزة ، كان من السابقين الى الاسلام ، فأسلم وهو صغير ، ثم صاحب رســول الله طيلة حياته ، وجاهد جهاد الأبطال فى كل المعارك والغزوات ، وكانت آثاره واضحة فى كل منها ، ثم انه قوبل بمعارضة شديدة حين تولى الخلافة ، وواجه

معارضية فى معارك متتالية ، كانت له فيها مواقف تميزت بالروح الاسلامية الأصيلة .

ووقع الاختيار على **سعد بن أبى وقاص** صاحب أول دم أهريق فى الاسلام ، وصاحب المواقف البطولية فى غزوات الرسول ، وهو الأسد الذى أطلقه عمر بن الخطاب ليقضى على دولة الفرس ويرفع راية الاسلام فى أرض فارس ، وهو صاحب المعارك الخالدة فى القادسية والمدائن .

ووقع الاختيار أيضا على **خالد بن الوليد** سيف الله الذى سله الله على المشركين ، فعلى يديه انتهت الفتنة فى الجزيرة العربية عقب وفاة الرسول ، وبيديه اهتز عرش كسرى فارس وانتهت دولة الروم فى بلاد الشام ، فوق أنه رجل حرب أرسى للمعركة قواعد ونظما وأسسا جعلته فى مصاف القادة العظام .

ووقع اختيارى أيضا على **عمرو بن العاص** القائد الداهية الذى كان أول عسكرى مسلم تتجه أنظاره الى القارة الأفريقية ، فقد رأى من وجهة نظر الأمن العسكرية ضرورة المحافظة على الفتوحات الاسلامية فى بلاد الشام ، بتأمين جبهة مصر ، ولقد مهد عمرو أمام المسلمين الطريق الى بلاد الأندلس .

ووقع الاختيار على **المثنى بن حارثة** أول مسلم اتجه الى بلاد الفرس ذات الأمجاد والتاريخ والدراية بفنون الحرب ، وكانت مواجهتها تتطلب رجلا قادرا قويا شديد الايمان ، وكانت مسيرته الى هناك تمهيدا لازالة حكم كسرى، وانهاء عبادة النار لتقوم على أنقاضها عبادة الله الواحد القهار .

ولقد كان لى لقاء سابق مع خالد وعمرو والمثنى فى ثلاث كتب تناول كل منها حياة واحد منهم ، وكان لقائى معهم يقوم على أساس التاريخ لحياة كل منهم ، متتبعا لكافة أحداث حياته ، وللخطوط المعروفة فى كل بحث ، والتى تتناول دراسة البيئة والأسرة ثم النشأة والتكوين ، ثم الحياة مستمرة الى نهايتها .

أما فى هذا اللقاء مع هذه الشخصيات فى هذا الكتاب فنحن لا نتعرض لحياتهم ولكننا ننظر الى هذه الحياة من وجهة نظر موقفهم كقادة عسكريين ، وتصرفاتهم فى ميادين القتال ، ونزن أعمالهم بميزان الفكر العسكرى الحديث ، لنحدد مكانتهم بين قادة الحرب على طول العصور ، وحتى هذا العصر الذى نعيشه والذى برزت فيه أسماء عسكرية كان لها دوى .

وانني لأرجو أن يجد القارىء فى هذه الدراسة شيئا جديدا مفيدا يقنعه بمكانة هؤلاء القادة ومنزلتهم فى مجالات الحرب وميادين القتال ، ثم يقنعه أيضا بما كان للقيادات الاسلامية من كفاءة نادرة وقدرة فائقة وادراك عميق بشئون الحرب ، ثم يؤمن معى أخيرا بأنه يجب أن يكون القادة العسكريون فى مكان الصدارة دائما بالنسبة لقادة الحرب جميعا مثلا وأسوة وقدوة .

ولما كان لى مع شهر رمضان من كل عام لقاء مع كتاب جديد فقد بدأت فى رمضان (١٣٩٢هـ) صياغة هذا الكتاب فى صورته النهائية ولم استطع أن انتهى منها فى هذا العام فواصلت العمل فيه مع بداية شهر رمضان من العام التالى أعنى عام ١٣٩٣ هـ .

ومن يمن الطالع — وأنا أضع اللمسات الأخيرة للكتاب — أن أصدر الرئيس المؤمن أنور السادات قراره التاريخى العظيم فى العاشر من رمضان ايذانا ببدء قتال شريف وعادل ، وايذانا بانطلاقة عربية عملاقة أكدت يقظة الأمة العربية التى حشدت امكانياتها على امتداد الساحة القومية فى مواجهة التحدي الكبير ...

وكانت معركة العاشر من رمضان معركة الأمة العربية كلها خاضتها بالروح العربية والأصالة العربية واثبتت أنها أمة واحدة تدفع العدوان عن أرضها وشرفها وعرضها .. عبرت القوات المصرية المسلحة قناة السويس واحتلت خط بارليف وأسقطت الى الأبد أسطورة اسرائيل بأنها أمة لا تقهر وأن جيشها دعامة لا تكسر ..

ولا يمكن لمؤرخ أن ينسى فضل الله تبارك وتعالى خلال معركة رمضان ، فقد أحس كل عربى أسهم فى المعركة أن الله تعالى كان مع المقاتلين الذين استهدفوا عزة الدين ورفعة الاسلام ، والذين اتخذوا من كلمة « الله اكبر » سلاحا هز مشاعر العدو وزلزل معنوياته وأفقده شعوره وكشف حقيقته للعالم أجمع (*)

ونصر الله المؤمنين وأعز جند رمضان فى سيناء والجولان كما نصر من قبل محمدا واتباعه وأعز جند رمضان فى بدر وكان نصرا عزيزا مؤزرا « وما النصر الا من عند الله » و « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » .

اما بعــد

فها هو ذا الكتاب بين يدى القارىء .

وهو حصيلة جهد فرد يرجو أن يكون قد ملأ فراغا وســد حاجة ، فان كنت قد وفقت فالفضــل لله العلى الكبير « وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليــه أنيب » .

اسأل الله — وله وحده الفضل والمنة — ان يتقبل منا هذا العمل ، وان يجعله خالصا لوجهه ، وان يهيىء لنا من أمرنا رشدا .

والحمد لله أولا وأخيرا .

محمــد فــرج

الشخصية الأولى

علي بن أبي طالب

« جزى الله ابن أبي طالب الجنة »

عائشة

شـــــخصية متميـــزة

شخصية اسلامية متميزة أراد الله تبارك وتعالى لصاحبها أن يكون فريدا بين أقرانه ... فسمي علي ... ولم يكن هذا الاسم معروفا لدى العرب في جاهليتهم ، فلم يعرف في العرب من سمي بهذا الاسم قبله ، وقيل أن أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم حين ولدته سمته أسدا ، وكان أبوه أبو طالب غائبا ، فلما رجع رأى أن يسميه عليا ، وقيل في بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى عرض هذا الاسم فسمي به ، والملاحظ أن رســـول الله سمى محمد ، وهو اسم لم يطلق على أحد من العرب قبله ، وقد اختار هـــذا الاسم جده عبد المطلب حين أخطر بولادته ، وبذلك فان اسم محمد واســـم علي كانا من الأسماء الجديدة التى عرفت لأول مرة في تاريخ العرب ، ولعل في هذا التوافق معنى جليلا ، فكأنما أراد الله تبارك وتعالى لهما أن يحمـــلا اسمين جديدين رمزا لمكانتهما عنده سبحانه ، فمحمد هو رسوله الأمين ، وعلي هو درع الاسلام وسيفه ، وقد ردد كثيرون من أنصار سيدنا علي حديثا نسبوه الى رســـول الله جاء فيه « خلقت أنا وعلي من نور ، وكنا على يمين العرش قبل أن يخلق آدم بألف عام ، ثم خلق آدم فانتقلنا في أصـــلاب الرجـــال ، ثم جعلنا في صلب عبد المطلب ثم شق أسماءنا من اسمه ، فالله محمود وأنا محمد ، والله الأعلى وعلي علي » .

شخصية اسلامية متميزة كانت تتســـم بمقومات الرجولة ، ولا عجب في هذا فقد رعته العناية الالهية منذ ولد ، اذ دفعت به الى بيت النبوة حيث نشأ وترعرع في أحضان ابن عمه سيد البشر محمد بن عبد الله يوجهه ويرشـــــده ويأخذ بيده على الطريق السوى ، وحيث عنيت به خديجة بنت خويلد أوســـط نســـاء قريش نسبا وأعظمهن شرفا ، قال ابن أسحق « كان مما أنعم الله به على علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان في حجر رســـول الله صلى الله عليه وسلم قبل الاسلام ، وهكذا رضي الله تعالى لعلي أن يولد في الاسلام قبل الاسلام ، وأن يربى في حجر رسول النبوة قبل النبوة ، فكان ذلك حاجزا عن الجاهلية وأباطيلها » ، وهكذا عاش علي منذ طفولته قريبا من رســـــول الله يرى ويلمس ويتحقق ، ويأخذ عنه الخلق الكريم والســـــمعة الطيبة والصفة المتكاملة والسلوك البجي ، وكان ذلك موضع فخره واعتزازه .. قال « لقـــد علمتم موضعي من رســـول الله صلى الله عليه وسلم بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره وأنا وليـــد ، يضمني الى صـــدره ويكنفني الى فراشه ويمسني جسده ، كان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه ... وكنت أتبعه اتباع

الفصيل اثر أمه ، يرفع لى كل يوم من أخلاقه علما ويأمرنى بالاقتداء به ، ولقد كان يجاور فى كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيرى ، ولم يجمع بيت واحد يومئذ فى الاسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما ، ارى نور الهدى والرسالة واشم ريح النبوة » .

ومن هنا كان على أكثر الناس حظا واطولهم صحبة لرسول الله ، فلم يفترق عنه فى سلم أو حرب ، فى حل أو سفر ، كان بين يدى الرسول وتحت سمعه وبصره ، حتى أن رسول الله لحق بالرفيق الأعلى وهو على صدر على ... قال على « لقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وان راسه لعلى صدرى ، ولقد سالت نفسه فى كفى فأمررتها على وجهى ، ولقد وليت غسله صلى الله عليه وعلى آله ، والملائكة أعوانى ، فضجت الدار والأفنية ... ملأ يهبط وملأ يعرج ، وما فارقت سمعى هينمة منهم يصلون عليه حتى واريناه ضريحه » .

شخصية اسلامية متميزة بحكمة العلم ونفاذ البصيرة وشفافية الروح .. متميزة بالفطنة والذكاء وصدق الحس وصحة اللب وكمال العقل ... قال على « الحمد الله الذى شرع الاسلام فسهل شرائعه لمن ورده ، واعز اركانه على من غالبه ، فجعله أمنا لمن علقه ، وسلما لمن دخله ، وبرهانا لمن تكلم به ، وشاهدا لمن خاصم به ، ونورا لمن استضاء به ، وفهما لمن عقل ، ولبا لمن تدبر ، وآية لمن توسم ، وتبصرة لمن عزم ، وعبرة لمن اتعظ ، ونجاة لمن صدق، وثقة لمن توكل ، وراحة لمن فوض ، وجنة لمن صبر » ... آمن على بالاسلام دينا وبالله ربا وبمحمد رسولا ، عرفه الحق حق معرفته فدعا اليه وتمسك به .. قال « ما ضعفت ولا جبنت ولا خفت ولا وهنت ، وأيم الله لا يقرن الباطل حتى أخرج الحق من خاصرته » .

شخصية اسلامية متميزة ميزه الله تبارك وتعالى بثلاث ... فقد كان أول من أسلم وآمن بمحمد ، وكان أول من صلى مع رسول الله ، وكان أول من آخى رسول الله فى المدينة ... قال ابن اسحق « ثم كان أول ذكر من الناس ابى طالب وهو يومئذ ابن عشر سنين » .. ودعاه رسول الله الى عبادة الله وحده لا شريك له ، والى الدين الذى بعث به ، والى انكار الأصنام ، وتلا عليه ما تيسر من القرآن ، فاخذ على عن نفسه ، وسحره جمال الآيات واعجازها ، فاستمهل الرسول حتى يشاور أباه ، وقضى ليلة مضطربة يفكر فيما دعاه اليه رسول الله ، وايقن بعد طول تفكير انه على حق ، وان دعوته

هى دعوة الخير والصلاح ؛ فلما أصبح أعلن أنه قد آمن بما جاء به محمد ؛ وأنه يتبعه دون حاجة الى رأى أبيه قائلا « لقد خلقنى الله من غير أن يشاور أبا طالب ؛ فما حاجتى أنا الى مشاورته لأعبد الله » .

وقال ابن اسحق « ذكر بعض أهل العلم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اذا حضرت الصلاة خرج الى شعاب مكة ؛ وخرج معه على بن ابى طالب مستخفيا من أبيه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ؛ فيصليان الصلوات فيها فاذا أمسيا رجعا ... ثم ان أبا طالب غدا عليهما يوما وهما يصليان فقال لعلى : أى بنى ما هذا الدين الذى أنت عليه ، فقال : يا ابت آمنت بالله وبرسول الله وصدقته بما جاء به وصليت معه واتبعته » .

وعن عبد الله بن محمد بن عمر عن أبيه قال « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة آخى بين المهاجرين بعضهم ببعض ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ... آخى بينهم على الحق والمواساة ، فآخى رسول الله بينه وبين على بن أبى طالب » ... وعنه أيضا ان النبى حين آخى بين أصحابه وضع يده على منكب على ثم قال « أنت أخى ترثنى وأرثك » .

شخصية اسلامية متميزة أرادت له أمه منذ ولادته أن يكون فى حياته هصورا كالأسد ، يجمع من صفاته القوة والشجاعة وشدة المراس ، فأطلقت عليه اسم أسد ، وقيل أنها سمته حيدره ، وهو اسم من أسماء الأسد ، وظل على — رغم أن أباه رفض اسم أسد — يعتز بهذا الاسم ويفخر به ، احساسا منه بقوته التى تجاوز قوة الأسد ، وبشجاعته التى تغالب شجاعة الأسد ، وبصلابته التى تفوق صلابة الأسد . ، وأنشد مرة ..

أنا الذى سمتنى أمى حيدره

كليث غابات كريه المنظره

أكيلكم بالسيف كيل السندره

شخصية اسلامية متميزة ألقت عليها الأقدار دورا كبيرا وخطيرا يوم أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة الى المدينة ، فقد اتفقت كلمة قريش — بعد أن أعجزتها الوسائل — على قتل رسول الله ، وأخطر جبريل رسول الله بما دبرته قريش وطلب منه الا يبيت فى فراشه ، وكان لابد — حتى تعمى بصائر قريش وقد أجتمع رجالها حول بيته عليه السلام يرقبونه انتظارا للحظة الهجوم عليه وقتله وهو نائم — من أختيار شخصية جريئة رابطة الجأش لتبيت مكان رسول الله ، ووقع الاختيار على على .. قال ابن اسحق

« أتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبت هذه الليلة في فراشك الذى كنت تبيت عليه ، فقال : فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبون عليه ، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلى بن أبى طالب : نم على فراشي ، وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر فنم فيه فانه لن يخلص اليك شىء تكرهه منهم » ... وخرج رسول الله من بيته وقد عميت أبصار قريش فلم يروه ، فلما أصبح الصباح دخلوا البيت فوجدوا عليا فى انتظارهم رابط الجأش قوى الارادة صلب العزيمة .

شخصية اسلامية متميزة اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم ليكون منه بمنزلة هرون من موسى ، تأكيدا لمكانته عند رسول الله ، فقد حدث أن خرج رسول الله الى غزوة تبوك وخلف عليا فى المدينة على أهله ، فتكلم في ذلك أهل الفتنة الذين اسلموا كذبا وخوفا ولم يدخل الاسلام قلوبهم وعقولهم ؛ فقالوا « ما منعه أن يخرج به الا أنه كره صحبته » ، فبلغ ذلك عليا فاضطربت نفسه وخرج مسرعا ياحق برسول الله ليقف على سبب منعه من الخروج ، فقال له رسول الله « أبا ابن أبى طالب أما ترضى أن تنزل منى بمنزلة هارون من موسى الا أنه لا نبى بعدى » .

شخصية اسلامية متميزة فاق أقرانه علما وحكمة وفقها ، كان له قلب مؤمن وعقل متفتح وادراك واع واحساس مرهف ، يلامسه الناس — كل الناس — حين يطالعون خطبه وكتبه وحكمه ومواعظه وآدابه وشعره ، التى خالطت النفوس ومازجت القلوب ، وسكنت الى العقول ، كان على مثلا حيا لنور القرآن وحكمته وعلمه وهدايته واعجازه وفصاحته ، كان شرع الفصاحة وموردها ومنشأ البلاغة ومولدها ، منه ظهر مكنونها وعنه أخذت قوانينها ، وعلى أمثلته حذا كل قائل خطيب ، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ ... كان كلامه عليه مسحة من العلم الالهى وفيه عبقة من الكلام النبوى ، ولنثبت هنا قولا له يؤكد صدق ما نذهب اليه ، ولو كان المجال مجال حديث عن أدبه وبلاغته ومنطقه وفصاحته لسقنا الأمثلة العديدة من أقواله وكلماته وأشعاره . قال على « الحمد لله الذى لا يبلغ مدحته القائلون ، ولا يحصى نعماءه العادون ، ولا يؤدى حقه المجتهدون ، الذى لا يدركه بعد الهمم ، ولا يناله غوص الفطن ، الذى ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت موجود ، ولا وقت معدود ، ولا أجل محدود ، فطر الخلائق بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ، ووتد بالصخور ميدان أرضه ، أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكمال التصديق به توحيده ، وكمال توحيده الاخلاص له ، وكمال الاخلاص له نفى الصفات عنه لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة ،

فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله ، ومن جهله فقد أشار اليه ، ومن أشار اليه فقد حده ، ومن حده فقد عده » .

شخصية اسلامية متميزة فى مجالات الحرب والقتال ، فقد كان سيفا بتارا يقتل أعداء الاسلام ، وحصنا منيعا يصدر عن الاسلام ويحميه ، ولا عجب فى هذا فقد شارك رسول الله فى كل معاركه ، لم يتخلف عن غزوة ولم يقعد عن جهاد ، بل كان دائما فى مكان الصدارة ، حتى اشتهر بين الناس بالقوة والصبر والجلد ، وأصبح اسمه ينتصر قبل سيفه ، وأصبح سيفه علما من أعلام المعارك يهد الأعداء ويصرع الأبطال ويحقق النصر ... قال محمد بن عمر « كان على ممن ثبت مع رسول الله يوم أحد حين انهزم الناس ، وبايعه على الموت ، وبعثه رسول الله سرية الى بنى سعد بفدك فى مائة رجل ، وكانت معه احدى رايات المهاجرين الثلاثة يوم فتح مكة ، وبعثه الى اليمن ، ولم يتخلف عن رسول الله فى غزوة غزاها الا غزوة تبوك خلفه فى أهله » .. عاش على حياته بجوار رسول الله مجاهدا أعظم ما يكون الجهاد ؛ وكانت له فى مجالات الحرب مواقف قل أن تكون لمثله ، وبعد وفاة الرسول ظل صاحب الرأى الأول فى أمور الحرب ، حتى اذا ما ولى الخلافة ووجه بما لم يواجه به أحد من قبل — اذ وقفت فى وجهه فئة مسلمة تحاربه وتصارعه طمعا فى منصب الخلافة — كانت له جولات خاضها وهو مكره ، حمل فيها سيفه ، وقاتل قتال الأبطال الشرفاء ، حتى كانت نهايته على يد عبد الرحمن بن ملجم ، الذى قتله غيلة غدرا ... قال الحسن بن على « واتيته سحرا فتحدثت اليه فقال انما بت الليلة أوقظ أهلى فملكتنى عيناى وأنا جالس فسنح لى رسول الله فقلت يا رسول الله لقيت من أمتك من الأود واللدد ، فقال لى : ادع الله عليهم » .

شخصية اسلامية متميزة لم يسع صاحبها أبدا الى مجد شخصى قدر سعيه الى رفعة الاسلام واستقرار أموره ، وكانت حياته كلها كفاحا من أجل هذا الهدف ، ومن خلال هذا الكفاح اختفت من حياته الأنانية وحب الذات ، ولعل خير دليل على ذلك ، أنه رغم اقتناعه بأنه أولى من أبى بكر بالخلافة ، بايعه بعد أن اتفقت كلمة المسلمين فى سقيفة بنى ساعدة على مبايعته ، ورغم اقتناعه بأنه أولى بالخلافة من عمر بايعه أيضا ، وظل الى جواره لا يحبس رأيا ولا يمنع مشورة ولا يحجب نصيحة ، يعالج معه أمور الرعية بنفس راضية وقلب مخلص وفكر صادق ، ورغم اقتناعه بأنه أولى بالخلافة من عثمان بايعه وظل بجانبه يشد من أزره ويعاونه وينصحه ويشير عليه ، ورغم اقتناعه بأنه أولى المسلمين كافة بالخلافة فقد عزف عنها حين سار اليه الناس بعد مقتل

عثمان يبايعونه بالخلافة ... قال الطبرى « أتاه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ان هذا الرجل (عثمان) قد قتل ، ولابد للناس من امام ، ولا نجد اليوم أحق بهذا الأمر منك ، لا اقدم سابقه ولا اقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : لا تفعلوا فانى اكون وزيرا خيرا من أن أكون أميرا » .. وفى روايه أخرى يقول الطبرى ايضا « اجتمع المهاجرون والأنصار فاتوا عليا فقالوا . يا أبا الحسن هلم نبايعك ، فقال : لا حاجه لى فى أمركم ، أنا معكم من اخترتم فقد رضيت فاختاروا » ولما تمسك الناس ببيعته صعد المنبر وقال « انى قد كنت كارها لامركم ، فأبيتم الا ان أكون عليكم » .. لقد كانت امنيته أن يظل وزيرا يرشد وينصح ويوجه ، ولم يكن راغبا فى منصب سعيا الى مكانة الحاكم ، وانما كان همه الاكبر أن يخدم الاسلام وأن يرعى مصالحه ، دون أن يرتبط بمنصب معين ، ولكنه تحت الالحاح والتشبث قبل الخلافة مرغما فكانت نهايته ، اذ فوبل بما لم يكن يخطر على بال بشر ، عارضه المقربون اليه ، وحاربه الطامعون فى الخلافه ، وكانت له مع هؤلاء وهؤلاء جولات أريقت فيها دماء المسلمين بايدى بعضهم دون أيدى اعدائهم .

سيد الشجعان

كان الجيش الاسلامى منذ عهد النبوة لا يلتزم بعدد معين من الأفراد ، لأن حجم الجيش كان يتوقف أساسا على عدد المؤمنين به الداخلين فيه ، فكل من دخل فى الاسلام أصبح جنديا ، يقع عليه عبء الدفاع عن دينه ، وواجب المشاركة الفعالة الايجابية فى خدمة الاسلام والمسلمين .

وكان الاسلام يشترط فى المحاربين شروطا معينة .. فلم يكن يخرج للقتال الا من امن بالله وبرسوله ايمانا بلغ حد الرغبة الجادة الكريمة فى الاستشهاد ، فهو قد عقد بينه وبين ربه عقدا باع فيه نفسه ووهبها للجهاد فى سبيله ، ولم يكن يخرج للقتال الا من أدرك عن عمق وفهم أن ايمانه تحت الاختبار ، وأن الله تجلت قدرته قد يبتليه بالخوف والجوع ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، وأن عليه أن يقابل ذلك بالصبر فلا يجزع ولا تهن قوته ولا يفقد عزمه ولا يضعف فى طلب العدو ولا يخفف من حماسه فى لقاء العدو ، فان كل ما يلاقيه فى الجهاد من صغيرة أو كبيرة قد كتبه الله له وأثابه عليه ... ولم يخرج للقتال الا من آمن بعمق بأهمية الاتفاق التام على جميع العمليات الميدانية ، وبأهمية عدم الاختلاف فى شأن من شئونها ، مع التجرد من الأمور الشخصية عمد بقوله تعالى « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » ، فلم يكن أحد من الخارجين يسعى وراء مصلحة خاصة أو غاية شخصية ، وانما كان الهدف الأكبر هو انتصار الاسلام أو الموت فى سبيله .

وكان الجيش الاسلامى قادة وجندا ، وكان القائد يتولى أمور جنـده ويعالج مواقف المعركة ومشـاكلها ويضع لها خططها ويتحمل مسـئولياتها ، وكانت القيادة تتمثل فى مستويين ... مسـتوى القيادة العليا وهذه تولاها رسول الله طيلة حياته ثم تولاها من بعده الخلفاء ، ومستوى قيادة الجيوش وهذه تولاها أبطال الاسـلام الذين توافرت فيهم صفات القيادة الناجحة ، وكان الجند يتولون تنفيذ خطط القائد ، سـامعين له مطيعين ، يخوضـون المعارك بنفوس راضية وقلوب مؤمنة هادفين نصر الاسلام نصرا عزيزا عظيما ، أو الاستشهاد استشهادا جليلا كريما .

وكان على بن أبى طالب واحدا من هؤلاء الجنـد ، توافرت فيـه كافة اشتراطات المقاتل الاسلامى ، فقد دخل الاسلام عن اقتناع ووهب نفسـه منذ حداثته للجهاد فى سبيل الله ولو كلفه هذا الجهاد حياته ... تعهده رسول الله منذ صغره بحكمته ونفخ فيه من روحه ، فكان غرسا كريما ، اتصف بالقوة والشجاعة والايثار والتضحية والفداء ، وكان بذلك كله يعدل جيشـا بأكمله بأسا وقوة وبطولة وحسن بلاء ... كذلك تولى على القيادة العليـا للجيش الاسلامى حين تولى الخلافة ، فأثبت أنه يحتل مكانة مرموقة بين القـادة على طول التاريخ ؛ بل ثبت أنه فى مكان الصدارة بالنسبة لقادة الحرب أجمعين .

حارب على تحت امرة رسول الله فى بدر ... وكانت له فى هذه الغزوة مواقف خالدة ، اذ أدرك رسول الله أنه مقاتل من طراز خاص اكتملت فيـه صفات المحارب ، فكان عليه السلام يركن اليه فى الأمور التى تتطلب فراسة وخبرة وقدرة وعلما وحسن تصرف ... كان أول عمل عسكرى يسنده اليـه هو القيام بعملية استطلاع ، كانت لها أهميتها البالغة ، فالاسـتطلاع خطوة هامة تسبق دخول الجيش — أى جيش — المعركة ... وهو يعنى جمع كافة المعلومات عن العدو حتى تكون هناك صورة واضحة عنه تفيد عند وضع خطة اللقاء ، وهذه العملية تتطلب أن يقوم بها انسان لديه صفات معينة كالشجاعة والجراة وبعد النظر وخفة الحركة والقدرة على المناورة والتصرف السـليم السريع واليقظة التامة ، وكان رسول الله حريصا على أن تتجمع لديه معلومات عن عدوه بعد أن بلغه تحرك قريش اليه ، فاختار من المسلمين ثلاثة رجـال بواسل هم على والزبير وسعد بن أبى وقاص ... ثلاثة كانوا عماد الحـرب فى عهد رسول الله وكانوا ركائز الاسلام بعد حياة رسول الله ، واختيـار هؤلاء الثلاثة يعنى ادراك الرسول لأهمية العملية وخطورتها .. خرج الثلاثة الى ماء بدر يلمسون الخبر عن قريش فأصابوا — كما حدث يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير — غلامين من بنى الحجـاج وبنى العاص فسـألوهما فقالا :

نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء ، فلم يصدقوهما فضربوهما ، فقالا نحن لأبى سفيان فتركوهما الا أن رسول الله قال : « اذا صدقاكم ضربتوهما واذا كذباكم تركتموهما ، صدقا والله انهما لقريش » ، وبدأ رسول الله عملية الاستجواب للغلامين حتى وقف منهما على كل ما كان يرجوه من أخبار قريش .

وظهرت قدرة سيد الشجعان على بن أبى طالب حين بدأ القتال فى بدر ، فقد نادى منادى قريش « يا محمد أخرج الينا أكفاءنا من قومنا » فقال رسول الله « قم يا يا ابا عبيده بن الحارث ، قم يا حمزة ، قم يا على » ، وهكذا وقع اختيار رسول الله على على فى اول لقاء ، وهو دليل ملموس على ثقته عليه السلام فيه واعتزازه به وتقديره لقدرته وفنه وامكانياته كمقاتل لا يبارى ... قام على فبارز الوليد بن عتبة فلم يمهله أن قتله ، وبارز حمزه شيبه بن ربيعة فلم يمهله أن قتله ، وبارز عبيدة — وكان اسن القوم — عتبة بن ربيعه واثبت كل منهما صاحبه ، فلم يقدر احدهما أن يقتل الآخر فأسرع على وحمزه وكرا بأسيافهما على عتبة وقتلاه ... ثم بدأ التلاحم وصار القتال عنيفا شديدا فكان على بطل المعركة ، أخذ الناس بسيفه وهدهم بساعده ، لم يجبن ولم يخف بل حارب وقاتل واثقا من نفسه قادرا على مواجهة عدوه ، وكان هو بطل المعركه وفارسها ، قتل من أعداء الاسلام ورءوس الكفر كثيرين منهم وجوه قريش واهل العزة والقوه فيها مثل عقبه بن ابى معيط ، والعاص بن سعيد ، ونوفل بن خويلد بن اسد ، وقيس بن الوليد بن المغيرة ، ومسعود بن أبى أميه ، والنضر بن الحارث .

والأمر الهام الذى نود أن نسلط عليه الأضواء هو أن عليا كان لا يدخر جهدا خلال المعركة بقدر ما كان يبذل ، فكم عاون اخوانه المقاتلين واسهم معهم وهم ينازلون بعض الكافرين ممن يجدون فيهم صبرا على القتال وشارك فى قتلهم ، فقد عاون حمزة فى قتل عتبه بن ربيعه ، وشاركه ايضا فى قتل زمعة بن الأسود بن عبد المطلب ، وشارك زيد بن حارثه فى قتل حنظله بن أبى سفيان بن حرب ، وهكذا كان على سيفا بتارا يضرب رقاب ائمه الكفر حتى أن قريشا حين خرجت الى أحد تطلب الثأر لقتلاها طالبت براس على ايمانا منها بأن قتله سيكون هدما لقوه المسلمين واضعافا لشوكتهم وكسرا لحدتهم ، فقد دعا جبير بن مطعم عبدا حبشيا يدعى وحشى وقال له « أن قتلت محمدا فأنت حر ، وان قتلت عليا فأنت حر ، وان قتلت حمزة فأنت حر » ، فقال وحشى « أما محمد فسيمنعه أصحابه ، وأما على فرجل حذر كثير الالتفات فى الحرب ، ولكنى سأقتل حمزة » ، وقتله .

وفى أحد كان لسيد الشجعان موقف بطولى يروى فيقتدى ، فقد دعاه

رسول الله عندما اشتد القتال فسلمه الراية وتقدم بها ليواجه أبا سعيد بن أبى طلحة صاحب لواء المشركين وهو يقول « أنا أبو القصم » ، فناداه أبو سعيد « هل لك يا أبا القصم فى البراز من حاجة ؟ » ، فأجابه على « نعم » وتلاحما فضربه على فصرعه ، ثم انصرف عنه دون أن يجهز عليه ، فقال له أصحابه « أفلا أجهزت عليه ؟ » ، فقال « انه استقبلنى بعورته فعطفتنى عنه الرحم ، وعرفت أن الله عز وجل قد قتله » .

وكان على يدفع عن رسول الله ويصد عنه هجمات قريش التى كانت تبغى قتله تخلصا منه ومن دعوته ، وكانت عينا على لا تغيب عن موقع رسول الله ، فقد حدث خلال المعركة أن رمى عتبة بن أبى وقاص رسول الله فكسر رباعيته اليمنى وجرح شفته السفلى ، وشج عبد الله بن شهاب الزهرى رسول الله فى جبهته ، وجرح ابن قميئة رسول الله فى وجنته ، وسقط رسول الله فى حفرة من الحفر التى حفرها أبو عامر ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون ، وكان على بن أبى طالب هو أسرع الناس الى رسول الله ، فأخذه بيديه ثم ملأ درقته ماء ، وجاء به الى الرسول ليشرب منه فوجد له ريحا فعف عنه فلم يشرب منه ، وغسل عن وجهه الدم .

ومهمة ثالثة كلف بها على فى أحد ، فبعد أن تحول نصر المسلمين الى هزيمة سيطرت الفرحة على أبى سفيان ، فأشرف على الجبل وصرخ بأعلى صوته « ان الحرب سجال ، يوم بيوم بدر ، اعل هبل (أى أظهر دينك) » ، ثم قال مخاطبا المسلمين « ان موعدكم بدر العام المقابل » ، وانصرف أبو سفيان وقومه ، وخشى رسول الله أن يكون أبو سفيان متجها الى المدينة ، فدعا عليا وقال له « اخرج فى آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون ، فان كانوا قد جنبو الخيل وامتطوا الابل فانهم يريدون مكة ، وان ركبوا الخيل وساقوا الابل فانهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن اليهم فيها ثم لأناجزنهم » ، وقال على « خرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنبوا الخيل وامتطوا الابل ووجهوا الى مكة » .

قال ابن اسحق « فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ناول سيفه ابنته فاطمة فقال « اغسلى عن هذا السيف دمه يا بنية فو الله لقد صدقنى اليوم » ، وناولها على بن أبى طالب سيفه فقال « وهذا أيضا فاغسلى عنه دمه فو الله لقد صدقنى اليوم » وصور ابن أبى نجيح موقف على فى أحد فى قوله « لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا على » .

كان على يوم أحد رجل معركة وخبير قتال ، فتك بصناديد قريش وقتل

الأقران ، وثبت وقت المحنة .. كان على حد قول جعفر الاسكافى « هو أحب المسلمين الى الله لأنه كان أثبتهم قدما فى الصف المرصوص ، لم يفر قط باجماع الأمة ولا بارزه قرن الا قتله » ... وقال أبو جعفر أيضا وهو يضــــع أمام التاريخ صورة واضحة المعالم لبطولة على وهمته وجراته فى القتال وشجاعته عند النزال « اذا تأملت أمر العرب وقريش ونظرت السير وقرأت الأخبــار عرفت أنها كانت تطلب محمدا صلى الله عليه وسلم وتقصد قصده وتروم قتله ، فان أعجزها وفاتها ، طلبت عليا وأرادت قتله ، لأنه كان أشبههم بالرســـول حالا ، واقربهم منه قربا وأشــــدهم عنه دفعا وأنهم متى قصدوا عليا فقتلوه أضعفوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وكسروا شوكته ، اذ كان أعلى من ينصره فى البأس والقوة والشجاعة والنجدة والاقدام والبسالة » .

ها هو ذا على بن أبى طالب سيد الشجعان يواجه عمرو بن عبد ود ، وهو رجل له تجربة فى القتال وصبر عليه وجلد فى ملاقاة العدو ، حتى قيل انه كان يعدل بألف فارس ...خرج عمرو يوم الخندق مع بعض من رجاله منهم عكرمة بن أبى جهل وهبيرة بن أبى وهب وضرار بن الخطاب ، الى مكان ضيق من الخندق ، وضربوا خيلهم فاقتحمته ، ثم وقف ينادى « من يبارز ؟ » فتهيب الناس لقاءه ولم يخف أحد اليه ، فقام على يريد منازلته فأمره النبى أن يجلس، ثم صال عمرو وجال ، وهو يدعو للمبارزة ، والناس على ما هم عليــــه ، ويحاول على فى كل مرة أن يخرج اليه ، فيمنعه رسول الله خوفا عليه من لقاء عمرو ، وكان يقول له « اجلس انه عمرو » ، فقال له على : « وأنا على » ، فأدناه الرسول حين رأى اصراره ، وقبله وعممه بعمامته ومشى معه خطوات كأنما يودعه ، ثم تقدم على الى مكان عمرو ورســـول الله يردد « الآن برز الاسلام كله للشرك كله » ، وقال على مخاطبا عمرو « انك قد كنت عاهدت الله الا يدعوك رجل من قريش الى احدى خصلتين الا أخذتها منه ، قال : أجل، فقال له على : فانى أدعوك الى الله والى رسوله والى الاسلام ، فقال له : لا حاجـــة لى بذلك ، قال على : انى أدعوك الى النزال ، فقال : لم يا ابن أخى فو الله ما أحب أن أقتلك ، قال له على : ولكنى والله أحب أن أقتلك » ، فغضب عمرووافتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهــه ، ثم أقبــل على على فتنازلا فقتله على ، واسعد قتله حذيفة بن اليمان فأجرى شعرا على لسانه يقول قصيدة طويلة منها :

نصر الحجارة من سفاهة رأيه ونصرت رب محمـــد بصوابى
لا تحسبن الله خاذل دينـــــه ونبيــه يا معشر الأحـــزاب

وقال حذيفة أيضا « لو قسمت فضيلة على بقتل عمرو يوم الخندق بين

المسلمين اجمعهم لوسعتهم » ، وقال ابن عباس فى قوله تعالى (وكفى الله المؤمنين القتال) قال بعلى بن ابى طالب .

وهكذا قضى على على عمرو وهو واحد من صناديد قريش ، وكان رسول الله يرقب قتال الاثنين وهو يدعو الله ان يحفظ عليا وان يرعاه وان يجعل النصر رفيقه ، ذلك انه عليه السلام كان يعرف ما لعمرو من القوة والبأس والخبرة ، وفى ذلك قال ابو جعفر الاسكافى « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وقد برز على الى عمرو بن عبد ود وقد رفع يديه الى السماء بمحضر من أصحابه : « اللهم انك اخذت منى حمزة يوم أحد وعبيدة يوم بدر فاحفظ اليوم عليا » .

وثقة من رسول الله فى على أسلمه راية المسلمين الى بنى قريظة ، وكتب سيد الشجعان على بن أبى طالب فى غزوة خيبر صفحة مجيدة تتميز بالعبقرية وتتسم بالبطولة ، فقد بعث رسول الله ابا بكر برايته الى بعض حصون خيبر فقاتل ورجع ولم يفتحها ، ثم بعث عمر بن الخطاب فقاتل ثم رجع ولم يفتحها ، فقال رسول الله لأصحابه « لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويفتح الله على يديه ، ليس بفرار » ، وفى الغد دعا رسول الله عليا وهو أرمد فتفل فى عينيه ، ثم قال له « خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك » ، فخرج على والناس من خلفه يتبعون أثره ، فما أن وصل الى الحصن حتى ثبت الراية فى رضم من حجارة تحت الحصن ، ثم هاجمه وفتحه الله على يديه ... روى ابن اسحق عن أبى رافع مولى رسول الله « خرجنا مع على بن أبى طالب رضى الله عنه ، حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم برايته ، فلما دنا من الحصن ، خرج اليه أهله فقاتلهم ، فضربه رجل من يهود فطاح ترسه من يده ، فتناول عليه السلام بابا كان عند الحصن فترس به عن نفسه ، فلم يزل فى يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه ، ثم ألقاه من يده حين فرغ ، فلقد رأيتنى فى نفر سبعة معى أنا ثامنهم نجهد على أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه » .

وروى ابن سعد فى الطبقات الكبرى « حدثنا سهل عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خيبر : لأدفعن الراية الى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ويفتح عليه ، فلما كان الغد دعا عليا فدفعها اليه فقال : قاتل ولا تلتفت حتى يفتح الله عليك ، فسأله : يا رسول الله علام أقاتل ؟ قال : حتى يشهدوا أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، فاذا فعلوا ذلك فقد منعوا منى دماءهم وأموالهم الا بحقها وحسابهم على الله » [*]

وكان لعلى دور بارز وخطير فى غزوة الفتح .. فقد كانت رغبة رسول الله أن يدخل مكة دون قتال ، ولهذا أخفى أمر التحرك وقال « اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها » ، الا أن حاطب بن أبى بلتعة كتب الى قريش ينبئهم بأن الرسول يتجهز لهم ، وأعطى الكتاب لامرأة من مزينة تدعى سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب ، وجعل لها جعلا على أن تبلغه قريشا ، فجعلته فى راسها ، ثم فتلت عليه قرونها ثم خرجت به ، وعرف رسول الله الخبر من السماء ، وكان لابد من أن يمنع وصول الكتاب الى قريش ، فدعا على بن أبى طالب ودعا معه الزبير بن العوام وقال لهما « أدركا امرأة قد كتب معها حاطب بن أبى بلتعة بكتاب الى قريش يحذرهم ما قد أجمعنا له فى أمرهم » ... وان اختيار على والزبير يرجع الى ثقة الرسول فيهما واطمئنانه اليهما ، فخرجا معا ، حتى أدركاها ، فالتمسا فى رحلها فلم يجدا شيئا ، فقال لها على « انى أحلف بالله ما يكذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ، ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لنكشفنك » ... موقف يتطلب اتخاذ قرار سريع وحاسم ، ولهذا هددها على ، فلما رأت منه التصميم والجدية قالت « أعرض » ، فأعرض فحلت قرون رأسها واستخرجت الكتاب ودفعته اليه ، وهكذا فشلت بفضل ذكاء على وجديته محاولة خطيرة كادت أن تكشف لقريش أمرا أراد له الرسول أن يكون سرا حتى يباغتها فى دارها .

ودخل على مكة مع رسول الله .

وفى حنين تعرض المسلمون لمحنة قاسية ، فقد سبقهم أهل حنين الى الوادى فكمنوا فى شعابه وأحنائه ومضايقه ، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا ، وروى ابن اسحق عن جابر بن عبد الله « فو الله ما راعنا ونحن منحطون الا الكتائب قد شدوا علينا شدة رجل واحد ، وانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد ، وانحاز رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات اليمين ، ثم قال : أين الناس ؟ هلموا الى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله » ... ان هذا الموقف الخطير يتطلب شجاعة وقدرة على الصمود وصلابة فى المواجهة ، ولقد ثبت رسول الله فى هذا الموقف بينما فر الناس ، اللهم الا سيد الشجعان على بن أبى طالب ، فقد ثبت مع رسول الله ، وكان وحده من ثبت معه من أهل بيته .

ظل على بجانب رسول الله فى كل معاركه وغزواته الا غزوة تبوك ، فلم يشركه رسول الله فيها ، اذ خلفه على أهله ، وأمره بالاقامة فيها ، فأرجف به المرجفون وقالوا « ما خلفه الا استثقالا له وتخففا منه » ، فلما بلغ ذلك عليا أخذ سلاحه وخرج حتى أتى رسول الله وهو نازل بالجرف ، فقال : « يا نبى

الله ، زعم المنافقون أنك انما خلفتنى أنك استثقلتنى وتخففت منى » ، فقال له الرسول « كذبوا ولكنى خلفتك لما تركت ورائى ، فارجــع فاخلفنى فى أهلى واهلك ، افلا ترضى يا على أن تكون منى بمنزلة هــارون من موسى ؟ الا أنه لا نبى بعدى » .

ورجع على الى المدينة .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على سفره .

موقعــــة الجمـــــل

موقعة الجمل من المواقع الهامة ذات التأثير الكبير فى التاريخ الاسلامى. فهى أول معركة يكون المسلمون طرفيها ...

كان المسلمون قبلها جبهة واحدة يحاربون عدو دينهم ويســـــعون بكل ما يجيش فى نفوسهم ووجدانهم الى نصرة الاسلام وقهر أعدائه ، أما فى هـــذه الموقعة فقد اختلفت الصورة ، اذ أصبح المسلمون طرفين فى معركة واحدة .. تحارب فئة منهم فئة أخرى منهم ... كانت معركة بين جماعتين من المسلمين ، قام الاسلام بجهدهم ، واشتد بايمانهم ، وانتصر بســـواعدهم ... كانت معركة قتل فيها المسلمون بأيديهم ، وسالت دماؤهم لا بسيوف عدوهم ، وانما بأسلحتهم هم أنفسهم .

فى هذه الموقعة أصيبت الأمة الاســـلامية بفرقة خطيرة ، بلغت حـــد الصدام المسلح بين أبنائها الذين جمعهم رســـول الله صفا واحدا يقاتلون فى سبيل الله ، والذين ظلوا على هذا النهج فى عهد أبى بكر وفى عهد عمر ... فلما كان عهد عثمان أطلت الفتنة برأسها ، فأثارت المسلمين على خليفتهم ، فلما انتهوا منـــه ، وأختير على بن أبى طالب خليفـــة ، ثارت النفوس وتطلع الكثيرون الى منصب الخـــلافة الذى أصبح مطمعـــا وهدفا وغاية ، وتناسى المسلمون رسالتهم الأصلية ، وتفرقت بهم الســـبل ، كل يؤيد وجهة نظر صاحبه ، وأصبحوا أشتاتا مبعثرين يكيدون لبعضهم ، حتى انتهى بهم الخلاف الى المواجهة العسكرية .

وكانت موقعة الجمل أولى هذه المواجهات .

وكانت أيضا مجرئة لمعاوية فأعد جيشــــا حارب به عليا فى صفين ثم حارب أولاده من بعده ...

* * *

وقد سبقت موقعة الجمل احداث هامة أدت اليها ، ومهدت الطريق أمامها ، ويسرت السبيل الى وقوعها ، وهيأت الأذهان لأحداثها .

فقد فوجىء المسلمون بعدوان رجل من اهل فارس يدعى أبو لؤلؤة فيروز على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، اذ طعنه بخنجر طعنة قاتلة ، وتولاهم الفزع اشفاقا على مصيرهم ، وجعلوا يفكرون فيمن يخلفه اذا قضى الله فيه بقضائه ، وتحدثوا اليه فى هذا الأمر .

ورأى عمر أن يجعل الخلافة من بعده شورى ، فاختار ستة من المهاجرين من قريش ، هم عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوام ، وطلب أن يختاروا من بينهم الخليفة .. « لا اجد احدا أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفى رسول الله صلى الله علية وسلم وهو عنهم راض ، فأيهم استخلف فهو الخليفة من بعدى » .

ومات عمر ، وتباحث الرجال الستة ، واشتد الجدل بينهم ، وانتهى الرأى الى مبايعة عثمان ، وعادت الأمور سيرتها الأولى ، وجرى الناس فى مألوف حياتهم .

ولأسباب كثيرة متنوعة — ليس هنا مجال التعرض لها أو الحديث عنها — ثارت الأمصار على عثمان ...

وكانت الكوفة هى موطن الثورة الأساسى ، فكم تذمر أهلها من أمرائهم وولاتهم حتى أن قيس بن سلمة قال :

أقسمت بالله رب البيت مجتهدا ارجو الثواب له سرا واعلانا
لأخلعن أبا وهب وصاحبه كهف الضلالة عثمان بن عفانا

وكذلك كانت البصرة ... فقد حمل لواء الثورة والاثارة بها يهودى يدعى عبد الله بن سبأ ، كان قد اسلم فى أيام عثمان ، ثم ما لبث أن تنقل فى الأمصار يثير الناس ضد عثمان ...

وفى مصر ... أفسد عبد الله بن أبى السرح ما بين اهلها وبين الخليفة ...

وفى المدينة ... استمع الصحابة الى ما ردده الوافدون من الأمصار ، فاغضبهم ما سمعوا وتألموا له وفسد ما بينهم وبين عثمان .

وتجمعت فى المدينة افواج متعددة من مختلف الأمصار ، وحاصرت دار عثمان ، وبذلت محاولات عدة من جانب عثمان نفسه « يا قوم لا تقتلونى فانى وال واخ مسلم ، فو الله ما أردت الا الاصلاح ما استطعت اصبت او اخطأت ، وانكم ان تقتلونى لا تصلوا جميعاً ابدا ، ولا تغزوا جميعا أبدا ، ولا يقسم فيئكم بينكم » ... وحاول على وطلحة والزبير تهدئة الموقف والوصول الى حل يرضى عنه الجميع ، وذهبت محاولاتهم ادراج الرياح ... وطالب الناس عثمان بالتنازل فرفض ... « لم اكن لأخلع سربالا سربلنى الله » ...

وانتهى الموقف السيء العصيب بمهاجمة دار عثمان — بعد حصار استمر اربعين يوما — وقتله .

وبايع المسلمون لعلى بن ابى طالب

وثارت مشكلات متعددة على أثر هذه البيعة

كانت أولاها مشكلة الخلافة ذاتها ... فقد كان هناك كثيرون يطمعون فى ان يكون الأمر لهم ، وفى مقدمة هؤلاء طلحة بن عبيد الله ابن عم السيدة عائشة رضى الله عنها ... وكانت السيدة عائشة من اكثر الناس تحمساً له وتأييداً ، حتى انها كانت فى مكة حين قتل عثمان فاسرعت الى المدينة ليكون لها رايها فى الخليفة الجديد ، وعندما بلغت موضعاً يسمى سرف — على مسيرة ليلة من مكة — لقيها عبيد بن كلاب فاخبرها بمبايعة على ، فغضبت لذلك ، لأنها كانت ترجو أن تكون الخلافة لطلحة ، قال لها عبيد « ... اجتمعوا الى على بن ابى طالب » فقالت « والله ليت أن هذه انطبقت على هذه ، ان تم الأمر لصاحبك ... ويحك انظر ما تقول » قال « هو ما قلت لك » فولولت فسألها « ما شأنك يا أم المؤمنين ؟ والله لا اعرف بين لابتيها احدا أولى بها منه ولا احق » .

وكان دم عثمان مشكلة اخرى واجهها على طوال عهده حتى يوم مقتله .. ولقد اثارت السيدة عائشة هذه المشكلة فور وصولها الى المدينة ، فقد اجتمع الناس اليها فخاطبتهم « ايها الناس ان عثمان قتل مظلوما ، والله لاطلبن بدمه ... يا معشر قريش ان عثمان قتل ... قتله على بن ابى طالب .. والله الليلة من عثمان خير من على الدهر كله » .

وكان صوت السيدة عائشة هو أول صوت أعلن المعارضة لعلى ، والقى عليه بتبعة قتل عثمان ، ومن وراء صوتها ارتفعت أصوات أخرى تعارض وتتهم ... واشتد الحاح المطالبين بدم عثمان ، وتحولت المطالبة بدمه الى اتهام صريح لعلى بالتواطؤ على قتله والتشجيع عليه والدفع اليه ، وأصبحت المطالبة بدم عثمان هى السبيل الوحيد لمقاومة على ، وتأليب القوى عليه ، حتى تؤخذ منه الخلافة قسراً ، لمن يسعى اليها ويطمع فيها ، سواء من فى المدينة كطلحة او من فى الأمصار كمعاوية ... يقول ابن سيرين « ما علمت أن عليا أتهم بدم عثمان حتى بويع فلما بويع اتهمه الناس » ... وهذا يعنى أن الناس كانوا يسعون الى الخلافة من خلال دم عثمان .

* * *

كان على رأس الخارجين على على ثلاثة لهم شأنهم فى التاريخ الاسلامى :

عائشة ... أم المؤمنين زوج رسول الله وابنة أبى بكر الصديق .. كانت صاحبة مكانة مرموقة بين المسلمين ، آثروها بالمودة والتقدير والاحترام ، لمكانتها ومكانة أبيها من رسول الله ... وكان بيتها بعد وفاة الرسول مثابة للصحابة ومقصداً للمسلمين ، يلتمسون عندها آثار الرسول واخباره ... كانت غاضبة على على ، وكانت ترجو أن يكون طلحة هو الخليفة بعد عثمان ، فلما انصرف الناس عنه الى على رأت أن تعارض هذا الاختيار ، فطالبت بدم عثمان ، واتهمت علياً بقتله ، وأثارت بذلك النفوس ضد الخليفة الجديد ...

وطلحة ... كان من السابقين الى الاسلام ، ومن العشرة الذين وعدوا الجنة ... كان فيمن ثبت مع الرسول حين ولى الناس ، وبايعه على الموت وصد عنه ضربة سيف شلت أصبعه ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ... وحين قتل عثمان طمع فى الخلافة ، وطلب أن يجتمع الناس ليختاروا خليفة ، فلما بويع لعلى أبدى اعتراضه ولكنه اضطر تحت ضغط الناس الى المبايعة ... قال ابن ثور « ... وكان أول من صعد المنبر فبايعه بيده » ، ورغم مبايعته فقد ظل غاضباً آملا أن تكون الخلافة له ، وأيدته فى ذلك السيدة عائشة .

والزبير .. ابن عمة رسول الله صفية بنت عبد المطلب ... اسلم فى سن مبكرة ، وكان من السابقين الى الهجرة ، فقد هاجر مرتين الى الحبشة ، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ، قال عنه الرسول « لكل نبى حوارى وحواريى الزبير » ، .. نازع علياً فى الخلافة ، وكان يرجو أن يكون هو الخليفة بعد عثمان ، لهذا انضم الى معسكر السيدة عائشة رغم أنه بايع لعلى ... روى اليعقوبى « أتاه — يقصد علياً — طلحة والزبير فقالا : انه قد نالتنا بعد رسول الله جفوة فأشركنا في أمرك ، فقال : أنتما شريكاي في القوة وعوناي على العجز

والأود » .. وقال فيهما ابن عباس حين استشاره على « أرى أنهما أحبا الولاية .. » .

تجهز الثلاثة مع من انضم اليهم للتحرك لمواجهة على فى معركة كانوا يأملون فيها نصراً يخلعه ويحقق هدفهم ، واختلف أمرهم فى وجهة السير ، قال الزبير « الشام بها الرجال والأموال ، وعليها معاوية وهو ابن عم الرجل (يعنى عثمان) ، ومتى نجتمع يولنا عليه » .. وقال عبد الله بن عامر « البصرة ، فان غلبتم عايا فلكم الشام ، وان غلبكم على كان معاوية لكم جنة » .. وقال يعلى بن أمية « قدرا قبل أن ترحلا ، ان معاوية قد سبقكم الى الشام وفيها الجماعة ، وأنتم تقدمون عليه غدا فى فرقة ، وهو ابن عم عثمان دونكم .. أرأيتم أن دفعكم عن لشام ، أو قال لكم أجعلها شورى .. ما أنتم صانعون ؟ اتقاتلونه ؟ أم تجعلونها شورى فتخرجان منها ؟ واقبح من ذلك أن تأتيا رجلا فى يديه أمر سبقكم اليه وتريدان أن تخرجاه منه ؟ » .. ونصحهم يعلى بالتوجه الى البصرة .

وبل طلحة والزبير جهداً كبيراً لجمع القوى واثارتها ضد على .. كتبا الى كعب بن سور فى اليمن ، والى المنذر بن ربيعة فى ربيعة ، والى الأحنف بن قيس فى مصر .

والثلاثة « كلهم سيد مطاع » كما وصفهم عبد الله بن عامر حين سأله الزبير « من رجال البصرة ؟ » .

* * *

وتحرك الركب الى البصرة

وبينما أم المؤمنين على الطريق وصلتها رسالة من أم سلمة زوج الرسول « ياعائشة انك سدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أمته .. حجابك مضروب على حرمتة ، وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحية ، وسكن عقيراك فلا تصحريهما .. الله من وراء هذه الأمة .. قد علم رسول الله مكانك لو أراد أن يعهد اليك .. ان بعين الله مثواك ، وعلى رسول الله تعرضين ، ولو أمرت بدخول الفردوس لأستحييت أن القى محمداً هاتكة حجابا جعله الله على » ...

وجاء فى العقد الفريد أن السيدة عائشة أجابت أم سلمة « ما أقبلنى لوعظك ، وأعلمنى بنصحك ، وليس مسيرى على ما تظنين ، ولنعم المطلوع مطلع أصلحت فيه بين فئتين متناحرتين » .

وبينما الركب يغذ السير — على حد ما رواه الطبرى وابن قتيبة — سمعت السيدة عائشة نباح الحوأب (الكلاب) فقالت « انا لله وانا اليه

راجعون ، انى لهيه ، وما ارانى الا راجعة ، فقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنسائه : كأنى باحداكن قد نبحتها كلاب الحواب .. واياك ان تكونى انت ياحميراء » .

واعترض المغيرة بن شعبة الركب « أيها الناس ان كنتم انما خرجتم مع أمكم فارجعوا بها خير لكم ، وان كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان ، وان كنتم نقمتم على على شيئا فبينوا ما نقمتم عليه .. أنشدكم الله .. فتنتين فى عام واحـــد » .

واقبل سعيد بن العاص وسأل أم المؤمنين عن وجهتها فقالت « اريـــد البصرة » ، فسألها عن هدفها فأجابت « أطلب بدم عثمان » فقال لها « فهؤلاء قتلة عثمان معك » .

فى هذه الأثناء كانت البصرة قد بايعت لعلى وعاهدته على الوفاء والولاء والمناصرة .. وسمع والى البصرة عثمان بن حنيف — وهو أنصارى وصاحب رسول الله — بأن القوم اصبحوا على مشارف المدينة ، فدعا عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلى وطلب منهما أن يلقيـــا القوم ، وأن ينبهاهم الى خطورة الموقف وجسامة ماهم مقدمون عليه ، وأن يطلب منهم ضبط النفس حرصا على صالح الاسلام ووحدة المسلمين .. والتقى الرجلان بالقوم وتحدث اليهم أبو الأسود فقال مخاطبا طلحة « أنتم قتلتم عثمان غير مؤامرين لنا فى قتله ، وبايعتم عليا غير مؤامرين انا فى بيعته ، فلم نغضب لعثمان اذ قتل ، ولم نغضب لعلى اذ بويع ، فأردتم خلع على ونحن على الأمر الأول ، فعليكم المخرج مما دخلتم فيـــه » .. وخاطب عمران طلحة أيضا فقال « انكم قتلتم عثمان ولم نغضب له اذا لم تغضبوا ، ثم بايعتما عليا وبايعنا من بايعتم ، فان كان قتل عثمـــان صـــوابا فسيركم لماذا ؟ وان كان خطـــأ فحظكم منـــه الأوفر ونصيبكم منه الأوفى » .

ولم يستجب لهما طلحة فقد قال « ان صاحبكم لا يرى أن معه فى هذا الأمر غيره وليس على هذا بايعناه والله ليسفكن دمه » .

وتحدث الرجلان الى الزبير فلم يستجب هو الآخر ، فلجآ الى الســـيدة عائشة وقالا « يا أم المؤمنين ... ما هذا المسير ؟ امعك من رسول الله بـــه عهد ؟ » ، فاجابت « قتل عثمان مظلوما ، غضبنا لكم من الســـوط والعصـــا ولا نغضب لعثمان من القتل » ، فقال لها ابو الأسود « وما أنت من عصـــانا

وسيفنا وسوطنا وانت حبيس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، امرك أن تقرى فى بيتك ، فجئت تضربين الناس بعضهم ببعض » ، فسألته « وهل يقاتلنى » ؟ فاجابها « اما والله لتقاتلن قتالا أهونه الشديد » .

واقبل جارية بن قدامة السعدى على السيدة عائشة وقال « يا أم المؤمنين .. والله لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح ... انه قد كان لك من الله ستر وحرمة ، فهتكت سترك وابحت حرمتك ، انه من رأى قتالك فقد رأى قتلك ... ان كنت أتيتنا طائعة فارجعى الى منزلك ، وان كنت اتيتنا مستكرهة فاستعينى بالناس » .

روى الطبرى « لما نزلت عائشة البصرة اصطف الناس لها فى الطريق يقولون : يا أم المؤمنين ما الذى اخرجك من بيتك ؟ ... فلما اكثروا عليها تكلمت بلسان طلق — وكانت من أبلغ الناس — فحمدت الله واثنت علية ثم قالت : ايها الناس ... والله ما بلغ من ذنب عثمان ان يستحل دمه ، ولقد قتل مظلوماً ، غضبنا لكم من السيوف والعصا ولا نغضب لعثمان من القتل !! فيقتلوا به ، ثم يرد هذا الأمر شورى على ما جعله عمر بن الخطاب ، ولا يدخل فيهم من شرك فى دم عثمان » وكانت تعنى بذلك أن يعاد الاختيار بين الستة الذين عينهم عمر ، على ان يبعد منهم على .

واتفق القوم مع عثمان بن حنيف عامل البصرة على أن تكون له دار الامارة والمسجد وبيت المال ، وان ينزل واصحابه حيث شاءوا ، وأن ينزل القوم حيث شاءوا ، حتى يقدم على ، فان اجتمعوا دخلوا فيما دخل فية الناس ، وان تفرقوا يلحق كل قوم باهوائهم ، ودخل عثمان داره وأمر أصحابة أن يلحقوا ببيوتهم وأن يضعوا سلاحهم ، واستجاب الناس الا بنى عبد القيس ، فقد وقفوا ضد طلحة والزبير وعائشة فى صراحة ووضوح ، وقال رئيسهم حكيم بن جبل « وايم الله لو لم يكن على أميراً لمنعناه لمكانته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف وله الولاية والجوار ؟ » ثم خاطب قومه « جاهدوا العدو فاما أن تموتوا كراما أو تعيشوا احراراً » .

ومكث عثمان فى بيتة ... وفى ليلة هاجمه طلحة والزبير ومروان وقتلوا حرسه (قيل فى رواية ابن قتيبة انهم قتلوا اربعين من الحرس ، وقيل فى رواية للمسعودى أنهم قتلوا بسبعين غير من جرح) واسروه ونتفوا لحيته ورأسه وحاجبيه ثم أطلقوه وانتهبوا — على حد ما أورده اليعقوبى — بيت المال وأخذوا ما فيه ...

* * *

وفى الجانب الآخر كان على حزيناً لهذا الموقف الذى وجد نفسه فيه مضطراً الى الدفاع عن حقه الشرعى .. وأراد ان يرد عن نفسه الاتهام ، وان يكشف أعداءه الذين تجمعوا ضده ، وان يزيح الستار عن حقيقة نواياهم ، فخاطب الناس قائلا « والله ما أنكروا على منكراً ، ولا استأثرت بمال ، ولاملت بهوى ، وانهم ليطلبون حقا تركوه ودما سفكوه ، وما تبعة عثمان الا عندهم وانهم لهم الفئة الباغية ، بايعونى ونكثوا بيعتى ، وما استأنوا بى (اى انتظروا) حتى يعرفوا جورى من عداى ... انى قد بايت بأربعة ... أدهى الناس وأسخاهم طلحة ، وأشجع الناس الزبير ، واطوع الناس فى الناس عائشة ، وأسرع الناس الى فتنة يعلى بن امية » .

ان علياً — وهو أسبق الناس الى الاسلام وأكثرهم دفاعا عن الرسول وعن الدين وأشدهم ضرارة لأعداء الاسلام — يجد نفسه فى مأزق ... انه يواجه فئة من المسلمين ، تقف فى وجهه وتصده عن واجبه الشرعى فى اتمام رسالة الاسلام ، وفى استكمال ارساء قواعد دولته ، التى بداها رسول الله ، وأكملها من بعده أبو بكر ثم عثمان ... انه يواجه أمراً أشد على الاسلام وعلى المسلمين من الردة التى عانى منها المسلمون بعد وفاة رسول الله ...

ورأى على أن يواجه القوم ، فخرج من المدينة على راس تسعمائة من وجوه المهاجرين والأنصار من أهل السبق مع رسول الله ، ومعه بشر كثير من اخلاط الناس ، واتفقت جميع المصادر على انه لم يجبر احداً على الخروج ، ولم يحمل احدا على ما يكره ... وخرج معه أولاده الحسن والحسين ومحمد ... وولى على المدينة قثم بن عباس ...

وكتب على الى اخيه عقيل « ان قريشا قد اجتمعت على حرب اخيك اجتماعها على حرب رسول الله صلى الله علية وسلم قبل اليوم ... وجهلوا حقى وجحدوا فضلى ونصبوا لى الحرب وجدوا فى اطفاء نور الله ... اللهم فاجز قريشا عنى بفعالها ... قد قطعت رحمى وظاهرت على وسلبتنى سلطان ابن عمى ، وسلمت ذلك لمن ليس فى قرابتى وحقى فى الاسلام وسابقتى التى لا يدعى مثلها مدع ... ان رايى جهاد المحلين حتى القى الله ... لا يزيدنى كثرة من حولى عزة ، ولا تفرقهم عنى وحشة ، لأنى محق والله مع الحق ، وما أكره ان اموت على الحق لأن الخير كله بعد الموت لمن عقل ودعا الى الحق ... » .

وكان أبو موسى الأشعرى على الكوفة فبعث على الية الحسن ابنه وعبد الله بن عباس وعمار بن ياسر وقيس بن سعد ومحمد بن ابى بكر ومعهم كتاب الى اهل الكوفة يشرح لهم وجهة نظره ويعرض عليهم الموقف متكاملا

ويضع امامهم صورة واضحة لما حدث منذ مقتل عثمان ومبايعته ثم التخلى عن المبايعة والرغبة فى قتاله . . . جمع ابو موسى الناس ، ودعاهم الى نصرة على لقرابته من رسول الله ولسابقته الى الاسلام وبيعة طلحة والزبير ثم نكثهما بعدهما فقال شريح بن هانىء « . . . والله لو لم يستنصر بنا لنصرناه سمعا وطاعة » ، وخاطب الحسن وعمار وقيس الناس « ايها الناس وايم الله لو لم ينصره منكم لرجوت فيمن اقبل من المهاجرين والأنصار كفاية ، فانصروا الله ينصركم » ، « قد أظلكم على فى المهاجرين والبدريين والأنصار الذين تبوأوا الدار والايمان فانصروا الله ينصركم » ، و « ان الأمر لو استقبل به أهل الشورى كان على أحق بها ، وكان قتال من أبى ذلك حلالا ، فكيف والحجة على طلحة والزبير وقد بايعاه رغبة وخالفاه حسداً وجاءكم المهاجرون والأنصار » .

وهكذا ازاح على واصحابه الستار ، فوضحت الحقيقة امام أهل الكوفة ، واطمأن الناس الى سلامة موقف على ، وسكنت نفوسهم القلقة ، وهدأت قلوبهم المرتجفة ، واعلنوا انضمامهم اليه . . . وتجمع منهم اثنا عشر الفا .

* * *

اصبحت البصرة مع اصحاب الجمل والكوفة مع على .

والطرفان يعدان العدة ويجهزان الصفوف انتظاراً للحظة اللقاء ويوم الفصل .

ورأى على أن يلقى بآخر سهم قبل أن يتم اللقاء ويقع القتال ، رغبة منه فى السلم وفى توحيد جبهة المسلمين وضم صفوفهم والقضاء على الفتنة ، فأمر رجاله « لا يرمين احد سهما ولا حجرا ولا يطعنن برمح حتى اعذر القوم فاتخذ عليهم الحجة البالغة » ، ثم خاطب طلحة والزبير « استحلفا عائشة بحق الله وبحق رسوله على اربع خصال أن تصدق فيها . . . هل تعلم رجلا من قريش أولى منى بالله ورسوله ، واسلامى قبل كافة الناس اجمعين ، وكفايتى رسول الله كفار العرب بسيفى ورمحى ؟؟ وعلى براءتى من عثمان ؟؟ وعلى أنى لم أكن استكره احداً على بيعة ؟؟ وعلى انى كنت احسن قولا فى عثمان منكما ؟؟ » .

ثم حدث شىء هام فى جبهة طلحة :

فها هو ذا الزبير يقتنع تماما بخطئه فتضطرب نفسه وتفتر رغبته فى قتال على ويلقى سلاحه ، ثم ينسحب من الميدان ، ويعود ادراجه متجها الى المدينة على فرس يقال له ذو الخمار . . . فقد حدث أن خرج على على بغلة رسول الله الشهباء ، ودعا الزبير ، فخرج اليه ومعه سلاحه ، فقال له « هل تعلم انك

مررت بى وأنت مع رسول الله ، وهو متكىء على يدك ، فسلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وضحك الى ، ثم قال لك : يا زبير انك تقاتل عليا وأنت له ظالم ؟ ، فقال الزبير « اللهم نعم » ، فسأله على : فعدم تقاتلنى ؟ ، قال : « نسيتها والله ، لو ذكرتها ماخرجت اليك ولا قاتلتك »، وعاد الزبير الى معسكره وخاطب السيدة عائشة « يا أماه ما شهدت موطنا قط فى الشرك ولا فى الاسلام الا ولى فيه رأى وبصيرة غير هذا الموطن ، فانه لا راى لى فيه ولا بصيرة ، وانى لعلى باطل » ، ثم خاطب ابنه عبد الله « انى راجع الى بيتى ، لا تعد هذا منى جبناً ، فوالله ما فرقت (خفت) أبدا فى جاهليه ولا اسلام ... يردنى ما ان علمته كسرك » .

وانسحب الزبير ولكنه ما أن وصل الى وادى السباع حتى لاقاه عمير ابن جرموز فسأله « يا أبا عبد الله أحييت حرباً ظالما أو مظلوما ثم تنصرف ! ، أتائب أنت أم عاجز لا » ، ثم عاد وسأله « يا أبا عبد الله حدثنى عن خصال خمس أسألك عنها ... خذلك عثمان ، وبيعتك عليا ، واخراجك أم المؤمنين ، وصلاتك خلف ابنك ، ورجوعك من الحرب » ... فأجابه الزبير « أماخذلى عثمان فأمر قدم الله فيه الخطيئة وأخر التوبة ، وأما بيعتى عليا فوالله ما وجدت من ذلك بدآ حيث بايعه المهاجرون والأنصار وخشيت القتل ، وأما اخراجنا أمنا عائشة فأردنا أمراً وأراد الله غيره ، وأما صلاتى خلف ابنى فانما قدمته عائشة أم المؤمنين ولم يكن لى دون صاحبه أمر ، وأما رجوعى عن الحرب فظن بى ماشئت غير الجبن » ... واحتال ابن جرموز على الزبير حتى سلبه سيفه ودرعه ، ثم صحبه الى الوادى ، وطعنه وقطع رأسه ، وعاد بها الى قومه فأغضبتهم فعلته ، وقال له أحدهم « يا ابن جرموز فضحت والله اليمن بأسرها، قتلت الزبير راس المهاجرين وفارس رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ، والله لو قتلته فى حرب لعز ذلك علينا ولمسنا عارك ، فكيف فى جوارك وذمتك »، وقال على عندما رأى سيف الزبير « سيف والله طالما جلى به عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الكرب .. والله ما كان ابن صفية جبانا ولا لئيما ، ولكنه الحين ومصارع السوء » .

ورثته زوجه عاتكة فقالت :

غدر ابن جرموز بفارس بهمة   يوم اللقاء ، وكان غير معرد

يا عمرو لو نبهته لوجدته   لاطائشاً ، رعش الجنان ولا اليد

شلت يمينك ان قتلت لمسلما   وجبت عليك عقوبة المتعمد

وأراد على أن يدخل تجربة ثانية مع طلحة ، عله يتوب ويعود ، فدعاه

وسأله « ما جاء بك ؟ » فأجابه « أطلب دم عثمان » ، فقـــال على « قتل الله من قتله » فقال طلحة « فخل بيننا وبين من قتل عثمان ، واعتزل الأمر فنجعله شورى بين المسلمين ، فان رضوا بك دخلت فيما دخل فيه الناس ، وان رضوا غيرك كنت رجلا من المسلمين » ، فسأله على « ألم تبايعنى طائعا غير مكره ؟ »، فأجابه « بايعتك والسيف على عنقى » ، فعاد على يسأله « انكم أخرجتم أمكم عائشة وتركتم نساءكم فهذا أعظم الحـــدث منكم ... أرضى رســـول الله أن تهتكوا ســــترا ضربه الله عليها وتخرجاها منه » ... فقال « انما جـــاءت للاصلاح » ... وعاد على يحاول معه فقال « أيها الشيخ .. أقبل النصـــح وأرض بالتوبة مع العار ، قبل أن يكون العار والنـــار » ... ورفض طلحـــة النصيحة ... ولم يبق سوى القتال .

* * *

وجاءت لحظة الصدام المسلح :

أصحاب الجمل يجتمعون وفى مقدمتهم طلحة وابنه محمد وعبد الله بن الزبير والسيدة عائشة ... ورجال على من حوله وقد لبس درع رسول الله ، وركب بغلة كانت لرسول الله ، وتعمم بعمامة سوداء ، ودفع بالراية الى ابنه محمد .

وبدأ الصدام قوياً عنيفاً ، واهتزت جبهة على ، وانهزمت بعض قواته ، ونظر حية بن جهين فوجد علياً يخفق نعاساً فأيقظه ، وقال « هزمت ميمنتك ومسيرتك وأنت تخفق نعاسا » ، فانتبه على وقال « اللهم أنت تعلم ما كتبت فى عثمان سواداً فى بياض ، وأن الزبير وطلحة ألبا واجلبا على الناس .. اللهم أولانا بدم عثمان فخذه اليوم » .

وتقدم على وصاح فى القوم أن يتقدموا ، واخذ الراية من ابنه ، وحمل على أعدائه يطعن ويضرب ويقتل ... واقتتل الناس قتالا شـــديدا ، وحاول كثيرون اصابة الجمل الذى كان يحمل عائشة ، فكان عبد الله بن الزبير يدفـــع عنها ويصد الواحد وراء الآخر ، حتى هاجمه الأشتر النخعى ، فتعرض لـــه عبد الله فضربه الأشتر وامسك به وصرعه ، وقعـــد على صـــدره ونادى فى النـــاس :

اقتـــلونى ومالـــكا واقتلـــوا ملكا معى

وأصيب طلحة بسهم قاتل ، وأجمعت الروايات على أنه كان لمروان بن الحكم ، روى ذلك ابن سعد فى طبقاته وابن حجر فى الاصابة والمسعودى فى مروج الذهب ، وروى ابن عبد ربه والذهبى وابن عبد البر أنه كان أول قتيل ، ولكن ذكرت بعض الروايات (ابن قتيبة) أنه قتل فى اليوم السابع من المعركة ...

أصابه سهم مسموم رماه به مروان فشك قدمه الى ركابه ، فلما أصيب قال « سبحان الله لا أرى فى قريش اليوم أضيع منى دماً ولا أدرى من رمانى » ... ثم قال « هذا والله سهم أرسله الله ... اللهم خذ لعثمان منى حتى ترضى » .

ووجد محمد بن طلحة قتيلا دون أن يدرى أحد من قاتله ... رآه على صريعا فقال « رحمك الله يا محمد .. لقد كنت فى العبادة مجتهداً آناء الليل قواما ، وفى الحرور صواما » ، ثم نظر الى الناس وقال « هذا رجل قتله بر أبيه » .

وأصبحت عائشة وحدها فى الميدان ، تقود المعركة ، والناس يتساقطون من حولها ... سقط كعب بن سور واخوة ثلاثة له ... وسقط عبد الرحمن ابن عتاب بعد أن قطعت يده التى أخذ بها خطام الجمل ... وتتابع الرجال يأخذون بالخطام ويقتلون حتى قتل سبعون من قريش ، ثم قتل بنو ناجيه جميعا ، ثم الأزد وبنوضبة ... واستماتت الرجال حول الجمل حفاظا على عائشة ، حتى أن علياً صاح فى رجاله « ويلكم اعقروا الجمل فانه شيطان .. اعقروه والا فنيت العرب ، لا يزال السيف قائما راكعا حتى يهوى هذا البعير الى الأرض » ... وعن أبى مخنف « فلما رأى على أن الموت عند الجمل ، وأنه مادام قائما فالحرب لا تطفا ، وضع سيفه على عاتقه وعطف نحوه ، وأمر أصحابه بذلك ومشى نحوه والخطام مع بنى ضبة ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، واستمر القتل فى بنى ضبة فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وخلص على فى جماعة من النخع وهمدان الى الجمل ، وقال لرجل من النخع اسمه بجير : دونك الجمل يابجير ، فضرب عجز الجمل بسيفه ، فوقع لجنبه ، فما هو الا أن صرع الجمل حتى فرت الرجال كما يطير الجراد فى الريح الشديدة الهبوب ... ونادى على فى القوم « اقطعوا انساع الهودج » ، وأمر بالجمل أن يحرق ثم يذر فى الريح ، وقال « لعنه الله من دابة فما أشبهه بعجل بنى اسرائيل .. » .

وتجمع عدد من قادة أصحاب الجمل لدى على ، وطلب عمار بن ياسر « يا أمير المؤمنين اقتل هؤلاء الأسرى » ، ولكن الناس بايعوا ، فخلى على سبيلهم .

أما السيدة عائشة فكان لها وضع خاص ... وروى صاحب العقد الفريد أن علياً قال لابن عباس : ائت هذه المرأة — وكان قد أنزلها بيتا من بيوت البصرة — فلترجع الى بيتها الذى أمرها الله أن تقر فيه ، فتوجه اليها ابن عباس وقال : ان أمير المؤمنين يأمرك أن ترجعى الى بلدك الذى خرجت منه ،

فبكت وقالت : نعم أرجع فان أبغض البلدان الى بلد أنتم فيه » ... وعلم على أن سهما أصابها دون أن يضرها فزارها وقال « ياحميراء ، رسول الله أمرك أن تقرى فى بيتك ، والله ما أنصفك الذين صانوا عقائلهم وابرزوك » ، ثم أمر فجهزها ، وبعث معها أربعين امرأة ، فلما وصلت المدينة قالت « جزى الله ابن ابى طالب الجنة ... وددت لو انى كنت جلست كما جلس صواحبى ، فكان ذلك احب الى من أن أكون ولدت من رسول الله بضعة عشر » .

صفين

طالب معاوية بن أبى سفيان بدم عثمان ولهذا رفض مبايعة على .

ولم يقتصر على عدم المبايعة بل طالب بالثار .

وكان مقتل عثمان هو الورقة الخطيرة فى يد معاوية ، فاحسن استغلالها الى ابعد الحدود ، حتى انها أوصلته فى نهاية الطريق الى منصب الخلافة ، الذى كان يأمله ويصبو اليه .

ورغم أنه وصل الى هذا المنصب ، الا أن الثمن كان غاليا ، فقد فقد على بن أبى طالب حياته ، وكذلك فقدها ولداه وكثيرون من أهل بيت رسول الله ، بجانب هؤلاء الذين أسروا أو شردوا أو اختفوا مخافة سيوف بنى أمية ، هذا فوق ما تعرضت له الدولة الاسلامية فى العهد الأموى من استبداد الحكام واستباحة الحرمات ، حتى أن الحجاج بن يوسف ، رمى بيت الله بالمجانيق ، فتساقطت جدره ، وحرقت ستائره ، وحتى أن مدينة رسول الله استبيحت حرماتها ، وقتل أهلها تشفيا وانتقاما .

ولنبدأ الأحداث من أولها ...

كانت هناك جبهتان ... جبهة على ... وجبهة معاوية .

وكانت الجبهتان تستعدان للمواجهة .

وبقدر ما ساعدت الظروف جبهة معاوية ، فقد أجهدت جبهة على ... ففى الوقت الذى كان فيه على يقاتل فى موقعة الجمل ويستهلك فيها قوته ، كان معاوية يجمع الجموع ويحشد الحشود ، بل انه كان يسعى سعيا متصلا ليقطع ما بين على وبين رجاله وأصحابه ، ونجح مسعاه ، وكان فى هذا يقول لمروان بن الحكم « يا ابن عم ، انما نشترى لك الرجال » ، يعنى بذلك أنه يشترى الرجال ليقيم بهم دولة بنى أمية .

وما كاد على ينتهى من موقعة الجمل ، حتى كان معاوية قد شدد قبضته على بلاد الشام ، وجمع أهلها حوله وأصبح قوة لا يستهان بها ، حتى أنه هدد عليا تهديدا مباشرا صريحا فى كتاب بعث به اليه قال فيه « ... خيل اليك أن الدنيا قد سخرت لك بخيلها ورجلها ... وانما تعرف أمنيتك لو زرتك فى المهاجرين من أهل الشام ، بقية الاسلام ، فيحيطون بك من ورائك ، ثم يقضى الله علمه فيك ... » .

ان هذه الكلمات دعوة صريحة الى القتال ... دعوة تقوم على ثقة معاوية التامة بنفسه وأصحابه .

فماذا كان موقف على من هذه الدعوة ؟

بعث على الى معاوية قائلا « عندى السيف الذى أعضضته بجدك ، وخالك ، وأخيك ، فى مقام واحد (يقصد عتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وحنظلة بن أبى سفيان) ... ذكرت أنك زائرى فى المهاجرين والأنصار ، وقد انقطعت الهجرة يوم أسر أخوك (يقصد عمرو بن أبى سفيان وكان قد أسر يوم بدر) ، فان كان فيك عجل فاسترفه (أى لا تعجل) فانى ان أزرك فذلك أن يكون الله انما بعثنى للنقمة منك ، وان تزرنى ، فكما قال أخو بنى أسد :

مستقبلين رياح الصيف تضربهم ‏ ‏ ‏ ‏ بحاصب بين أغوار وجلمود

وهكذا كان موقف على موقفا صريحا واضحا ، فقد قبل دعوة معاوية .. ثم انه هدده بأنه سيلقى عند اللقاء أهوالا دونها الأهوال التى يلقاها من يتعرض لريح الصيف العاصفة وما تحمله من سموم وتراب .

اذن أصبح الأمر يتطلب استعدادا جادا من الجانبين ، انتظارا للحظة الصدام المسلح والمواجهة .

وسعى كل فريق الى حشد اكبر الجموع ..

انضم الى على الأحنف بن قيس وقومه بنو سعد من بنى تميم ، فقد جاء الأحنف الى على وقال « ... هذا جمع قد حشره الله عليك بالتقوى » ، ثم عرض أن ينضم وقومه اليه ، فقبل على ، فدعا الأحنف قومه قائلا « ... انى أخبركم أنا قدمنا على تميم الكوفة فأخذوا عينا بفضلهم مرتين ... مسيرهم الينا مع على ، وتهيئتهم للسير الى الشام ، ثم انحشرنا معهم فصرنا كأنا لا نعرف الا بهم فأقبلوا الينا ، ولا تتكلوا علينا ، فان لهم أعداءنا من رؤسائهم

فلا تبطئوا علينا ، فان من تأخير العطاء حرمانا ، ومن تأخير النصر خذلانا .. فحرمان العطاء القلة ، وخذلان النصر الابطاء » .

وانضم الى على عمار بن ياسر ، وقد أيد عمار عليا بكل مشــــاعره وأحاسيسه ... قال عمار « انما بايعناك ، ولا نرى أحدا يقاتلك ، فقاتلك من بايعك ، وأعطاك اللهفيهم ما وعد فى قوله تعالى « ومن بغى عليــه لينصرنه الله » وقوله « يا أيها الناس ، انما بغيكم على أنفســكم » وقوله « فمن نكث فانما ينكث على نفسه » وقد كانت الكوفة لنا ، والبصرة علينا ، فأصبحنا على ما تحب ، بين ماض مأجور ، وراجع معذور ، وان بالشام الداء العضال ... رجلا لا يسلمها أبدا ، الا مقتولا أو مغلوبا ! فعاجله قبل أن يعاجلك ، وانبذ اليه قبل الحرب » .

وانضم الى على رجل من أصحاب الرياسة والرأى فى عشـــيرته هو الأشتر النخعى ، فتدطالب عليا بأن يسرع بالتجهز والتحرك الى الشـــام لتأديب معاوية ورجاله ، وقال « انما لنا أن نقول قبل أن تقول ، فاذا عزمت فلم تقل ... فلو أسرعت بنا الى الشام بهذا الحد والجد ، لم يلقوك بمثله ، فان القلوب اليوم ســليمة والأبصار صحيحة ، فبادر بالقلوب القســوة ، وبالأبصار العمى » .

وسار مع على الى صفين الأشعث بن قيس مع قومه ، بناء على نصحهم له ، حين عرض عليهم أن يلحق بمعاوية ، فقالوا له « الموت خير لك ، أتدع بصرك ، وجماعة قومك ، وتكون ذنبا لأهل الشـــام ؟ » ... الا أن موقف الأشعث كان سلبيا ، فأضر دون أن ينفع ، اذ أنه دعا الى معارضة الحرب ، وكان عبئا على جيش على ، حتى أنه أجبره على قبول التحكيم ... **ولا شك فى أن قبول على انضمام الأشعث وهو بهذه الروح أمر فيه خطأ ، فان الحرب تحتاج الى الرجل القوى الأمين الكميت الذى لا يهـــاب أحداثها ويخوضها بعد اقتناع وايمان** ... وكان واضحا أن الأشعث انضم الى على تحت ضغط قومه دون اقتناع ، لهذا فان خوضه المعركة بجانب علي لم يكن بدافع أو احساس أو رغبة ، وكان لابد من معالجة موقفه قبل المعركة ، حتى يكون لعلي وليس عليــه .

اما فى جبهة معاوية فانه كان يسعى بكل ما أوتى من عقل وفكر ودهـــاء الى ضم الرجال من كل وجه الى صفه ، وكان يأخذهم بكل حيلة ويســـتميلهم بكل سبيل ، واستطاع أن يضم اليه داهية العرب عمرو بن العاص ، بعد أن اتفق معه على أن يعطيه ملك مصر .

ولعب معاوية دورا كبيرا ، فانه بقدر ما سعى الى ضم الرجال اليه ، بقدر ما سعى الى أن يضمن بقاء من لا يرغب فى الانضمام اليه على الحياد ، فلا ينضمون الى طرف من الأطراف ، **وكان معاوية يرى فى موقف الحياد هذا نصرا له وهزيمة لعلى** ... من ذلك مثلا انه سعى الى أهل مكة والمدينة فكتب اليهم « انه لم يغب علينا أن عليا قتل عثمان ، والدليـل على ذلك أن قتلته عنده ، وانما نطلب دمه ، حتى يدفع الينا قتلته فنقتلهم ، فان دفعهم الينا كففنا عنه ، وجعلناها شورى بين المسلمين ، على ما جعلها عمر بن الخطاب ... أما الخلافة فلسنا نطلبها ، فأعينونا يرحمكم الله وانهضوا من ناحيتكم » ... ورفض أهل مكة والمدينة هذه الدعوة ، وأدركوا أنها خدعة من معاوية ، فأبوا الاستجابة اليها ، وكتبوا صراحة يقولون « انك أخطأت عظيما .. وأخطأت مواضع النصرة ، وتناولتها من مكان بعيد ، وما أنت والخلافة يا معـاوية ، وأنت طليق وأبوك من الأحزاب ، فكف عنا ، فليس لك قبلنا ولى ولا نصير » . **ووقف أهل مكة والمدينة موقف الحيـاد فى الصراع القائم ، وكان هذا الموقف مكسبا كبيرا لمعاوية .**

من ذلك مثلا أن معاوية كتب الى ابن عمر ، محـاولا أن يضـمه الى رجاله ، فيعاونه فى قتال على ... قال له « أعنا يرحمك الله ، على حق هـذا الخليفة المظلوم (يقصد عثمان بن عفان) فانى لسـت أريد الامارة عليك ، ولكنى أريدها لك ، فان أبيت كانت شورى فى المسلمين » .. ان معاوية يرمى بالطعم أمام ابن عمر ملوحا له بالخلافة ، بعد أن يتم القضاء على على ، فان كان يأباها فانه يسلك مسلك أبيه عمر بن الخطاب فيجعلها شـورى بين المسلمين .. اسلوب اغراء لم ينخدع به ابن عمر فكتب اليه « لعمرى ما أنا كعلى فى الاسلام والهجرة ، ومكانه من رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ولكن حدث أمر لم يكن الينا فيه من رسول الله صلي الله عليه وسلم عهـد ، ففزعت الي الوقوف وقلت : ان كان هذا فضلا تركته ، وان كان ضلالة فشر منه نجوت ... فاغن عني نفسك » ... وواضح من هذا الرد أن ابن عمر قد اتخذ موقف الحياد ، واطمأن بذلك معاوية ورضي بهذا الموقف من جانبه .

من ذلك مثلا سعى معاوية لدى سعد بن أبى وقاص فقد كتب اليه « ان أحق الناس بنصرة عثمان أهل الشوري ، الذين أثبتوا حقه ، واختاروه علي غيره ، وقد نصره طلحة والزبير وهما شريكاك فى الأمر والشورى ، ونظيراك فى الاسلام » .. ورد عليه سعد قائلا « ان أهل الشورى ليس أحد منهم أحق بها من صاحبه ، غير أن عليا كان من السابقة ، ولم يكن فينا ما فيه فشاركنا فى محاسننا ، ولم نشـاركه فى محاسـنه ، وكان أحقنا كلنا بالخلافة ، ولكن

مقادير الله تعالى التى صرفتها عنه ، حيث شاء ، لعلمه وقدره ، وقد علمنا أنه أحق بها منا ، ولكن لم يكن بد من الكلام فى ذلك والتشاجر ، فدع هذا ، وأما أمرك يا معاوية ، فانه أمر كرهنا أوله وآخره ، وأما طلحة والزبير ، فلو لزما بيوتهما لكان خيرا لهما » .. واتخذ سعد موقف الحياد فى هذا الصراع ورضى بذلك معاوية .

من ذلك مثلا أن معاوية بذل محاولة جادة مع محمد بن مسلمة وقيس بن سعد بن عبادة وهما من سادة الانصار ، ودعاهما ومعهما الأنصار لمعاونته والانضمام اليه ومساندته ... كتب الى كل منهما كتابا يسأله العون والنصرة ، قال لمحمد بن مسلمة « ان قومك الانصار ، قد عصوا الله تعالى ، وخذلوا عثمان ، وسائلهم وسائلك الله تعالى عن الذى كان يوم القيامة » .. فكتب له محمد « لقد أخبرت بالذى هو كائن قبل أن يكون (كان رسول الله قد أعطاه سيفا وقال له « يا محمد بن مسلمة جاهد بهذا السيف فى سبيل الله حتى اذا رأيت من المسلمين فئتين تقتتلان ، فاضرب به الحجر حتى تكسره ثم كف لسانك ويدك حتى تأتيك منيةقاضية أو يد خاطئة » ، فلما كان كسرت سيفى ولزمت بيتى » .. وكتب معاوية الى قيس يعده بسلطان العراق والحجاز فى حالة انتصاره ... قال له « ان استطعت أن تكون ممن يطلب بدم عثمان ، فبايعنا على أمرنا ولك سلطان العراقين ان انا ظفرت ، ما بقيت ، ولمن أحببت من أهل بيتك سلطان الحجاز ما دام لى سلطان ، وسلنى غير هذا ما تحب » ، وكان من الطبيعى أن يرفض قيس هذا العرض ، ولكنه اكتفى بالوقوف على الحياد ، لا ينضم الى أحد الطرفين ، .وقال فى ذلك لمعاوية « أنا كاف عنك ، وليس يأتيك من قبلى شيء تكرهه » .

نقطة هامة يجب أن نبرزها في مجال الحديث عن الحشد والاستعداد ،

فانه من الملاحظ أن عليا قد فقد كثيرا من المؤيدين له ، الذين كانت لهم معه وقفات وتربطهم به صلات قوية ... لقد انضم هؤلاء الي الجانب الآخر ... الي معاوية ، ومرد ذلك أن هؤلاء طمعوا في أموال الدولة ، ورأوا أن قرابتهم لعلي وصلاتهم به تجيز لهم أن يضعوا أيديهم علي ما يشاءون من أموال بيت المال ، الا أن عليا وهو الذي حفظ للاسلام حقه ولم ينحرف فى حياته عن الخط النبوى ، أبى أن يمس مال المسلمين وأن يسىء استغلاله ، حتى ولو كان ذلك على حساب بقائه ، قال فى ذلك « ووالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذى فعلت (موجها الخطاب الى ابن عمه عبد الله بن العباس وكان قد استولى على أموال المسلمين أثناء ولايته على البصرة) ،

ما كانت لهما عندى هوادة ، ولا ظفرا منى بارادة ، حتى آخذ الحق منهما ، وازيل الباطن عن مظلمتهما » ...

خرج على على ابن عمه عبد الله بن العباس وزيره وصاحب سره بعد ان احسن البلاء ، حتى ان عليا بعث اليه يقول « فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب (اشتد) ، والعدو قد حرب (قسا) ، وامانة الناس قد خزيت ، وهذه الأمة قد فنكت وشغرت (فسدت وانكرت) ، قلبت لابن عمك ظهر المجن ، ففارقته مع المفارقين ، وخذلته مع الخاذلين ، وخنته مع الخائنين ... » ....

وخرج على على أيضا عبد الله بن زمعة ، فقد جاءه يطلب بعض المال لبعض حاجته فرفض على « ان هذا المال ليس لى ولا لك وانما هو فئ المسلمين » وخرج على على أخوه عقيل ، فقد جاءه يطلب منه مالا ، قال له « تأخر العطاء عنا ، وغلا السعر ببلادنا ، وركبنا دين عظيم ، فجئت لتصلنى » .. ، فلما لم يستجب اليه على قال « والله لأخرجن الى رجل هو اوصل لى منك » .. وخرج الى معاوية الذى رحب به وسعد بقدومه فقال « مرحبا واهلا بك ، يا ابن ابى طالب » ثم استغله معاوية اسوأ استغلال فى محاربة أخيه والاساءة اليه ، قال « يا أهل الشام ، هذا سيد قريش وابن سيدها ، عرف الذى فيه اخوه من الغواية والضدلة فاثاب الى اهل الدعاء الى الحق » .

يبين من هذا العرض ان الحشد قام على ثلاثة محاور :

- دعوة الناس الى الانضمام الى صفوف المقاتلين .
- محاولة تحييد بعض ذوى الراى فى قومهم .
- شراء بعض النفوس بالمال أو باغراء المناصب .

وبقدر نجاح معاوية فى استغلال هذه المحاور الثلاثة لصالحه ، فان عليا أنكرها تماما ، ولم يعطها حقها .

ولابد لنا من مناقشة موقف على ..

- فهو لم يدع أحدا لمعاونته ، ولم يسع الى ان يضم احدا الى جانبه ، وهذا من وجهة النظر العسكرية أمر خاطىء ، لأن الحرب تعتمد على الرجال ، فهم الذين يحملون السلاح ، وهم الذين يواجهون

العدو ، وهم الذين يحققون النصر .... والحشد العسكرى من اهم لوازم المعركة بل هو من الزم واجبات القيادة ، ولهذا تعمل القيادات جاهدة على جمع الجموع وتجييش الجيوش ... ومن هنا كان الخطأ واضحا فى موقف على ... فانه لم يسع الى جمع الجموع ، وانما اكتفى بمن انضم اليه رغبة وتطوعا ومحبة واحساسا ودون دعوة منه أو محاولة الاقناع بخطورة موقف معاوية وسلامة موقفه هو ... هذا فى الوقت الذى جاهد فيه معاوية لزيادة قواته ومؤيديه .

●● وهو لم يبذل جهدا واضحا لاثارة المشاعر والأحاسيس ضد معاوية ، ولم يبذل جهدا لتفتيت جبهة معاوية ، ولم يفكر فى توجيه رسالات الى رجال معاوية لينفروا منه فلا يعاونوه ولا يساندوه ، ولعلهم يتخذون موقف الحياد ، ولا شك فى ان مثل هذه المحاولات كانت تضعف من موقف معاوية العسكرى وتزيد موقف على قوة ... الا انه لم يقم بأية محاولة فى هذا الاتجاه ، فى الوقت الذى نشط فيه معاوية ، ونجح فى ان يحصل على تأكيدات كثيرة من كثيرين — كان من الممكن ان ينضموا الى على فيزيدونه قوة — باتخاذ موقف الحياد التام بين الطرفين ، وكان ذلك نصرا له واضعافا لشأن على .

●●● وهو قد اهمل جانب الاغراء بالمال أو بالمنصب ... ذلك انه :

أولا ... كان يرى انه يدافع عن قضية عادلة ، وان على من يحس بعدالتها ان ينضم اليه دفاعا عن العدل والحق ، دون تطلع الى مصلحة شخصية او غاية ذاتية ... وهذه الرؤيا نابعة اساسا من داخله الدينى ، فهو قد عاش حياته يدافع عن الاسلام ويخوض المعارك املا فى النصر ورغبة فى استقرار الاسلام ، دون تطلع الى مصلحة تقضى او جائزة تمنح .. لقد علمه رسول الله ان الكفاح فى سبيل الحق واجب ، وان الجهاد فى سبيل الله حق .

ثانيا ... وكان يرى ان المال مال المسلمين ... ملك لهم جميعا ، فليس له ان يستغله لتحقيق مصلحة ، وليس له ان يحارب به طائفة من المسلمين عصته ووقفت فى وجهه ... وهذه الرؤيا نابعة ايضا من داخله الدينى ، فمال المسلمين

للمسلمين ، هكذا رأى رسول الله ... وهكذا رأى أبو بكر الصديق ... وهكذا رأى عمر بن الخطاب ... وهكذا يرى هو أيضا ... ان مال المسلمين وسيلة لاعداد القوة لمحاربة اعداء الاسلام وليس لمحاربة المسلمين أنفسهم .

ولقد استغل معاوية المال الذى فى يديه استغلالا بعيد المدى فاشترى به النفوس والرجال ، حتى أنه منح عقيلا اخا على ثلاثمائة الف وقال له « هذه مائة الف تقضى بها دينك ، ومائة الف تصل بها رحمك ، ومائة الف توسع بها على نفسك » ، وكان المال سببا ومبررا لتجمع القلوب حول معاوية ، يؤلف له العدو ، ويدنى اليه البعيد ، ويبسط له سلطانه ... وكان فى ذات الوقت حربا على على اكثر من أعدائه ، فأفسد عليه أصحابه ، وابعد عنه انصاره .

وثم أمر هام فى هذه الحرب التى كانت بين على ومعاوية ...

فعلى كان يكره هذه الحرب ، وكان مكرها عليها ، وكان يرى فيمن خرج على طاعته انهم مسلمون أصلا ، أصابهم انحراف وجرفهم تيار الفتنة ، فكان يحاربهم بنفس متحرجة ، متخوفا من اراقة دماء المسلمين ، ساعيا الى أن تكون خسائرهم فى الأرواح قليلة ، اقتناعا منه بما قاله له رسول الله يوم احد « يا على ان القوم سيفتنون بعدى بأموالهم ، ويمنون بدينهم على ربهم ، ويتمنون سطوته ، ويستحلون حرامه بالشبهات الكاذبة ، والأهواء الساهية » .

ترى ... هل كان على على صواب من وجهة النظر العسكرية ؟ :

ان الحرب تعنى الحرب ... والحرب ضرب وطعن وقتل ، والحرب تتطلب قسوة مع العدو وشدة ، فاللين ليس من طبيعة الحرب ولا من سماتها ، انظر الى على وهو يبارز عمرو بن العاص يوم صفين فقد كاد أن يقتله ، فلما رأى عمرو سيف على يكاد يهوى عليه اتقاه بسوأته فعف على عنه وبعد دون أن يرديه ... هذا موقف لا ترتضيه طبيعة الحرب ولا تقرها حالتها ، فهى تتطلب كما أشرنا قسوة وشدة وعنفا ، ولو أن عليا قتل عمرا عندما حانت الفرصة ، لانتهى كل شىء ولتغير الموقف لصالحه ... وما فعله على مع عمرو فعله أيضا مع بسر بن أرطاة ، اذ لاحت له فرصة قتله ، فكشف هو الآخر عن سوأته ، فتركه علي ونجا بسر .

وقد صور ذلك الحارث بن النضر فقـال :

افى كل يوم فارس تنـدبونه   له عورة وسط العجاجة باديه
يكف لها عنـه على سـنانه   ويضحك منها فى الخلاء معاويه
بدت امس من عمرو فقنع راسه   وعورة بسر مثلها حذو حاذيه

وكان على يرى أن حربه ضد معاوية لم ترق الى مستوى المعارك ، بقدر كونها عملية تاديب لبعض من العصاة والخارجين على السلطان والدولة ... ولهذا وضع قواعد للقتال ، نشرها بين رجاله ، وطلب تنفيـذها ، منهـا أنه لا يجهز على جريح ولا يقتل مدبر ولا يؤسر مستسلم ، ولا يستحوذ على نساء ، ولا يستولى على عبيد أو اماء ، يقول على لأحد رجاله « .. لا تقاتل الا من قاتلك ، ولا تجهز على جريح ، ولا تسخرن دابة ، ولا تستاثر على أهل المياه بمياههم ، ولا تشربن الا فضلهم (اى ما يزيد عن حاجتهم) عن طيب نفوسهم ، ولا تشتمن مسلماً او مسلمة ، واسفك الدم فى الحق ، واحقنه فى الحق » ، .. ويقول ايضاً فى رسالة الى احد قادته « لا تقوين سلطانك بسفك دم حرام ، فان ذلك مما يضعفه ويوهنه ، بل يزيله وينقله » ، .. ويخاطب جنده قبل القتال فيقول « لا تقاتلوهم حتى يبدءوكم ، فانكم بحمد الله على حجة ، وترككم اياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم عليهم ، فاذا كانت الهزيمة باذن الله ، فلا تقتلوا مدبرا ، ولا تصيبوا معورا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تهيجوا النساء بأذى ، وان شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم » .

واضح تماماً من هذا كله أن عليا كان متاثراً تاثراً بالغاً بروح الاسـلام وسماحته ، وبما أوصى به من معاملة الأعداء ، واذا كان الاسلام سمحا مـع أعدائه يعاملهم بالحسنى ، فكيف ينسى على أو يتناسى سماحة الاسلام وعطفه وهو يحارب اخوانا له فى الدين يؤمنون بالله وبرسوله ...

هذه هى وجهة نظر على فى الحرب القائمة بينه وبين بنى امية ...

اما وجهة نظر معاوية فقد كانت مخالفة تماما لوجهة نظر على ، ذلك انه كان يريدها حرباً كؤودا بكل ويلاتها ووحشيتها ، فى ابشع صورها واشـنع وجوهها ... وهو من خلال وجهة نظره كان يحرض رجاله ويحرض قواده « اقتل من رايته ، من ليس وهو على رايك ، واضرب كل ما مررت به من القرى ، واحرز الأموال ، فان حرز الأموال شبيه بالقتل ، وهو أوجع للقلب » ...

هذه هى تعليمات معاوية فى معاملة اعدائه ...

ولقد أزعجت تصرفات رجال معاوية عليا ، فخطب فى اصحابه خطبـة

قال فيها « هذا أخو غامد ، قد وردت خيله الأنبار ، وقد قتل حسان بن حسان البكرى ، وأزال خيلكم من مسالحها ، وقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينتزع حجلها وقلائدها ورعاثها ، عجبا والله يميت القلب ، ويجلب الهم ، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم » ...

لقد نفذت تعليمات معاوية بكل دقة وقد خلت قلوب منفذيها من الرحمة والتعاطف والحب .. ومن أمثلة ذلك ان معاوية بعث بسر بين ارطاة فى جيش الى المدينة ، فلما انتهى اليها قتل بها اصحاب على وأهل هواه ، وهدم دورها، وقيل انه كان يقتل الأطفال ، حتى أن امرأة صرخت فى وجهه « ياهذا ، قتلت الرجال ، فعلام تقتل هذين ؟ (تقصد طفلين صغيرين) ، والله يا ابن ارطاة ان سلطاناً لا يقوم الا بقتل الصبى الصغير والشيخ الكبير ، ونزع الرحمة ، وعقوق الأرحام ، لسلطان سوء » .

لقد أباح معاوية الدماء والأموال والحرمات ، حتى تناسى هو ورجاله انهم مسلمون ، وتناسوا ايضاً ان أعداءهم الذين يحاربونهم مسلمون يؤمنون بالله وبرسوله وبكتابه ، وتناسوا ايضاً قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل المسلم على المسلم حرام .. دمه وعرضه وماله » ، لقد تناسوا الفارق الكبير بين محاربة المسلم للمسلم ومحاربة المسلم لغير المسلم من الكافرين الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ... لقد تساوى الاثنان من وجهة نظر معاوية .

منهجان فى الحرب مختلفان متباينان متباعدان ...

- منهج يرى أن محاربة المسلم للمسلم يجب أن تكون حرباً محدودة وفى حدود القواعد المشروعة دون اسراف فى القتل والسفك والاساءة ، ذلك أن الاثنين يرتبطان بدين الله وبالأخوة الاسلامية وبالنسب وبكفاح سابق فى عهد رسول الله وعهد خلفائه اشتركا فيه بكل قواهما ومشاعرهما .

- ومنهج يرى أن الحرب لا تختلف فى طبيعتها باختلاف وجوه المتحاربين ، ويجب أن تأخذ حقها وصورتها فى أبعد حدودها ، دون رحمة أو شفقه ، دون مبادىء أو أصول ، دون نظر الى اخوة اسلامية او مروءة أو نسب او أية صلة تربط بين الطرفين ... وليهن كل شىء فى سبيل النصر ...

وأدى منهج معاوية الى نصره ، بينما أدى منهج على الى هزيمته ، فان أصحابه قد ضاقوا بهذا المنهج كثيراً ، وافتقدوا الحماس وتثاقلوا فى الحرب .. كانوا يريدون انطلاقاً بأحداثها الى نصر مؤكد ، فيضعون سيوفهم حيث أرادوا ، لا يبقون على أحد ، ولا يرحمون أحدا ، فلما منعهم على ، وهنت عندهم الرغبة فى القتال ... وكان لذلك أثره فى سير المعارك .

سارت الأمور الى غايتها

وتهيأ الفريقان الحرب

وتحركت الجيوش الى صفين

ولم يبق الا السيف يقول كلمة الفصل فيما اختلف فيه الطرفان .

كان جيش معاوية ثلاثة وثمانين الف مقاتل ... فى مقدمتهم أبو الأعور السلمى ، وعلى الساقة بسر بن أرطاة ، وعلى الخيل عبيد الله بن عمر ، وعلى الميمنة يزيد العبسى ، وعلى الميسرة عبد الله بن عمرو بن العاص ، وحمل اللواء عبد الرحمن بن خالد بن الوليد .

وكان جيش على مائة وتسعين الفاً ... الأشتر النخعى فى المقدمة ، وشريح بن هانىء على الساقة ، ومحمد بن ابى بكر على المهاجرين والانصار ، وعبد الله بن عباس على أهل البصرة ، وعبد الله بن جعفر على أهل الكوفة ، وعمار بن ياسر على الخيل ، والحسن بن على على القلب .

وكان جيش معاوية يضم دهاة العرب عمرو بن العاص وزياد بن أبيه ، والمغيرة بن شعبة .

ويتلاحظ أن الكثرة العددية كانت لعلى ، الا أن الحكمة فى المعركة ليست بالكم ولكنها بالكيف ، فان روح القتال كانت أكثر وفرة لدى جيش معاوية ، وروح القتال هى الدافع الى الحركة فى أرض المعركة ، وهى التى تجلب النصر ، فاذا فاق فريق الآخر بروحه القتالية فانه يسحقه ويرديه ، ومهما ارتفع حجم الأفراد ، فالروح القتالية هى التى تحدد دائما نتيجة المعركة .

كانت معنويات جيش معاوية مرتفعة ... كان الجيش كله يأتمر بأمره ، يسمعون له ويطيعون ، تظلهم راية واحدة ...

أما جيش على فكان كل يحمل راية ، وكان القوم مترددين غير مقتنعين بماهم مقبلون عليه ، وكان واضحاً أن علياً لم يكن له سلطان عليهم ، حتى

انه قال « اما والذى نفسى بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ، ليس لأنهم أولى بالحق منكم ، ولكن لاسراعهم الى باطل صاحبهم وابطائكم عن حقى » .. وقال عن أصحابه ورفقائه « لقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت اخاف ظلم رعيتى » .. ، وقال « صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه ، وصاحب اهل الشام يعصى الله وهم يطيعونه » .

خاطب معاوية رجاله قبل ان ينشب القتال فقال « يا أهل الشام ... لقد سرتم ، لتمنعوا الشام وتأخذوا العراق ، ولعمرى ما للشام رجال العراق واموالها ، ولا لأهل العراق نصر اهل الشام ولا صبرهم ، مع أن القوم ، بعدهم غيرهم ، وليس بعدكم غيركم ، فان غلبتموهم فلم تغلبوا الا من اتاكم ، وان غلبوكم عاقبوا من بعدكم ... » .

وخاطب على رجاله فقال « .. قد زعم معاوية ان اهل الشام اهل صبر ونصر ، ولعمرى لأنتم أولى بذلك منهم ، لأنكم المهاجرون والأنصار ، والتابعون باحسان ، وانما الصبر اليوم والنصر غدا » .

سبق جيش معاوية الى صفين ، فاتخذ موقعاً يمنع منه جيش على عن ورود ماء الفرات ... والجيوش — على حد القول المعروف عن نابليون — تمشى على بطونها ، والماء من أهم ما يحتاجه رجل الحرب ، لهذا كان معاوية بعيد النظر حين أسرع الى النهر ورأى أن يمنع الماء عن قوات على .. ولكن عليا أيضا كرجل محارب خاض المعارك وعرف أسرارها ، كان يعرف اهمية الماء ...لهذا قال للأشعث « اذهب الى معاوية ، فقل له ان الذى جئنا له غير الماء ، ولو سبقناك اليه لم نحل بينك وبينه ، فان شئت خليت من الماء ، وان شئت تناجزنا عليه ، وتركنا ما جئنا له » ، وقال الأشعث لمعاوية « انك تمنعنا الماء ، وأيم الله لنشربنه ، فمرهم يكفوا عنا قبل أن نغلب عليه » ورفض معاوية بناء على نصيحة أصحابه أن يسمح لهم بورود النهر ، وغضب الأشعث فقال مخاطبا عليا « يا أمير المؤمنين ، أيمنعنا وأنت فينا والسيوف فى أيدينا ؟ خل عنا وعن القوم ، والله لا ارجع اليك حتى أرده أو أموت دونه » ، ثم اقتحم الأشعث وجماعته مورد الماء ، وأزاحوا جند معاوية عنه ، ثم ملكوه ، ولكنهم بالروح العربى الاسلامى الأصيل لم يحولوا بين جند معاوية وبين وروده .

بقى الجيشان فى مواقعهما اربعين ليلة قبل أن يتم الاشتباك أو يقع التلاحم .

وفى خلال هذه المدة رمى معاوية بسهم أراد به أن يكسر حدة جيش على ، وأن يحطم روح القتال عند رجاله ، واختار عبد الله بن العباس ... اختاره له عمرو بن العاص مستشاره وصاحب الرأى عنده ... وكتب عمرو الى ابن عباس « ان الذى نحن وأنتم فيه ليس أول أمر قاده البلاء ، وساقته العافية ، وانك رأس الجمع بعد على ، فانظر فيما بقى بعد ما مضى ... فوالله ما أبقت الحرب لنا ولا لكم حياة ولا صبرا ، واعلم أن الشام لاتهلك الا بهلاك العراق ، وأن العراق لاتهلك الا بهلاك الشام ، فما خيرنا بعد أعداؤنا منكم ؟ وما خيركم بعد أعداؤكم منا ؟ ولسنا نقول : ليت الحرب عادت ، ولكنا نقول : ليتها لم تكن ! وان فينا لمن يكره البقاء كما فيكم » .

وكان رد ابن عباس قاسياً فقد أزاح الستار عن الدور الذى يلعبه عمرو ... قال له « انى لا أعلم رجلا أقل حياء منك فى العرب ... انك مال بك الهوى الى معاوية ، وبعت دينك بالثمن الأوكس ، ثم خبطت الناس فى عشواء ، طمعا فى هذا الملك » ، وقال له أيضا « ان كنت تريد الله ، فدع مصر ، وارجع الى بيتك ، فان هذه حرب ليس فيها معاوية كعلى ... بداها على بالحق وانتهى فيها الى المعذرة ، وبداها معاوية بالبغى ، وانتهى فيها الى السرف ... وليس أهل الشام فيها كأهل العراق ، بايع أهل العراق عليا ، وهو خير منهم ، وبايع أهل الشام معاوية وهم خير منه ، ولست انا فيها عليا ، وهو خير منهم ، وبايع أهل الشام معاوية وهم خير منه ، ولست انا وأنت فيها سواء ... أردت الله ، وأنت أردت مصر ، وقد عرفت الشىء الذى باعدك

وكان ابن عباس صادقا فى رده ، مخلصا فى كلماته ، مؤمنا بصحة موقف على ، وسوء موقف معاوية ، فلم تؤثر فيه محاولة ابعاده عن على ، وتأكد من رده صموده واصراره ... ولكن هل رضى معاوية بهذه النتيجة ؟ ، وهل استسلم لهذا الفشل الذى صاحب هذه الخطوة ؟ ، أبدا ... لقد كان مقتنعاً بفكرة ضرب جبهة على من داخلها وتفتيت وحدتها واثارة البلبلة فى نفوس رجاله ... واذا كانت وسيلة عمرو قد فشلت ، واذا كان كلامه الى ابن عباس غير مقنع ، فليحاول هو الجولة أملا فى كسب ابن عباس فتختل جبهة على ... كتب معاوية الى ابن عباس ملوحاً له بالخلافة ، ومؤكداً له أنه سيبايعه ومعه كل الناس ... « انكم معشر بنى هاشم لستم أسرع منكم فى شىء أسرع بالمساءة الى أنصار عثمان ، فان يك ذلك لسلطان بنى أمية ، فقد ورثتها عدى وتيم (يقصد أن الخلافة كانت لعمر ولأبى بكر) ... ولستم ملاقينا اليوم بأحد من حدكم أمس ، ... اتقوا الله فى قريش ، فما بقى من رجالها الا ستة (قصد بهم سعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن عمر ، ومعاوية ،

وعمرو ، وعلى ، وابن عباس) ... وانت راس هذا الجمع غدا ، ولو بايع الناس لك بعد عثمان كنا أسرع اليك منا الى على » ...

وفهم ابن عباس أن معاوية يغريه بعلى وبالولاية ، فلم يستجب لدعوته، بل رد عليه رداً قاسياً ... قال له « لقد أدركت فى عثمان حاجتك ، لقد استنصرك فلم تنصره حتى صرت الى ما صرت اليه ... وأما قولك انه لم يبق من رجال قريش غير ستة فما أكثر رجالها وأحسن بقيتها ... أما اغراؤك اياى بعدى وتيم ، فأبو بكر وعمر كانا خيراً منك ومن عثمان ... كما أن علياً خير منك ... أما قولك انا لن نلقاك الا بما لقيناك به ، فقد بقى لك منا يوم ينسيك ما قبله ، وتخاف له ما بعده ... أما قولك أنه لو بايعنى الناس استقمت ، فقد بايعوا عليا وهو خير منى فلم تستقم له .. » وختم ابن عباس كتابه فقال « انك طليق الاسلام ، وابن رأس الأحزاب ، وابن آكلة الأكباد من قتلى أحد » .

محاولة من جانب معاوية فشلت ، ولكنها تؤكد أنه كان يسعى بكل الوسائل الى اضعاف جبهة على وكسب حلفاء جدد له .

بدأ القتال عنيفاً ، وكان واضحاً رجحان كفة على ...

وأدرك معاوية أن الهزيمة سائرة اليه ، فاستدعى مستشاره العسكري صاحب الحيلة رجل الدهاء عمرو بن العاص ، الذى كان اتصاله به وانضمامه اليه مكسباً كبيراً دون شك ... فكر عمرو — وهو الذى كان يقول عن نفسه — « ما وقعت فى أمر قط الا خرجت منه » وانتهى تفكيره الى أمر قال عنه لمعاوية « والله لأدعونهم الى أمر أفرق به جمعهم ويزداد به جمعك اليك اجتماعا ... ان أعطوكه اختلفوا ، وان منعوكه اختلفوا » ... ثم قال لمعاوية « تأمر بالمصاحف فترفع ، ثم تدعوهم الى ما فيها ... فوالله لئن قبله لتفترقن عنه جماعته ، ولئن رده ليكفرن به أصحابه » .

واستدعى معاوية رجلا يقال له ابن هند ، فرفع المصحف بين الفريقين ثم صاح « الله الله فى دمائنا ودمائكم ... بيننا وبينكم كتاب الله » .

ثم بعث معاوية ببعض رجاله الى أصحاب على من ذوى الرأى والمكانة ، **يعرض عليهم الصلح أملا فى كسب ودهم وتعاطفهم معه** ... ارسل معاوية مثلا أخاه عقبة بن أبى سفيان الى الأشعث بن قيس ، ودار بينهما حديث طويل انتهى باقتناع الأشعث برأى معاوية .

وكانت خديعة المصاحف والدعوة الى قبولها كضربة سيف هدت صفوف على ... أثارت الخلاف بين رجاله ... وتعددت الآراء وتفرق الناس ... حتى أن جماعة من رجاله خرجوا عليه وتحولوا عنه وأصبحوا له أعداء يحاربونه ومن معه ... هذه هى جماعة الخوارج التى كان مقتل على بيد واحد من رجالها هو عبد الرحمن بن ملجم .

قال بعض الناس ... لا تسمعوا القوم ... لا تعطوهم الا السيف .

وقال البعض الآخر ... أجيبوهم الى ما دعوكم اليه ولا تردوا حكم الله .

وقال البعض الآخر ... لا نقول الا ما يقول الامام ... خذوا رأيه واسمعوا قوله .

وزاد الحماس لكل رأى ، وتمسكت كل جماعة برأيها واخذت تدعو الآخرين اليه ، حتى تكهرب الجو ، وأصبح قوم على على وشك قتال بعضهم بعضا...ورأى على ما أصبح عليه رجاله من الفرقة والاختلاف ،فحاول أن يجمع أمرهم ويوحد جبهتهم فوقف يخاطبهم وقال « أصبحت والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العدو بكم » .... ثم قال — والحزن يملأ نفسه ويملك وجدانه ويسيطر على أحاسيسه — « انه لم ازل من أمرى على ما أحب ، حتى قدحتكم الحرب ، وقد والله أخذت منكم وتركت ، وهى لعدوكم انهك ، وقد كنت بالأمس اميراً ، فأصبحت اليوم مأموراً ، وكنت ناهياً فاصبحت اليوم منهيا ، فليس لى أن أحملكم على ما تكرهون » .

وواضح تماماً من أقواله أن الأمر قد أفلت من يده ، وأنه أصبح لا يملك سلطاناً أو سيطرة على جنده ، **وهذه نقطة ضعف فى قيادته ، لأن من اللزم واجبات القائد القدرة على توجيه الناس وتحريكهم والسيطرة عليهم ، فاذا ما فشلت القيادة فى ذلك تكون قد فقدت صلاحيتها ، وفشلت تماماً فى ادارة المعركة ، كما أن من مقومات الجيش الناجح أن يكون رجاله جميعاً متفقين فى الهدف مقتنعين بالخطة ملتزمين بأوامر القيادة .**

ولقد اختفت هذه السمات الضرورية ، ولم يكن لها وجود فى جيش على ، بدليل أن الخلاف اشتد بين الناس ، وتفرقت كلمتهم وتعددت آراؤهم ...

وكان من الضرورى أن يكون الرأى الأخير فى أمر قبول التحكيم أو رفضه للقيادة التى تبحث الأمر وتدرسه وتنتهى فيه الى رأى .... فاذا انتهى رأى القيادة الى قبول التحكيم فليكن رأيها هو رأى الجيش بأكمله ... واذا كان

قرارها رفض الفكرة وممارسة القتال فليكن قرارها نافذاً ... **ذلك أن أمور الحرب والمعركة لا تحتمل رأيين ، كما أن الجيش لا يفلح اذا خضع فى وقت واحد لقيادتين ...**

المهم ...

ماذا كان رأى على فى مسألة التحكيم ؟

لقد رفض على الفكرة أساساً ، وقرر أن يستمر فى حرب أعدائه ، وقال فى ذلك « أيها الناس ، انه قد بلغ بكم وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منهم الا آخر نفس ، وأن الأمور اذا اقبلت اعتبر آخرها بأولها ، وقد صبر لهم القوم على غير دين حتى بلغوا منكم ما بلغوا ... وأنا غاد عليهم بنفس الغـداة ، فأحاكمهم بسيفى هذا الى الله » .

القائد اذن مقتنع بالهدف مصمم عليه راغب فى الاستمرار على الطريق الى تحقيقه ... وهناك كثيرون من رجاله يؤيدونه ويوافقونه ... منهم عـدى ابن حاتم الذى قال له « ان دعوة أهل الباطل لا تعوق أهل الحق ... ناجز القوم » ، ومنهم الأشتر النخعى الذى قال له « افلج الحديد بالحديد ، واستعن بالله » ، ومنهم الأحنف بن قيس الذى قال « لم نقاتل القوم لنا ولا لك ، انما نقاتلهم لله ... ولا أرى الا القتـال » ، ومنهم عمير بن عطـارد الذى قال « قاتل القوم ... انا معك » .

ومع كل هذه الأصوات المؤيدة لم يستطع على أن يقاتل القوم ، فقد كان تيار قبول التحكيم جارفاً وقوياً واضطر الى الرضوخ لرأى الأغلبية التى رفضت القتال ورأت أن تقبل التحكيم ، وأعلن انه يقبل التحكيم ، وهو مكره مرغم ، فقد قال لعمار بن ياسر أحد رجاله المخلصين والذى كان يدعوه الى المقـاتلة ويقول « ليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى يفيئوا الى أمر الله ان كان القوم مشركين ، وليس لنا أن نرفع السيف عنهم حتى لا تكون فتنة ان كانوا أهـل فتنة حتى يكون الدين كله لله » ... قال له على « والله انى لهذا الأمر كاره » .

وغضب عمار بن ياسر ، وخرج ثائراً الى الناس ، داعياً اياهم الى الحرب قائلا « أيها الناس ... هل من رائح الى الجنة ؟ » ، فاستجاب له خمسمائة رجل ، واستسقى عمار الماء فجاءه غلام بآنية فيها لبن ، فكبر وقال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لى : آخر زادك من الدنيا لبن » ، ثم خرج ومعه أصحابه شاهراً سيفه وهو يرتجز :

اليوم ألقى الأحبه　　　محمداً وصـحبه

وحمل عمار على القوم فقتله رجلان ، حملا رأسه الى معاوية ، كل يحاول أن ينسب الى نفسه فضل قتله ، فرآهما عمرو ، فقال لهما « والله أن تتنازعان الا فى النار ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : تقتل عماراً الفئة الباغية » ، فاجابه معاوية « قبحك من شيخ ، فما تزال تنزلق فى قولك ، أو نحن قتلناه ، انما قتله الذين جاءوا به » .

وأثار مقتله حماس الناس ومشاعرهم ، فهاجوا وثاروا ، وطلب الأشتر — وكان قد أصابه جرح — من على أن يتقدم الناس قائلا « عد الى مكانك الذى كنت فيه ، فان الناس انما يطلبونك حيث تركوك » ، ودعاه عدى « يا امير المؤمنين ، قاتل حتى يفتح الله تعالى لك ، فان فينا بقية » ...

واستجاب لهم على ، ودعا بدرع وبغلة رسول الله ، وتعصب بعمامة الرسول ، ثم خاطب الناس « من يبع نفسه اليوم يربح غدا ، يوم له ما بعده »، واستجاب لدعوته عشرة آلاف أو يزيد ، هاجم بهم صفوف أهل الشام ، ووصل الى مكان معاوية ، فآثر هذا الهرب ، وركب فرسه ليهرب ، الا أن عمرو بن العاص رآه فمنعه قائلا « اليوم صبر وغدا فخر » .

وحدث تلاحم بين الطرفين ، واستمر القتال ثلاثة أيام ... قتال شديد عنيف قاس ، جرت فيه الدماء ، وكثر فيه القتل ، وعم البلاء ، وفى ذلك يقول ابن قتيبة « بات الناس يتحارسون ، وكرهوا القتال ، وهو اليوم الذى فيه البلاء العظيم ، يوم قتل عمار ، وكان يظن أن الدائرة عليه ، وأسرف الفريقان فى القتل ، ولم يكن فى الاسلام بلاء ولا قتل أعظم منه فى تلك الثلاثة الأيام » .

ثم ارتضى الفريقان بعد هذه الأيام الثلاثة التحكيم الذى كان بطلاه عمرو ابن العاص وأبو موسى الأشعرى ...

وانتهى التحكيم بخلع على وتثبيت معاوية ...

قال أبو موسى الأشعرى « ان هذه الفتنة قد أكلت العرب ، وانى رأيت وعمرا أن نخلع علياً ومعاوية ، ونجعلها لعبد الله بن عمر ، فانه لم يبسط فى هذه الحرب يداً ولا لسانا » ... وقال عمرو « هذا أبو موسى شيخ المسلمين وحكم العراق ومن لا يبيع الدين بالدنيا قد خلع عليا ... وأثبت معاوية » .

ورفض على هذا القرار الذى قيل فيه أن « الأشعرى سار يهدى الى ضلال ، وسار عمرو بضلال الى هدى » .

ورفضه معه كثيرون :

وقرر على أن يحمل سلاحه ويحارب مرة أخرى ، ودعا بالناس « تهيأوا للجهاد وتأهبوا للمسير ... والله لأغزونهم ولو لم يبق أحد غيرى لمجاهدتهم ».

ومرة أخرى يلتقى الجمعان فى صفين ، ويتهيآن لمعركة فاصلة تنهى الموقف لصالح أحد الطرفين ، الا أن مفاجأة وقعت فى صفوف على ... فقد خرجت عليه جماعة من رجاله هم الخوارج ، وطالبوه بأن يعلن كفره ، وأن يشهد على نفسه به ، ثم يتوب الى الله ، حتى يظلوا معه ... فقال لهم « أصابكم حاصب ، ولا بقى منكم آبر ... أبعد ايمانى بالله وجهادى مع رسول الله ، اشهد على نفسى بالكفر ؟ لقد ضللت اذن وما أنا من المهتدين » .

وكان لابد من قتالهم قبل مواجهة معاوية ...

وهكذا فتحت جبهة ثانية **أمام** على .

وكان عليه أن يدخل معركتين متتاليتين واحدة بعد الأخرى مع ما يلاقيه ورجاله من جهد ومشقة .

وكانت معركة حامية ضد الخوارج بالنهروان ... وهؤلاء كانوا اشد رجال على فى القتال وأكثرهم استماتة فيه ... بدءوا بالهجوم وشدوا على رجال على شدة رجل واحد ، فأمر الرماة باستقبالهم بالنبل ، ثم كرت عليهم الخيل من الأجناب ، وهاجم على من القلب بالسيوف والرماح ، وقتل منهم الكثير ، وصرعهم الله ، فأمر على بجمع سلاحهم ودوابهم فوزعها على أصحابه .

وحان وقت مواجهة معاوية فى صفين ...

فخاطب على رجاله « ان الله قد أحسن بلاءكم ، وأعز نصركم ، فتوجهوا من فوركم هذا الى معاوية وأشياعه القاسطين (الظالمين) الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، واشتروا به ثمنا قليلا ، فبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » .

وتنبه على الى أمر له خطورته فى اللقاء القادم ، فرجاله خرجوا توا من معركة مع عدو شرس ، فكيف يقادون الى معركة أخرى لا تقل عنها شراسة ، دون أن يعدوا أنفسهم وسلاحهم ودون أن يتجهزوا ... لهذا رأى أن يسير بهم أولا الى موقع يسمى النخيلة فيعسكرون به ، يستعيدون نشاطهم ويتجهزون ، ويصلحون نبلهم وسيوفهم ورماحهم .

وفى هذا الموقع حدثت مفاجأة جديدة ، وما أكثر المفاجآت فى حياة على ابن أبى طالب !!

لاحظ على أن رجاله بدءوا يهربون من المعسكر تباعا ، ويتجهون الى الكوفة حيث أسرهم وعيالهم !!!

مفاجأة شديدة الوقع فى وقت لا يحتمل المفاجآت ...

مفاجأة ، وأية مفاجأة ...

الرجال حملة السلاح وقود المعركة عدة القتال ... يديرون للمعركة ظهورهم ... لقد كان واضحاً أنهم سئموا الحرب ، ولم يعد أحد منهم راغبا فيها ، وانما أصبح الكل عازفين عنها غير راغبين فيها .

ودعاهم على الى الاجتماع والمناقشة وبحث الموقف رغبة فى الوصول الى قرار حاسم ... ونادى فى الناس « استعدوا للمسير الى عدو فى جهاده القربة الى الله ودرك الوسيلة عنده ، فأعدوا له ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، وتوكلوا على الله ، وكفى به وكيلا » .

ولم يستجب له الناس .

فعاد يخاطبهم ويحثهم ويثير حماسهم أملا فى الاستجابة اليه ، قال « مالكم اذا أمرتكم أن تنفروا فى سبيل الله اثاقلتم الى الأرض ؟ ... أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلا ؟ ورضيتم بالذل والهوان من العز خلفا ؟ كلما ناديتكم الى الجهاد دارت أعينكم كأنكم من الموت فى سكرة ... استنفرتكم فلم تنفروا ، ونصحت لكم فلم تقبلوا ، وأسمعتكم فلم تعوا ... أتلو عليكم الحكمة، وأعظكم بالموعظة النافعة ، وأحثكم على جهاد المحلين (الذين أحلوا ما حرم الله) الظلمة الباغين ، فما آتى على آخر قولى حتى آراكم متفرقين » ...

ولم يستجب الناس وكأنهم لا يسمعون .

ونشلت كافة مساعيه .

واحس بقرب النهاية .

ورأى أن محاربة معاوية قد أصبحت وهماً وخيالا .

وهو لم يعد يملك الا نفسه .

وكانت أمنيته أن ينال الشهادة تحت ظلال السيوف ، مجاهداً فى سبيل الحق الذى آمن به ، وكافح من أجله ، وعاش حياته له .

ونال على الشهادة ، اذ قتله واحد من الخوارج هو عبد الرحمن ابن ملجم ، قتله فى ليلة الجمعة ... ليلة الحادى والعشرين من شهر رمضان سنة أربعين للهجرة .

وانتهت حياة كانت صورة من الايمان العظيم والكفاح الكريم .

انتهت حياة سيد الشجعان كرم الله وجهه ورضى عنه ...

الشخصيّة الثانية

سعد بن أبي وقاص

« اسد الله فى براثنه »

(عمر)

رجل من اهل الجنـــــة

وكان جنديا من الطراز الأول ..

شجاعا مقداما يؤمن بالطاعة يؤدى واجبه أحسن ما يكون الأداء .

قائدا ممتازا يرقى الى مستوى القـــادة العظام .

قادرا على دراســة الموقف العسكرى والاســتجابة لاحتياجات المعركة ووضـــع خطط الحرب .

انسانا يفوق غيره من الناس خلقا واحساسا وضميرا .

صاحب عقلية ممتازة متزنة وذكاء خارق ، يتحلى بشجاعة نادرة وارادة قوية ، ونفسية كريمة لا تتغير أو تتبدل فى حالتى النصر والهزيمة .

كانت جميع الدلائل تشير منذ صغره الى ملامح شخصيته كرجـــل حرب وبطل ميدان ، فقد اشتغل وهو صغير فى برى السهام وصناعة القسى وهى عدة الحرب فى زمانه .

وكان يهوى الصيد والقنص وهى مهمة تشبه الى حد كبير أعمـــال المعركة ومتطلباتها .. خبرة وذكاء ومهارة وأعصاب قوية وتفكير مركز وتخطيط سليم .

أسلم وهو صغير ، فقد دخل الايمان قلبه مبكرا ، فتهيأ منذ صغره ليكون جنديا من جنود الاسلام ، وليتولى فى غده قيـــادة أكبر جيش اسلامى لتتحقق على يديه أعظم الانتصارات التى شهدتها ميـــادين الحرب .. فقد شهد وهو على رأس الجيش الاسلامى هزيمة الفرس وزوال دولتهم وانقضاء عهدهم .

أسلم وهو صغير .. وكان نسبه يجتمع بنسب رسول الله فى كلاب ..

كان أخا لآمنة بنت وهب أم سيد الخلق وخاتم الرسل ، ومن هنـــا كان سعد خال رسول الله ، الذى كان يفخر به ويردد على أصحابه كلما قدم عليهم ســـعد « هذا خالى .. فليرنى امرؤ خاله » .

أسلم وهو صغير .. عن عائشة بنت ســـعد قالت « سمعت أبى يقول أسلمت وأنا ابن سبع عشرة سنة » ، وقال ســـــعد « لقد أتى على يوم وأنا

لثلث الاســــلام » ، وقيل انه كان صديقا مقربا الى أبى بكر ، وكانت الثقة والمحبة والاحترام متبادلة بينهما ، فلما نزل الوحى على رسول الله أســلم أبو بكر وأظهر اسلامه ، ودعا الى الله والرسول ، فأســلم بدعائه عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وجاء بهم الى رسول الله حين استجابوا ، فأســلموا وصلوا .

وقال سعد فى اسلامه « ما أسلم أحد الا فى اليوم الذى أسلمت فيه ، ولقد مكثت سبعة أيام وانى لثالث الاسلام » .. يعنى بذلك الرسول وأبا بكر ، ولكن جاء فى جوامع السيرة لابن حزم أن سعدا كان سابع سبعة فى الاسلام هم ابو بكر ، وعلى ، وزيد بن حارثة ، وبلال بن أبى رباح ، وعبسة السلمى ، وخالد بن سعد ، وسعد بن ابى وقاص .. واذا أضفنا السيدة خديجة أول من أسلم من النساء فيكون سعد هو ثامن المسلمين .

وكان لاسلامه قصة ارتبطت بحياته ، فقد لاقى معارضة شديدة من أمه .

وحكى سعد ما حدث له مع أمه فقال « كنت رجلا برا بأمى فلما أسلمت قالت : ما هذا الدين الذى أحدثت لتدعن دينك ، لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بى ، فقلت لها : والله لو كان لك ألف نفس فخرجت نفسا نفسا ما تركت هذا الشىء ، فلما رأت ذلك منى أكلت وشربت » .. اتخذت أمه من التهــديد وسيلة للتأثير عليه عله يعود الى دين آبائه ، وأعلنت صــومها عن الطعام والشراب حتى أشرفت على الهلاك ، ولكنه مع حبه لأمه وبرة بها ، لم يبــع ايمانه ودينه بشىء ، حتى لو كان هذا الشىء حياة أمه ، وعندما أشرفت أمــه على الموت أخذه بعض الرجال اليها عل قلبه يرق ، ورأى سعد مشهدا يذيب الصخر ولكن ايمانه انتصر لأنه كان يفــوق كل شىء ، فلما رأت أمه منه ذلك عدلت عن عزمها .. وأنزل الحق تبارك وتعالى « وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » .

جلس رسول الله يوماً مع بعض أصحابه ، فرنا ببصره الى الأفق كأنــه يتلقى همسا ، ثم نظر الى أصحابه وقال لهم « يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة » ، وتلفت أصحاب رسول الله هنا وهناك يرقبون القادم السعيد الذى وهب الجنة ووعد بها ، فطلع عليهم سعد بن أبى وقاص .

كان سعد من السابقين الأولين من المسلمين ، فقد أسلم قبل أن تفرض الصلاة ، وجاهد مع أصحاب النبى بماله — وكان كثير المــال آتاه الله الكثير الحلال الطيب — وبنفسه .

كان يضع ماله في خدمة الاسلام والمسلمين .. فى حجة الوداع كان مع رسول الله ، واصابه مرض فذهب رسول الله يعوده ، فسأله سعد « يارسول الله ، انى ذو مال ولا يرثنى الا ابنة — وكان سعد حتى هذه الآونة ابا بينت واحدة ثم رزق بعدها بابناء آخرين — افاتصدق بثلثى مالى؟ » ؛ فقال النبى « لا » ، قال « فبنصفه » ، قال النبى « لا » ، قال « فبثلثه » ، قال النبى « نعم ، والثلث كثير ، انك ان تذر ورثتك اغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وانك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله الا اجرت عليها ؛ حتى اللقمة تضعها فى فم امرأتك » .

وكان سعد أول من رمى فى سبيل الله .. فقد بعث رسول الله عبيدة ابن الحارث ومعه لواء ابيض على سرية فى ستين من المهاجرين ، وليس بينهم من الأنصار أحد ، وكان سعد أحد رجال السرية .. سار عبيدة بمن معه حتى بلغوا ماء بالحجاز الى بطن رابغ بأسفل ثنية المرة ، فوجد عندها جماعة من قريش يبلغ أفرادها المائتين ، كان عليها عكرمة بن ابى جهل ، ولم يقع التحام بين الطرفين ، الا أن سعداً رمى المشركين بسهم ، فكان اول رام فى الاسلام ، وكان يفتخر بذلك قائلا « وانى لأول المسلمين رمى المشركين بسهم » .. عن قيس بن أبى حازم قال « سمعت سعداً يقول انى لأول رجل من العرب رمى بسهم فى سبيل الله » .. وعن القاسم بن عبد الرحمن قال « أول من رمى بسهم فى سبيل الله سعد بن مالك » .

وكان سعد صاحب أول دم أهريق فى الاسلام .. فقد كان أصحاب رسول الله اذا أرادوا أداء فريضة الصلاة ذهبوا الى شعاب مكة بعيداً عن أعين قريش وانظارها ، .. وفى احد الأيام كان سعد فى نفر من أصحاب رسول الله فى شعب مكة ، فظهر عليهم بعض من المشركين ، فعابوا عليهم دينهم ، وحاولوا منعهم من أداء الصلاة وقاتلوهم ، فضرب سعد رجلا منهم بلحى (عظم الخد) جمل فشجه ، فكان هذا أول دم أهريق فى الاسلام .

قلنا ان سعداً اسلم وهو صغير .. ولنا هنا وقفة ... هو صديق لأبى بكر وعرض عليه أبو بكر الاسلام ، فقبل الدعوة وأسلم ؛ وكان اسلامه صحيحاً ، فقد وضح أنه أسلم عن ايمان وعقيدة ويقين ، بعد أن امتلأ قلبه ووجدانه بالدين الجديد .. بتعاليمه ورسالته وأهدافه وغايته ، وأدرك سعد منذ صغره أن الله ارادة فى أن يرتفع العالم الى الكمال ، وأن تنقذ الانسانية المنهارة ، وأن تسمو القيم الأخلاقية وأن تنتشر الأخوة والمحبة والخير ... من خلال هذا الايمان والادراك كان سعد يبنى حياته وينشىء نفسه .. ومن هنا وهب نفسه للجهاد فى سبيل الله جهاداً صادقاً نابعاً من الوجدان والضمير

والفكر والعقل والاحساس ... ومن هنا لم يبخل على الاسلام بجهده وماله وعمله .. فكان جندى الاسلام الذى لا يهاب ولا يخاف .. ثم كان قائداً لجيوش الاسلام فى أشد المعارك هولا واقساها عنفا واكثرها رهبة ، فصمد فيها وثبت ، حتى أتاه نصر الله وانتشر على يديه الاسلام فى ربوع فارس ، واطفأ بيديه النار المعبودة هناك الى الأبد .

ولعل الله تبارك وتعالى قد قبل من سعد اسلامه ، وعرف عنه ايمانه ، فكانت هناك صلة ثقة بينه وبين ربه ، حتى انه لم يكن يدعو على أحد الا مفوضاً الى الله أمره ، ومن ذلك ما يرويه عامر بن سعد « رأى سعد رجلا يسب عليا وطلحة والزبير ، فنهاه ، فلم ينته ، فقال له : اذن ادعو عليك ، فقال الرجل : اراك تهددنى كانك نبى ، وانصرف سعد ، وتوضأ وصلى ركعتين ، ثم رفع يديه وقال : اللهم ان كنت تعلم أن هذا الرجل قد سب أقواماً سبقت لهم منك الحسنى ، وانه قد أسخطك سبه اياهم ، فاجعله آية وعبرة ، ولم يمض غير وقت قصير حتى خرجت من احدى الدور ناقة لم يردها شىء ، حتى دخلت فى زحام الناس وكأنها تبحث عن شىء ، ثم اقتحمت الرجل ، فأخذته بين قوائمها ، ومازالت تتخبطه حتى مات » .

كان سعد من أوائل المهاجرين الى المدينة ، حين اذن رسول الله المسلمين بالهجرة اليها .. هاجر اليها ومعه أخوه عمير ، وهناك آخى رسول الله بينه وبين مصعب بن عمير الذى قال فيه رسول الله « ما رأيت بمكة أحداً أحسن لمة ولا أرق حلة ولا انعم نعمة من مصعب بن عمير » ، وقيل فى بعض الروايات أن الرسول آخى بينه وبين سعد بن معاذ سيد الأنصار من الخزرج الذى أسلم على يد مصعب بن عمير بالمدينة .

الجنـــدى

كان رسول الله يعرف فى سعد قوة وبطولة وشجاعة .

وكان عليه السلام يرى فيه شفافية روح وصدق يقين وعمق اخلاص .

وهذه كلها سمات رجل الحرب ، ولهذا لم يشأ رسول الله أن يحرم سعداً شرف الجهاد فى سبيل الله .

فعندما بدأ الجهاد فى الاسلام كان سعد من أوائل من بذلوا أقصى جهدهم فى ميادين القتال .. قاتل جندياً تحت لواء الرسول وتحت لواء أمراء الرسول .. وقاتل أيضا قائداً لبعض السرايا .. حدث شعبة عن يحيى بن

الحصين قال « سمعت الحى يتحدثون أن ابى قال لسعد : ما يمنعك من القتال ؟ قال : حتى تجيئونى بسيف يعرف المؤمن من الكافر » .

وروى انه قال لابن اخيه هاشم بن عتبة « اريد من مائة الف سيف سيفاً واحداً .. اذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً ، واذا ضربت به الكافر قطع » .

فى العام الأول الهجرى عقد الرسول راية لسعد ، فخرج فى ثمانية من المهاجرين على لواء ابيض يحمله المقداد بن عمرو ، ومضى بسريته حتى بلغ مكاناً يسمى الخرار — وهو واد من اودية المدينة — ولم يلتق سعد فى خروجه بأحد ، وكان رسول الله قد عهد اليه أن يجاوز الخرار ، فلما بلغ المكان كانت عير قريش بقيادة أبى سفيان (وقيل بقيادة مكرز بن حفص) قد سبقته بيوم أو يومين (*)

قال سعد « كنا نكمن النهار ونسير الليل ، حتى صبحنا الخرار صبح خامسه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عهد الى الا اجاوز الخرار ، وكانت العير قد سبقتنى قبل ذلك بيوم وكانوا ستين » .

وفى قول سعد براعة عسكرية تدل على مدى فهمه لأسلوب التحرك العسكرى ..

يقول سعد أنه كان يكمن النهار ويسير الليل ، وهذا يعنى فى مفهوم الحرب الحديثة مبدأ هاما من مبادئها ، هو **السرية والمحافظة على أمن القوات المتحركة** .

فعلى عاتق القائد تقع مسئولية المحافظة على قواته .. سلامتها وصيانتها .. ومن اجل هذا تبذل القيادات اقصى جهدها لتحقق هذه السلامة.. ومن وسائل ذلك اخفاء التحركات حتى تكون بعيدة عن أعين العدو ..

ولا شك فى أن التحرك نهارا يساعد على استكشاف التحرك ، بالاضافة الى أنه يجعل القوات هدفاً سهلا للعدو ، وكذلك فانه لا شك فى أن التحرك ليلا يحمى القوات من اعين العدو .

وبالتالى من تدخله ضدها ، ونظرة عاجلة على عمليات العصر الحديث نجد أن أغلب عمليات الهجوم والانسحاب تتم ليلا حتى تضمن القوات حرية الحركة والعمل دون تدخل الجانب الآخر .

وهناك جانب آخر فى اسلوب سعد فى التحرك .

فقواته تتحرك فى منطقة صحراوية لا ظل فيها ، حرارتها مرتفعة نهاراً ، ورمالها ساخنة بفعل حرارة الشمس ، وهذا يسبب اجهادا للقوات المتحركة ، ولهذا فان التحرك ليلا يتم فى جو معتدل قليل الحرارة رقيق الهواء مما يخفف العبء .. هذا بالاضافة الى أن حرارة النهار تعطى الجسم كسلا غير عادى ، فتجعله راغباً فى قلة الحركة ميالا الى الهدوء والراحة ، اما نسيم الليل وهواؤه فينعش النفس ويجعل الجسم اكثر رغبة فى الحركة والعمل ، .واكثر قدرة عليهما .

وخرج سعد فى سرية عبد الله بن جحش الأسدى القرشى ، وكان معه من المهاجرين ابو حذيفة بن عقبة ، وعكاشة بن محصن وعتبة بن غزوان ، وعامر ابن ربيعة ، وواقد بن عبد الله .. وهؤلاء من أمثل أصحاب رسول الله طاعة وشجاعة ، وكانوا يمثلون قبائل ربيعة وأسد ومازن وزهرة وعنزة وتميم وليث وفهر ...

كتب رسول الله كتابا مقفلا الى عبد الله ، ورسم له طريق سيره ، وامره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه فيمضى لما امر به ، ولا يستكره أحداً من أصحابه ، ومضت السرية ، وفتح عبد الله الكتاب فوجد فيه « اذا نظرت فى كتابى هذا ، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً ، وتعلم لنا من أخبارهم » .

وعرض عبد الله على أعضاء السرية كتاب الرسول ، واخبرهم أن لا يستكره أحداً منهم ، فمن احب الشهادة فليخرج معه ، ومن كره فليرجع ، ولم يرجع أحد من القوم بل قالوا وفيهم سعد « كلنا نرغب فيما ترغب فيه ، وما من أحد الا وهو سامع مطيع لرسول الله صلى الله عليه وسلم » ..

وسار بهم عبد الله حتى أتى مكانا يقال له بحران ، وعندما بلغوا هذا المكان اضل سعد وعتبة بعيرا لهما كانا يتبادلان ركوبه ، ويبدو أنهما كانا قد تركاه دون قيد فشرد ، واضطرا أن يتخلفا عن السرية بحثاً عنه ، فأوغلا فى البادية عند نخلة وراءه ، فعثرت بهما قريش فقادتهما الى مكة اسيرين ، وعلم رسول الله بخبرهما فانتظر امر الله فيهما .

وكانت السرية قد عادت الى المدينة ومعها اسيران هما عثمان بن عبدالله ابن المغيرة والحكم بن كيسان ، وبعثت قريش تطلب الأسيرين ، فرأى الرسول

أن لا يفاديهما حتى يقدم صاحباه من الأسر ، واشترط أن يصلا المدينة قبل اطلاق سراح أسرى مكة ، وقبلت قريش ، وقدم سعد وعتبة الى المدينة ففاداهما رسول الله ، واطلق سراح المكيين .

واسهم سعد — وكان حديث السن — في غزوة بدر ، قال في ذلك « لقد شهدت بدراً وما في وجهي غير شعرة واحدة أمسها ، ثم اكثر الله لى بعد من اللحى » .

وقدم سعد اخاه عميرا شهيدا في بدر .. قال في ذلك « رأيت أخي عميرا قبل أن يعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم للخروج الى بدر يتوارى فقلت: مالك يا اخي ، قال : اخاف أن يراني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيستصغرني فيردني ، وانا أحب الخروج لعل الله يرزقني الشهادة ، قال فعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستصغره فقال : ارجع ، فبكى عمير ، فأجازه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره» ، وقتل عمير في بدر وهو ابن ست عشرة سنة ، قتله عمرو بن عبدود .

وشارك سعد في غزوة أحد ، ثبت يومها ، ووقف الى جانب رسول الله يرمي بالنبل دونه ، والرسول يناوله النبل ، ويترصد له اصاباته ، وكان له فيها فخر ومجد ، ظل يتغنى بهما حياته كلها .. فقد كان الجندي الوحيد في الجيش الاسلامي الذي افتداه رسول الله بأبوية ، اذ قال له « أرم سعد .. فداك أبي وامي » .. ويقول علي بن أبي طالب « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفدى أحدا بأبويه الا سعدا ، فاني سمعته يوم احد يقول : ارم سعد ... فداك أبي وامي » .

وكان سعد يفخر بأنه من اشجع فرسان العرب والمسلمين ، وكان الرمح سلاحه الذي لا يخيب ، فكان اذا رمى به عدوا أصابه ، ورد الصحابة ذلك الى دعاء الرسول له « اللهم سدد رميته » ..

عن سعيد بن المسيب قال « سمعت سعد بن أبي وقاص يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع له أبويه يوم أحد » .. وكانت ابنته عائشة تردد « أبي والله الذي جمع له النبي صلى الله علية وسلم الأبوين يوم أحد » .. وقد قال سعد في ذلك :

الا هل أتى رسول الله اني حميت صحابتي بصدق نبلي
أذود بها عدوهم ذيادا بكل حزونة وبكل سهل
فما يعتد رام من معد بسهم مع رسول الله قبلي

وشارك سعد في الخندق والحديبية وخيبر وفتح مكة ، وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ..

كان في الحديبية أحد الشهود على وثيقة الهدنة ، ومعه أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن سهيل بن عمرو .

وكان له دور في فتح مكة .. روى الترمذى عن عائشة قولها « لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أرق فقال : ليت رجلا صالحاً من أصحابى يحرسنى، اذ سمعنا صوت السلاح فقال: من هذا ؟ قال : انا سعد، فنام ..... » .

الأسد في براثنه

دار القتال عنيفاً بين قوات المسلمين وقوات الفرس .

وتبدلت القيادات في الجانبين .

بدأ الصراع بينهما على يد القائد العربى المثنى بن حارثة ..

تقدم المثنى بقواته شمالا من البحرين في ثمانية آلاف من خيرة الأبطال ، وخاض غمار معارك كثيرة ، وضع يده على القطيف وهجر ، وبلغ مصب دجلة والفرات ، وهاجم مدينة الأبلة .

وبلغت أخباره الخليفة الأول أبا بكر الصديق ، فرأى أن تسهم الحكومة المركزية في المدينة في القتال الدائر .. وجاء المثنى الى المدينة والتقى بأبى بكر وقال « يا خليفة رسول الله استعملنى على قومى فان فيهم اسلاماً اقاتل به أهل فارس واكفيك ناحيتى من العدو » ، واستجاب أبو بكر وكتب له عهداً بذلك .

الا أن الخليفة بدأ يفكر بصورة جدية في أمر حملة اسلامية الى العراق، تعرض عليهم الاسلام أو الجزية أو القتال ، ووقع اختياره على خالد بن الوليد فأرسله على رأس ألف رجل ، وانضم اليه ثمانية آلاف من ربيعة ومضر ، كما انضم اليه المثنى على رأس ثمانية آلاف أخرى ، وعياض بن غنم ومعه مثل هذا العدد .

وواجه خالد جيوش الفرس في مواقع متعددة ... في كاظمة .. المذار .. الولجة .. اليس .. امغيشيا .. الحيرة .. الأنبار .. عين التمر .. الحصيد .. الثنى ... الفراض .. وكان نجاح خالد نجاحا منقطع النظير ، شجع أبا بكر على أن يستمر في متابعة اخضاع بلاد الفرس كلها للحكم الاسلامي .. فبأن

أبو بكر مزهواً بانتصارات خالد « يامعشر قريش عدا اسدكم على الأسد ، فغلبه على خراديله » .

وكان الموقف العربي فى بلاد الشام يحتم تحرك خالد الى هناك ، ليقود الجيش الاسلامى فى مواجهة جيوش الروم ، وترك خالد بلاد العراق بعد أن أعاد القيادة الى المثنى الذى استمر فى اداء واجبه ، فخاض مع جنده غمار معارك كثيرة تحقق له فيها النصر وكان اوج انتصاراته فى بابل .

وطلب المثنى الامداد من الخليفة ، الا انه كان مريضاً قد أشرف على الموت ، ومع هذا فقد اوصى عمر بأن يولى الحرب الدائرة فى العراق غاية اهتمامه ، والا يتوانى عن تقديم العون الكامل لهذا الميدان الحيوى .

ومع بداية عهد عمر دخلت معارك العراق مرحلة جديدة .

فقد سعى عمر الى جمع الجموع وحشد القوى لتدعيم الموقف هناك ... عفا عن أهل الردة ، وسمح لهم بالمشاركة فى القتال ، ثم دعا الناس « ايها الناس ، ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله الا بذلك » .

وتجمع الناس استجابة لدعوة عمر فولى أمرهم ابا عبيد عمرو بن مسعود الثقفى ، لأنه كان أسبقهم الى الخروج ... قال له « يا امير المؤمنين ، انا سمعناك واطعناك ، وانا اول من اجاب هذه الدعوة انا وقومى وعشيرتى » ، وفى ذلك قال عمر « .. اولى بالرياسة منكم من سبق الى الدفع ، وأجاب الى الدعاء ، والله ، لا أؤمر عليهم الا اواهم انتدابا » .

وتولى أبو عبيد بن مسعود قيادة جيش المسلمين ، وواجه أعداءه فى معارك عدة انتصر فيها كلها .. فى النمارق .. القاطية .. باروسما ..

ثم كانت معركة الجسر آخر معاركه هناك نال فيها شرف الاستشهاد ، بعد أن ادى دوره وقام بواجبه ..

وعاد المثنى من جديد يتولى قيادة المسلمين ، واخذ بثأرهم فى غزوة البويب ، حيث أحيا الأمل ، وأعاد الثقة الى المسلمين الذين ذاقوا مرارة هزيمة ساحقة فى الجسر .. ثم باشر المثنى مهامه بمجموعة من الغارات على سوق الخنافس .. الأنبار .. بلدوريا .. قطربل .. سوق بغداد .. صفين .. تكريت ..

وكانت الهزائم المتكررة التى لحقت بقوات الفرس ناقوس خطر ، تنبه على صوت دقاته الفرس قادة وحكاما ، فبدأوا يفكرون فى أمرهم ، وأصبح واضحا أن الامر سيفلت من أيديهم نتيجة لما أصابهم من الفرقة والانقسام والاختلاف ، فجمعوا أمرهم ، وطرحوا خلافاتهم ووحدوا كلماتهم ، ونظموا جيوشهم لمواجهة الزحف الاسلامى .

اجتمع أهل فارس بالقائدين رستم والفيرزان وتحدثوا اليهم فى صراحة ووضوح « فما بعد بغداد وساباط وتكريت الا المدائن ، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت ونشفين نفوسنا منكما » .

وتم الاتفاق على أن يتولى يزدجرد العرش ، وأن تقف جميع القوى خلفه صفا واحدا يواجه المصير ... ونشط يزدجرد فى جمع الجموع وتكوين الجيوش .

واحس أهل السواد بالاستعداد الكبير فى معسكر الفرس ، فبدءوا يثورون على المسلمين ، ويهاجمون مواقعهم .

وأسند يزدجرد قيادة المعركة الى قائد الفرس وبطلها رستم ، فبعث على مقدمته الجالينوس فى أربعين الفا ، وجعل على ميمنته الهرمزان ، وعلى ميسرته مهران بن بهرام ، وبقى هو فى مركز القيادة ، واصبح عدد قوات الفرس مائة وعشرين ألفا ، تقدمهم ثلاثة فيلة ، كان أكبرهم وأخطرهم فيل سابور الأبيض .

ووصل رستم بقواته الى القادسية .

وفى ذات الوقت كان الاستعداد يجرى فى الجانب العربى على قدم وساق تقديراً من المسلمين لأهمية المعركة القادمة التى كانت تبدو وكأنها المعركة الفاصلة ، فاذا انتصر المسلمون فتحت أمامهم أبواب المدائن ، وانهارت تحت أقدامهم دولة الفرس ، واذا نهزموا تعقد الموقف ، ولا أحد يعرف ما قد يترتب على ذلك .

ولقد أدرك الخليفة عمر ذلك فبعث الى عماله « لا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى الا انتخبنموه ، ثم وجهتموه الى ، العجل .. العجل » ثم قال لأصحابه « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب » .

واجتمعت لدى عمر بضعة آلاف ، وقرر أن يخرج بنفسه على رأس الجيش ، ولكن أصحاب الرأى والمشورة رفضوا ذلك ، وطابوا منه البقاء ،

فان كان الذى يشتهى من الفتح فذلك ما يريد ويريدون ، والا ندب جنداً آخر يغيظ به العدو ، حتى يجىء نصر الله ، وقال عبد الرحمن بن عوف « أقم وابعث جنداً ، وأن تقتل أو تهزم فى أنف الأمر ، خشيت أن لا يكبر المسلمون والا يشهدوا أن لا اله الا الله » ، وتكلم عمر فقال « يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم ، وانى انما كنت كرجل منكم ، حتى صرفنى ذوو الرأى منكم عن الخروج ، فقد رأيت أن أقيم وأن أبعث رجلا » .

ولكن من يكون هذا الرجل ؟

أخذ الناس يعرضون الأسماء ويناقشون الترشيحات .

وبينما البحث مستمر ، وصلت رسالة الى عمر من سعد بن أبى وقاص، وكان على بعض صدقات نجد ، يخبره أنه قد تخير ألف فارس ذوى بطولة وقوة .

ووضع عمر يده على الرجل المنشود وقال لأصحابه «قد وجدت الرجل»، فسألوه فى لهفة « من ؟ » ، فأجاب « **أسد الله فى براثنه ، سعد بن مالك** » ، ونال الترشيح قبول الناس جميعا وصاحوا « نعم . انه رجل شجاع رام » ،

واستدعاه عمر على الفور ، وعينه قائدا لجيوش المسلمين « انى قد وليتك حرب العراق ، فاحفظ وصيتى ، فانك تقدم على أمر شديد كربه ، لا يخلص منه الا الحق ، فعود نفسك ومن معك الخير واستفتح به » .

وتولى سعد القيادة .

توجيهات القائد العام

يتولى القائد عادة أمور الجند وأمور المعركة ..

والقيادة تتمثل فى مستويين :

- القيادة العليا .
- قيادة الجيوش .

وكان رسول الله يتولى بنفسه وطيلة حياته القيادة العامة للجيش الاسلامى ثم تولاها من بعده أبو بكر ثم عمر .. وكان مركز القيادة فى المدينة .

كان رسول الله يجمع بين القيادتين العليا وقيادة الجيش المحارب — الا

فى سرايا قليلة — ، ولكن الوضع تغير فى عهد ما بعد الرســـول ، فقد كان عليه السلام عند الخروج يولى امر المدينة واحدا من اصحابه الذين ارتقوا الى مستوى المسئولية ، فمثلا عند الخروج الى بدر جعل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة بالناس ، واستعمل أبا لبابة على المدينة ..

ولكن تغير الوضع فى عهد الخلفاء ، فلم يكن فى استطاعة الخليفة أن يترك امور الدولة ليخرج مع الخارجين ، وخاصة أن الجيوش تعددت ، وميادين القتال تنوعت ، والحرب زادت رقعتها ، واستوجب الأمر أن يكون الخليفة فى مكان القيادة العليا او العامة يصدر منها الأوامر ويحرك منهـا الجيوش ويعد فيها الامدادات .

كما استوجب أيضا أن تتواجد فى أرض المعركة قيادات للجيوش مستقلة ، تنحمل عبء المعركة فى الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا .

وألقت المسئوليات الجديدة لاتساع ميادين القتال وتعدد جبهاته مهمة خطيره على عاتق القائد العام فأصبح مسئولا عن متابعة الأحداث وامداد القوات بالاضافة الى تنظيم أمور الدولة .

تولى أبو بكر قيادة الجيوش الاسلامية بعد رسول الله ، فحرك القوات الى داخل الجزيرة العربيـة والى بلاد العراق وبلاد الشام ولم يخرج على رأس أى منها ، بل ظل فى المدينة يباشر أمور المعركة والدولة ، واختار لكل جيش قائدا يثق به ويؤمن بقدراته وامكانياته .

وكذلك فعل عمر بن الخطاب حين تولى أمر المسلمين .

الا أن المسئوليات التى ألقيت على عاتقه كانت خطيرة وضخمة ، وكان لابد له من أن يباشرها بنفسه بكل عناية ودقة ورعاية ، حتى تتحقق ما كانت تنشده الأمة الاسلامية فى عصره ، من قيامها على أسس من الدعم الداخلى والدعم الخارجى ..

كان عليه أن ينظم الدولة داخليا ، فى ذات الوقت الذى ينظم فيه أمور الفتح ويرتب المشاكل الناتجة عنه .

لهذا عاش عمر مع قواته المحاربة باحساساته ومشاعره .. كان كأنه يعيش معهم المعـركة فى الميدان ، يرى الأحداث وينظمها ويرتب لها .. كان يبعث بصفة دائمة بأوامره ونصائحه وآرائه .. كانت صلاته بهم لا تنقطـع ،

ورسائله مستمرة متتابعة ، ترسم لهم طريق العمل ، وتحدد امامهم سبل الجهاد ، وتضيء لهم مواقع النصر .

ومن اهم وأجل رسائل عمر رسالته الى سعد بن ابى وقاص بعد أن تولى قيادة الجيش العربى فى العراق ، وتعد هذه الرسالة من اعظم الرسائل التى وجهت للجيوش المقاتلة فى عصور ما قبل الاسلام وفى عصور ما بعده ..

تؤكد هذه الرسالة معانى قتالية جليلة ، ، وتبرز مبادىء ذات قيمة فى مجال الحرب ، وتلقى الضوء على سياسة القتال ، وتضع خطة اللقاء مع العدو على أسس تضمن الارتقاء بمستوى المعركة واخلاقياتها ، وتمهد الطريق للنصر ..

وكان سعد حين تلقى الرسالة يقف على رأس جيش قوى يقوده فى احدى معارك التاريخ الكبرى ، وكان يتلقى الأوامر والتوجيه فينفذها ، لا غرور القوة ولا صلف الزعامة يحملانه على الركون المفرط لثقته بنفسه ، بل كان يلجأ الى امير المؤمنين فى المدينة ، وبينهما ابعاد ، فيرسل له اخباره ويتبادل معه الرأى والمشورة ، ويتقبل ما يرد اليه بروح الجندية الاسلامية الأصيلة .

قال عمر فى رسالته ..

انى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فان التقوى أفضل العدة على العدو ، واقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك ان تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم الله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فاذا استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا من القوة ، والا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا ، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله ، يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ، واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه العون على عدوكم .. أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم .

وقال ....

ترفق بالمسلمين فى سيرهم ، ولا تجشمهم سيرا يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم ، والسفر لم ينقص قوتهم ، فانهم

سائرون الى عدو مقيم ، حامى الأنفس والكراع ، واقم بمن معك فى كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة ، يحيون بها أنفسهم ، ويرمون اسلحتهم وامتعتهم .

وقال ....

نح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك الا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئا ، فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ، فان صبروا لكم فتولهم خيرا ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح .

وقال ....

واذا وطأت أرض العدو ، فاذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك أمرهم ، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن الى نصحه وصدقه ، فان الكذوب لا ينفعك خبره وان صدقك فى بعضه ، والغاش عين عليك وليس عينا لك ، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع ، وتبث السرايا بينك وبينهم .

وتنق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل ، فان لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك ، واجعل أمر السرايا الى أهل الجهاد والصبر على الجلاد ، ولا تخص بها أحدا تهوى ، فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعثن طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة أو نكاية .

وقال ....

فاذا عاينت العدو ، فاضمم اليك اقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم بالمناجزة ما لم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنعه بك .. ثم اذك أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهدك ..

وقال فى نهاية رسالته ..

والله ولى أمرك ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوكم ، والله المستعان والحمد لله رب العالمين .

والى هنا تنتهى رسالة الخليفة عمر الى القائد سعد بن أبى وقاص ..

فى هذه الرسالة وضع الخليفة عمر بصفته القائد العام لجيوش المسلمين دستورا للحرب ، وقدم لقائد قواته مبادىء خالدة يلتزم بها ولا يحيد عنها ..

فالقائد العام طلب من قائد قواته أن يتقى الله ، فتقوى الله قوة تساعد على العدو وتعين على مواجهته ، تزيد الايمان ، وتثبت العقيدة ، وتقوى العزم ، وتذهب الوهن ، وتعطى الشجاعة ، وتمنح الصبر والصمود ، وتدفع الى النصر الذى وعد الله به المجاهدين .

والقائد العام أمر قائد قواته أن يبتعد وجنده عن المعاصى ، وأوضح له ولهم أن النصر على العدو يكون نتيجة لطاعة الله ، فالعدو يعصى الله ولهذا فهو عدو ضعيف ، لا يلتزم بخلق ولا ينتهج سبل التقوى والايمان ، فتضعف عنده الرغبة فى القتال ، وتهن عزيمته فتسهل هزيمته .

والقائد العام نصح قائد قواته أن يستعين بالله ويتوكل عليه ، فتخلص نياتهم ، وتصفو مشاربهم ، وترقى عواطفهم ، ويشتد ساعدهم ، فيتميزون بذلك على عدوهم ، ولهم فى رسول الله أسوة ، فقد اتجه عليه السلام بكل أحاسيسه ومشاعره فى موقعة بدر الى ربه ، وناشده ملتمسا النصر والعون « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى » ، وظل رسول الله فى مناشدته ربه وأبو بكر من خلفه يقول له « يا رسول الله بعض مناشدتك ربك فان الله منجز لك ما وعدك » .

والقائد العام وضع دستورا لتحرك الجند الى ميدان المعركة فقد كان يعرف أن القوات تحركت من الجزيرة الى حيث يقع القتال فوق أرض العراق ... مشوار بعيد مرهق ، ومسيرة طويلة مهلكة للقوى ، ولهذا نصح قائد قواته أن يترفق بالجند ، ولا يحملهم ما لا طاقة لهم به ، ولا يجشمهم سيرا يؤثر فى امكانياتهم ، وذلك حتى يصلوا الى الميدان وهم فى راحة دون جهد ، وفى حالة نفسية غير مرهقة ، لأنهم سيواجهون عدوا قابعا فوق أرضه لم يبذل جهدا ، ولم يتطلب الأمر انتقاله .

وهذا الذى رآه الخليفة عمر ودعا اليه ، **هو ما تلتزم به القيادات فى حروب اليوم** ، فهى تحرص على عدم اجهاد الجند قبل المعركة ، ولهذا أنشئت المركبات وحاملات الجنود برا وبحرا وجوا ، تنقل المقاتلين من مراكز التجمع الى أماكن القتال ، دون أن يصيبهم جهد أو ارهاق ، فيكونون فى حالة نفسية تؤهلهم لدخول المعركة ومواجهة العدو وقواهم موفورة .

والقائد العام طلب من قائد قواته أن يمنح جنده راحة أسبوعية يجددون فيها نشاطهم ويصلحون سلاحهم ويعدون أنفسهم لمرحلة قادمة ، فيهـا عنف وشـدة .. **وهـذا هو ما تسلكه قيادات اليوم وتحرص عليه** ، فهى تمنح جنودها ما يسـمى « أجازات الميدان » .. لذات الغرض الذى كان عمير يهدف اليـه .

والقائد العام اوصى قائد قواته بعدم التعرض بالايذاء لأهل الصلح والذمة، وبعدم التعرض لأموالهم ، فلا يسـتعين به فى محاربة الأعداء ، لأن لهؤلاء حرمة ، ولأن المسلمين أمروا بالوفاء بالعهود .

كما رأى أن يكون مقام الجند بعيدا عن قـرى أهل الذمة والصـلح ، وطلب أن يمنع اختلاط الجند بهم .

وأبرز القائد العام فى رسالته أهمية الاستكشـاف .. فهو يصر على أن يعرف قائد قواته كل شىء عن عدوه ، أخباره .. تسليحه .. مواطن الضعف ومواطن القوة .. ولهـذا طلب من قائد قواته أن يسـتعين فى ذلك **بالعيون** الصادقة المخلصة التى تنقل ما تراه بأمانة دون تعديل أو تغيير ، والتى تبحث عن الأخبار الهامة والمعلومات المفيدة ، وقد أعطت القيادات الحديثة لعمليـة الاستكشـاف غاية اهتمامها وعنايتها وتقديرها .. فأصبح الاستكشـاف (الاستطلاع) أول مرحلة من مراحل الاعداد للمعركة فالمعلومات التى تصـل الى القائد خلال هذه المرحلة عن عدوه تكون الأساس الذى يضع عليه خطـة اللقـاء .

وفوق ذلك كله فان رسالة القائد العام قد حوت مبادىء قتالية هامة :

- منها .. **ضرورة تحطيم مرافق العدو وقطع خطوط مواصلاته ومنـع العون أو المدد عنه** .... وهذه خطوة ذات أهمية بالغة وقت القتـال ، فسلامة خطوط المواصلات تعنى سلامة القوات لأنه عن طريقها تصـل الامدادات ويتم الاتصال بالقيادات ، وقطع هذا الاتصـال يؤدى الى عواقب وخيمة ونتائج خطيرة .. ولقد كان المسلمون حريصين على بقاء هذه الخطوط سليمة ، وعن طريقها كانت تصل توجيهات القيادة العامة ، وكانت أيضا تصل الامدادات التى يتطلبها الموقف فى الميدان .

- ومنها .. **عدم ارسال السرايا الى أماكن غـير معروفة أو مدروسـة يخاف عليها فيها الهزيمة والضياع** ، ولهذا كان المسلمون يقومون بدراسة المناطق ومعرفة أسرارها حتى لا يتورطوا فى منطقة يعرف العـدو كل

شبر فيها ويجهلونها هم ، ولهذا نصح القائد العام قائد قواته أن يطيل مدة البقاء فى أرض العدو ، لأن ذلك يزيد الخبرة بها .

- ومنها .. **عدم البدء بالعدوان** ، وهذه سياســـة عامة وضع قواعدها الاســـلام ، وجعلها مبدأ من مبادىء القتال ، الا فى حالة الاكراه على البدء به ... كانت خطة المسلمين تقوم أساسا على عرض الاســلام ، فان استجاب العدو أصبح له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وان رفض عرضت عليه الجزية مقابل حمايته والدفاع عنه ، فان اســتجاب عاش مع المسلمين لا يمس بسوء ، وان أبى لم يعد فى جعبة المسلمين ســوى القتـــال .

- ومنها .. **الاهتمام البالغ باقامة حراسة كاملة حول معسكر الجند** حتى لا يفاجئهم العدو ، وضرورة اليقظـــة التـــامة ، وعـــدم الاطمئنان الى العدو .. وهذا يعنى الاهتمام بالسرية وســـلامة الجند والحرص خوفا من وقوع مفاجأة تهز أعصاب الجند وتحطم معنوياتهم وتوهن عزيمتهم ، وهو يؤكد على اهمية الحراسة ليلا ، واتخاذ الحيطة والاستعداد لأية مفـــاجأة .

وفى ختام رسالة القائد العام ، ركز عمر على ضرورة الاســـتعانة بالله والتوجه اليه ، والاعتماد عليه ، ومداومة مناشـــــدته تعالى النصر والتأييد ، ايمانا بانه تعالى ولى النصر ، يؤيد المقاتلين فى سبيله ، ويشد أزرهم ويمدهم بالنصر ، مصداقا لقوله تبارك وتعالى « ان ينصركم الله فلا غالب لكم » .

واود أن أركز على نقطة هامة فان كافة المبادىء والأسس التى وردت فى رسالة القائد العام هى ذات المبادىء التى تستخدم فى حروب اليوم ، وان المطلع على تاريخ الحرب العالمية الثانية وهى أحدث حروب العصر تاريخا ، يدرك تماما أن معارك هذه الحرب فى كافة ميادينها قد روعيت فيها كل المبادىء والأسس التى حددها عمر فى رسالته .

منطـــق الأبطـــال

تولى سعد قيادة الجيش الاسلامى وأخذ يعد نفسه للمعركة الفاصلة .

وجاءته رسالة من رستم قائد الفرس يطلب منه أن يرســـل رجلا من عقلاء المسلمين يتحدث اليه .

واختار سعد المغيرة بن شعبة ، فاقبل المغيرة حتى جلس مع رستم على

سريره ، لم ترهبه مظاهر القوة والسلطان التى أحاط رستم بها نفسه ، ووثب عليه رجال رستم وأنزلوه ، فقال لهم بمنطق المؤمن القوى « قد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ، ولا ارى قوما أسفه منكم ، اننا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضا، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، فكان أحسن من الذى صنعتم ان تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض .. » فقال عامة الناس « صدق والله العرب » ، وقال رؤساؤهم « والله لقد رمى بكلام لا زال عبيدنا ينزعون اليه » وعرض المغيرة على رستم انيقبل الاسلام ، أو يؤدى الجزية ، أو يقاتل .

وطلب يزدجرد وفدا من المسلمين ، فسار اليه وفد فيه النعمان بن مقرن، وفرات بن حيان ، والأشعث بن قيس ، وعمرو بن معدى كرب ، فلما التقى بهم عجب لمنظرهم اذ رآهم رجالا عجافا ، أرديتهم على عواتقهم ، وسياطهم فى ايديهم ، ونعالهم فى أرجلهم ، وخيولهم ضعيفة .

سألهم يزدجرد « ما الذى أقدمكم هذه البلاد ؟ ، أتراكم اجترأتم علينا لما تشاغلنا بأنفسنا ؟ » .

وتولى النعمان الرد عليه .. قال له « ان اجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، واقمناكم عليه على ان تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم ، وشأنكم وبلادكم .. وان أتيتم بالجزية قبلنا ومنعناكم ، والا قاتلناكم » .

واغضبت هذه الاجابة يزدجرد ، وخاصة كلمة « والا قاتلناكم » ، فقال « لا أعلم أمة فى الأرض كانت اشقى ولا اقل عددا ولا اسوأ ذات بين منكم ، وقد كنا نوكل بكم قرى الضواحى ليكفوناكم ، لا تغزوكم فارس ولا تطمعون فى أن تقدموا لهم ، فان كان عددكم كثر ، فلا يغرنكم كثرته ، وأن كان الجهد دعاكم ، فرضنا قوتنا الى خصبكم ، واكرمنا وجوهكم ، وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم » .

ورد عليه المغيرة «أيها الملك، هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم، وهمأشراف يستحيون من الأشراف ، وانما يكرم الأشراف ويعظم حقهم الأشراف ، وليس كل ما ارسلوا به قالوه ، وكل ما تكلمت به اجابوك عنه ، فجاوبنى لأكون الذى ابلغك وهم يشهدون على ذلك لى ، فأما ما ذكرت من سوء الحال فهى على ما وصفت وأشد .. » وذكر له سوء عيش العرب وارسال الله رسوله اليهم ، ثم انتهى الى قوله « اختر ان شئت الجزية ، وان شئت السيف ، أو تسلم فتنجى نفسك » .

ولم يطق يزدجرد صبرا على ما سمع ، واخذ منه الغضب فقال « لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم ، لا شيء لكم عندى »

ثم تصرف يزدجرد تصرفا شائنا ، اذ أمر من جاء بوقر من تراب ، فقال « احملوه على أشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن ، ارجعوا الى صاحبكم فأعلموه أنى مرسل اليه رستم حتى يدفنه ويدفنكم معه فى خندق القادسية ، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم بأنفسكم بأشد مما نالكم من سابور ».

وعجب يزدجرد اذ رأى الوفد هادئا لم تهزه كلماته ، ولم يزعجه منطقه ، ولم تنخلع قلوب أفراده لوعيده ..

وتقدم عاصم بن عمرو وحمل التراب على عاتقه وقال « انا اشرفهم .. أنا سيد هؤلاء ... » ، وخرج الوفد الى سعد بحصن فديك ، وقص عليه عاصم ما حدث ، فقال « أبشروا فقد والله أعطانا الله مقاليد ملكهم » .

وسمع رستم بتصرف يزدجرد ، وتطير لما سمع وتولاه الغضب ، ذلك انه كان منجما ، ودلته النجوم على أن الذين خرجوا من المدائن بترابها انما خرجوا معهم بأرض فارس ، ولهذا بعث رجلا فى أثرهم وقال « ان أدرك التراب فرده تداركنا أمرنا ، وان ذهبوا به الى أميرهم غلبونا على أرضنا » .

ورجع الرجل دون أن يلحق بالوفد .

فازداد رستم غما وغضبا ، واستهجن ما فعله يزدجرد .

وخرج رستم يوما للاستطلاع ، فالتقى بأحد قادة المسلمين هو زهرة بن الحوية ، فعرض رستم أن يصالح المسلمين وقال « أنتم جيراننا ، وقد كانت طائفة منكم فى سلطاننا ، فكنا نحسن جوارهم ونكف الأذى عنهم ، ونوليهم المرافق الكثيرة ، ونحفظهم من أهل باديتهم ، فنرعيهم مراعينا ، ونميرهم من بلادنا ، ولا نمنعهم من التجارة فى شيء من أرضنا ، وقد كان لهم فى ذلك معاش » ...

قال له زهرة « صدقت وقد كان ما تذكر ، وليس أمرنا أمر أولئك ، ولا طلبتنا طلبتهم ، انا لم نأتكم لطلب الدنيا ، انما طلبتنا وهمتنا الآخرة ، كنا كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا ، ويضرع اليكم بطلب ما فى أيديكم ، ثم بعث الله تبارك وتعالى الينا رسولا ، فدعانا الى ربه فأجبناه » .

واخذ رستم يسأله عن الاسلام ، وينصت اليه باهتمام وهو يجيب ، ثم

سال « ارايت لو انى رضيت بهذا الأمر واجبتكم اليه ومعى قومى كيف يكون امركم ، اترجعون ؟ » ، فأجاب زهرة « أي والله لا نقــرب بلادكم ابدا الا فى تجارة أو حاجة » .

وحين أصبح القتال وشيك الوقوع ، أصيب سعد بمرض مفاجىء ، اذ ظهرت على جسمه دمامل كثيرة اعجزته عن الحركة ، فلا يستطيع أن يركب او يجلس ، والزمته بالبقاء مكبا على وجهه ، فى صدره وسادة يعتمد عليها... اتخذ سعد لنفسه مكانا يشرف منه على ارض المعركة ، واسند قيادة العمليات الى خالد بن عرفطة الليثى ، يبلغ أوامره الى الجيش ، ويراقب تنفيــذها ، ويباشر القتال بنفسه ، ويطلعه على سير المعركة وتطوراتها ، فكان ســـعد يرمى اليه بالرقاع فيها الأوامر .. قال سعد لأصحابه « انى قد اســتخلفت عليكم خالد بن عرفطة ، وليس يمنعنى أن اكون مكانه الا وجعى الذى يعودنى، انى مكب على وجهي ، وشخصي معكم باد ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فانه انما يأمركم بأمرى » .

ومن مكانه وهو مســتلق على وجهه خاطب جنــده « ان الله هو الحق لا شريك له فى الملك ، وليس لقوله خلف ، قال الله جل ثناؤه (ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) ، أن هذا ميراثكم وموعود ربكم ، وقد اباحها لكم منذ ثلاث حجج ، فأنتم تطعمون منها ، وتأكلون منها ، وتقتلون أهلها وتجبونهم وتســــبونهم الى هذا اليوم بما نال أصحاب الأيام منكم ، وقد جاءكم هذا الجمع ، وأنتم وجوه العرب وخيار كل قبيلة وعز من وراءكم ، فان تزهدوا فى الدنيا وترغبوا فى الآخرة جمع الله لكم الدنيــا والآخرة ، ولا يقرب ذلك أحدا الى أجله ، وان تفشـــلوا وتهنوا وتضعفوا تذهب ريحكم وتوبقوا آخرتكم » .

وتأثر عاصم بن عمرو بقول سعد فقام فى الناس خطيبا « هذه بلاد قد احل الله لكم أهلها ، وأنتم تنالون منهم منذ ثلاث سنوات ، ما لا ينالون منكم ، وأنتم الأعلون والله معكم ، وان صــبرتم وصدقتموهم الضرب والطعن ، فلكم اموالهم ونساؤهم وبلادهم ، وان خرتم وفشلتم ، والله لكم من ذلك جـــار وحافظ ، لم يبق هذا الجمع منكم باقية ، مخافة أن تعودوا عليهم بعائدة هلاك ، الله ... الله ... اذكروا الأيام وما منحكم الله فيهـــا .. ألا ترون أن الأرض وراءكم بسابس قفار ليس فيها خمر ولا وزر يعقل اليه ولا يمتنع به ، اجعلوا همكم الآخــرة » .

واستدعى سعد جماعة من أولى الرأى كالمغيرة وعاصم وطليحة ، وجماعة من الشعراء مثل الشماخ والحطيئة وعبدة بن الطيب وقال لهم « انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ، ويحق عليهم ، عند مواطن البأس، فأنتم من العرب بالمكان الذى أنتم به ، أنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم ، وأنتم سادتهم ، فسيروا فى الناس ، فذكروهم وحرضوهم على القتال » .

وانطلق هؤلاء بين الصفوف يحدثون الجند ويخاطبونهم ، يثيرون مشاعرهم وعواطفهم ..

قال الهذيل الأسدى « يا معشر معد ، اجعلوا حصونكم السيوف ، وكونوا عليها كأسود الأجم ، وتربدوا لهم تربد النمور ، وادرعوا العجاج ، وثقوا بالله وغضوا الأبصار ، فاذا كلت السيوف فأرسلوا عليها الجنادل فانها يؤذن لها فيما لا يؤذن للحديد فيه » ..

وقال عاصم بن عمرو « يا معشر العرب انكم اعيان العرب ، وقد صمدتم لأعيان العجم ، وانما تخاطرون بالجنة ويخاطرون بالدنيا ، فلا يكونن على دنياهم أحوط منكم على آخرتكم ، لا تحدثوا اليوم أمرا تكونون به شينا على العرب غدا » .

ان هذه الأقوال كلها سواء التى قيلت ليزدجرد ورستم ، أو التى وجهت الى الجنود المقاتلين تحمل معنى واحدا هو ان المسلمين قد تجهزوا معنويا للمعركة .. الكل يدرك انه يحمل رسالة السماء وينفذ تعاليم الدين ، وليس اغلى من الروح تفدى بها هذه المهمة .. **لهذا دارت المعركة والكل متفهم لواجبه ، مدرك لدوره ، مستعد لتحقيق النصر او نيل الشهادة .**

الأيام الخالدة

التقى المسلمون والفرس وجها لوجه فى القادسية .

وكان الطرفان فى وضع الاستعداد .

ارسل سعد الى رجاله « اذا سمعتم التكبير فشدوا شسوع نعالكم ، فاذا كبرت الثانية فتهيئوا ، فاذا كبرت الثالثة فشدوا النواجذ على الأضراس واحملوا » .

ثم أمر بقراءة سورة الأنفال ، فقرئت فى كل الكتائب وجميع المواقع ، فلما قرئت هشت قلوب الناس وعيونهم .

وعند الفراغ من القراءة كبر سعد وكبر وراءه الذين يلونه ، فاستعد الناس ثم ثنى سعد فأكمل الناس استعدادهم ، ثم ثلث فهاجت النفوس للقتال واشتدت الرغبة للنزال .. ثم كانت التكبيرة الرابعة التى حددت ساعة الصفر ، فبدأ الزحف ، وخرج المسلمون من مواقعهم يبارزون الفرس .

وكان أول الخارجين غالب بن عبد الله الأسدى ... خرج وهو ينشد :

قد علمت واردة المسائح ذات اللبان والبنان الواضح

اني سمام البطل المشايح وفارج الأمر المهم الفادح

والتقي بهرمز فأسره ، وقاده الي سعد ، ثم عاد الى المعركة يباشر القتال .

وخرج عاصم بن عمرو وهو يقول :

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين اذ تغشاه الذهب

انى امرؤ لا من يعيبه السبب مثلى على مثاك يغريه العتب

وأسر عاصم رجلا معة بغل واستطاع الرجل الفرار واستاق عاصم البغل والرحل فاذا فى الرحل طعام رستم ، وتبين ان الرجل الفار هو خبازه ، ووزع سعد الطعام على الناس .

ودار القتال عنيفا غاية ما يكون العنف ، وسعد يرقبه من مكانه ، ويخاطب الناس وصوتة المفعم بقوة العزم والأمل يجعل من كل جندى جيشا بأسره .. وتهاوى جنود الفرس تحت ضربات المسلمين .. ضرب فارسى عمرو بن معدى كرب بنشابة فأصابت درعة ، فحمل عايه عمرو وقبض علبه وكسر عنقه وذبحه بسيفه ثم القاه أمام الناس وهو يقول « هكذا فاصنعوا بهم » .

ووجه الفرس ثلاثة عشر فيلا الى جناح بنى بجيلة ، وكان يمثل خطورة كبيرة عليهم ، فنفرت الخيل وفزع الرجال ، ولاحظ سعد ذلك من مكانه ، فأصدر اوامره الى بنى أسد أن ينضموا اليهم ويعاونوهم « ذبوا عن بجيلة ومن حولها من الناس » ، وخاطبهم طليحة بن خويلد « يا عشيرتاه ! لو علم سعد أن احدا أحق باغاثة هؤلاء منكم ، استغاثهم ، ابتدئوهم بالشدة ، واقدموا عليهم اقدام الليوث الحربة ، فانما سميتم أسدا لتفعلوا فعله ، شدوا ولا تصدوا ، وكروا ولا تفروا ، شدوا عليهم باسم الله » .

وتقدم بنو أسد وقاتلوا وحبسوا الفيلة ، الا انها عادت من جديد تحمل على المسلمين ، ورآها سعد فبعث الى عاصم بن عمرو « يا معشر بنى تميم ، الستم أصحاب الابل والخيل ؟ أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟ » ، فأمر عاصم رجاله ان يذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل ، وأن يستدبروا الفيلة ، ويقطعوا وضنها ، ونفذ رجاله أوامره ، فارتفع عواء الفيلة ، وألقت بركبانها فقتلوا .

وانتهى قتال اليوم الأول .... يوم ارماث .

ومن اهم ما يتميز به قتال هذا اليوم :

- خاض الجيشان المعركة وهما فى حالة نفسية مرتفعة وروح قتالية عالية .. كل ينشد النصر ويرى فيه وجوده وكيانه بل وجود أمته بأسرها التى ترقب القتال وتنتظر نتيجته .

- كان القتال بالغ العنف حتى أن الفرس فقدوا أعدادا ضخمة من مقاتليها فى الوقت الذى خسر فيه بنو اسد وحدهم أكثر من خمسمائة .

- ان وجود القائد فى المعركة امر بالغ الأهمية ذلك انه يرقب تحرك قواته ومدى تنفيذها للخطة ويعالج الموقف فور ادراكه لصورة القتال ولهذا أصر سعد — رغم مرضه الذى أعاقه عن الاسهام فى احداث المعركة — على قيادتها من مركز قيادته فى قديس .

- لم ينس المسلمون خلال القتال العنيف نصر الله الذى وعد به المؤمنين المجاهدين فى سبيله ، فقد كانت كلمة الله دائما على السنتهم حتى أن الأوامر بالهجوم كانت ترتبط دائما باسمه تعالى ، كما جاء فى قول طليحة لقومه « شدوا باسم الله » ايمانا بأن الله يمدهم بالقوة والعون .

ثم كان قتال اليوم الثانى .. يوم اغواث .

فى هذا اليوم لم تشترك الفيلة فى القتال .

وكان لغيابها اثر كبير فقد زال خطرها وقيل انها تغيبت لاصلاح توابيتها التى تكسرت .

وفى هذا اليوم ايضا وصلت امدادات جديدة الى المسلمين بعث بها عمر ابن الخطاب بعد انتصار المسلمين فى دمشق وفحل ببلاد الشام .. بستة آلاف يقودها هاشم بن عتبة .. وألف يقودها القعقاع بن عمرو .

عندما بدأ القتال كان القعقاع قد وصل أرض المعركة ، فخاض غمارها وشارك فيها فور وصوله ، وتقدم الصفوف وصرخ فى وجه الفرس « من يبارز ؟ » .

فخرج من صفوفهم ذو الحاجب ، وعرفه بنفسه قائلا : « أنا بهمن جاذويه » ، فلما عرفه القعقاع قال بصوت مرتفع « يا لثارات أبى عبيد وسايط وأصحاب يوم الجسر » ، وهاجمه وقتله ، ثم نادى فى الناس « يا معشر المسلمين باشروهم بالسيوف انما يحصد الناس بها » .

ومن أبطال القتال فى هذا اليوم أبو محجن الثقفى ، وهو فارس مغوار كان مقيدا وقت المعركة ، اذ كان مولعا بالخمر فى الجاهلية ، ولم يقلع عنها فى الاسلام ، فنفاه عمر الى القادسية فوصلها وقت المعركة ، فقيده سعد وسجنه ، وبينما هو فى سجنه سمع صليل السيوف وضجيج المعركة وصهيل الجياد ، فهاجت نفسه للقتال ، وأخذ ينشد شعرا جاء فيه :

كفى حزنا أن ترتوى الخيل بالقنا ... واترك مشدودا على وثاقيا
اذا قمت عنانى الحديد واغلقت ... مصاريع دونى قد تصم المناديا
... ...
حبسنا عن الحرب العوان وقد بدت ... وأعمال غيرى يوم ذاك العواليا
فلله عهد لا أخيس بعهده ... اذا فرجت ألا أزور الحوانيا

وسمعته سلمى زوج سعد فرقت له وقالت « انى استخرت الله ورضيت بعهدك » ، ثم أطلقته ، وأعطته البلقاء فرس سعد ، فانطلق الى الميدان يقصف الأعداء بسيفه ويقضى عليهم .

وشاهده سعد من موقعه فقال « والله لولا محبس أبى محجن لقلت هذا أبو محجن وهذه البلقاء » .

ولعبت الحيلة دوراً هاماً فى قتال هذا اليوم .

فقد جاء بعض المسلمين ببعض الابل وبرقعوها ودفعوا بها الى صفوف الفرس كأنها فيلة ، فخافتها خيلهم وولت هاربة ، فعم الخلل والاضطراب جبهة الفرس فاستغل المسلمون هذه الحالة فأعملوا فيهم السيوف قتلا وبترا ... واندفع المسلمون يبحثون عن رستم ، فلما أرادوا اصابته تعرض للضربة رجل من رجاله فمات دونه ، وقدر عدد القتلى من الفرس فى هذا اليوم بعشرة آلاف .

وتميز قتال يوم أغواث بعدة أمور :

- **اهمية الامداد فى المعركة** فان الجيش المقاتل يتعرض لخسائر كثيرة أثناء القتال مما يستوجب امداده من جديد حتى يكون على مستوى المعركة كما وكيفاً .. ومن هنا كان امداد الجيش الاسلامى بقوات من بلاد الشام خطوة هامة جديرة بالذكر ، وأن المتتبع لحروب اليوم يدرك أن القيادات تسعى دائما الى تزويد قواتها المقاتلة بالرجال والعتاد خلال المعركة لتعويض خسائرها ، ولا شك فى أن اهمال الامداد قد تترتب علية خسائر المعركة .

- ابدى المسلمون نشاطاً كبيراً تميز ببطولاتهم وشجاعتهم فى القتال وهذا ما يسمى **بالكفاءة القتالية** ، ولعل بطولة القعقاع بن عمرو أمر جدير بالتنويه فقد تقدم الصفوف ونادى فى قومه « اصنعوا كما أصنع » ثم صرخ فى وجه الفرس « من يبارز ؟ » فخرج اليه قائدهم ذو الحاجب بهمن جاذويه فصرعه ثم صرع بعده ثلاثين فارساً .. وبطولة أبى محجن جديرة بالذكر أيضاً ...

- **كان للمرأة المسلمة دور كبير فى هذا اليوم** فقد قامت بدفن القتلى من المسلمين كما اهتمت اهتماماً بالغاً بمداواة الجرحى وتمريضهم ، ولا ينسى فضل سلمى زوج سعد فى امدادها المسلمين بأبى محجن وهو بطل مغوار كان لوجوده اثر كبير فى أحداث المعركة خلال هذا اليوم .

ثم كان يوم عماس .. اليوم الثالث والأخير ..

فى هذا اليوم ظل القتال طول النهار ، وامتد حتى آخر ليلة ...

وقبل طلوع شمسه كان هاشم بن عتبة قد وصل بمدد كبير الى القادسية .

وكان الفرس قد أصلحوا توابيت الفيلة وأعدوها لقتال هذا اليوم ، وعينوا لها حرسا من فرسانهم يصدون عنها المسلمين ، وكان هذا خطأ فاحشاً من جانبهم ، وذلك أنهم نسوا أن الفيلة لا تثور اذا كانت محاطة بأصحابها ، لهذا كان دورها فى بداية القتال سلبياً ، فهى لم تفرق صفوف المسلمين ، كما أراد منها الفرس ، ولكنها كانت تضرب الطرفين فتصيب هنا وهناك .

وظل القتال سجالا .. العرب يتقدمون تارة والفرس تارة ..

ثم اشتد ضغط الفرس بعد أن وصلتهم امدادات جديدة ..

ثم دخلت الفيلة المعركة بعد أن تنبه الفرس لخطئهم فأصبحت تمثل سلاحا خطيرا ، وهاجمت المسلمين وأفزعتهم وفرقت جموعهم وفتكت بهم وتغير ميزان المعركة لصالح الفرس اذ اشتد ضغطهم واشتد فى ذات الوقت صبر المسلمين وجلدهم .

ولاحظ سعد من مكانه أن بين الفيلة فيلين ضخمين الأبيض والأجرب هما أشد الفيلة ضراوة ، وكانا بمثابة القيادة لبقية الفيلة ، ففكر فى حيلة ينقذ بها الموقف ، وجاءه الحل حين استدعى بعض أسرى الفرس وسألهم عن مقاتل الفيلة ، فدلوه على مشافرها وعيونها ، فأرسل الى القعقاع وعاصم وقال « أكفيانى الأبيض » ،وأرسل الى حمال والربيل من بنى أسد ، وقال « أكفيانى الفيل الأجرب » .. وتقدم الأربعة كل الى غرضه ، فأصابوا الفيلة فى أعينها بالأرماح وضربوا مشافرها بالسيوف ، فألقت بنفسها فى النهر ، وتبعتها كل الفيلة بعد أن ألقت بركبانها ، وولت مدبرة بعد أن تخطت المياه .

... وهكذا نجح سعد بقيادته الواعية الفاهمة فأبعد عن الميدان أخطر أسلحة الفرس ، وأصبح القتال — بعد اختفاء هذا السلاح الخطير — وجهاً لوجه يعتمد أساساً على القوة والجرأة والشجاعة ...

واستمر القتال عنيفا حتى اذا ما جاء الليل هدأت وهأته .

وفى ليل يوم عماس .. ليلة الهرير .. حدثت مفاجأة :

فقد طلب سعد من طليحة وعمرو بن معدى كرب أن يسيرا الى مخاضة فى أسفل مواقع المسلمين خاف أن يستغلها العدو بقواته ليلا ، وقال لهما « ان وجدتما القوم قد سبقوكما اليها فأنزلا بحيالهم ، وان لم تجداهم علموا بها فأقيما حتى يأتيكما أمرى » .. فلما وصلا اليها لم يجدا أحداً من الفرس ، فسولت لهما نفساهما أن يخوضاها معا ، وأن يأتيا الفرس من الخلف ، وكانت خطة جريئة غير متوقعة .

ونفذت الفكرة ...

وكان صداها بعيدا وأثرها قويا ، اذ حققت مفاجأة لم تكن متوقعة .. فبعد أن خاضاها كبر طليحة ثلاث تكبيرات هلعت لها قلوب الفرس وقلوب المسلمين فى وقت واحد ... ظن الأولون أن المسلمين قد غدروا بهم وهاجموهم ليلا ، وظن الآخرون أن جيش الفرس قد فتك بجماعة طليحة وأنه يكبر طلبا للمساعدة والعون ، وهاجم عمرو مع بعض رجاله مواقع الفرس ، ورأى القعقاع أن يتصرف بسرعة دون الرجوع الى سعد حتى لا تفلت الفرصة ، فأمر جماعته بالهجوم أيضا ..

وكان سعد فى مكانه يرقب الأحداث ولم يستطع أن يوقف الاشتباك ، فأخذ يردد « اللهم اغفر له (يقصد القعقاع) وانصره فقد أذنت له وان لم يستأذن » ..

ثم أصدر سعد أمره الى باقى القوات بشن الهجوم العام على الجبهة كلها فهاجمت اسد والنخع وبجيلة وكندة .

واشتد القتال فى جميع القطاعات ، وارتفعت فى سكون الليل صيحات المحاربين وقعقعة السيوف ، وظل سعد يرقب القتال طول الليل يقظان لا يغمض جفنه حتى انبلج الصبح وظهر نور الله ، وصوت القعقاع يدوى « ان النصر مع الصبر » ... وكان لكلماته أثر السحر فى نفوس المقاتلين المسلمين فأقبلوا على القتال دون أن ينالوا قسطا من الراحة رغبة فى استكمال القتال حتى يتحقق النصر .

وتراجع الفيرزان والهرمزان من المجنبتين ، وانكشف القلب واشتد هجوم المسلمين ، ورأى هلال بن علقمة رستم وهو يعبر النهر فاراً من المعركة فلحق به ، وأعاده الى البر ، ثم ضربه بالسيف فى جبينه فقتله ، ووقف يصيح فى زهو « قتلت رستم ورب الكعبة » .

ولم يعد أمام الفرس — وقد قتل رستم — الا الانسحاب اذ وهنت قوتهم وضعفت روح القتال عندهم ، وانهدت معنوياتهم ، وأمر الجالينوس رجاله بعبور النهر على الردم ، وكان قد سبقه الهرمزان والفيرزان ، فانهار بهم الردم فى النهر وغرق منهم ثلاثون ألفا مقترنين بالسلاسل .

انهزمت جيوش الفرس وولت الأدبار ، وأمر سعد بالمطاردة وتبعتهم قوة على رأسها القعقاع وشرحبيل وزهرة بن الحوية الذى لقى الجالينوس فقتله .

ووقع علم الفرس الأكبر درفشكا بيان فى يد ضرار بن الخطاب .

وارتفعت معنويات المسلمين وزاد حماسهم حتى أن النساء اندفعن الى ميدان المعركة ليأخذن بحظهن من النصر الكبير ، وجاء فى بعض الروايات أن أم كثير وهى امرأة همام بن الحارث النخعى قالت « شهدنا القادسية مع أزواجنا ، فلما أتانا أن قد فرغ من الناس شددنا علينا ثيابنا وأخذنا الهراوى ثم أتينا القتلى ، فمن كان من المسلمين سقيناه ورفعناه ، ومن كان من المشركين أجهزنا عليه » .

وانتصر المسلمون ..

وفتح انتصارهم الطريق الى ايوان كسرى فى عاصمة ملكه فى المدائن .

وكتب سعد الى الخليفة عمر يبلغه البشرى .. قال فى كتابه « ان الله

نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم بعد قتال شديد ، ولقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها ، فلم ينفعهم الله بذلك ، وتبعهم المسلمون على الأنهار وفى الفجاج ، وأصيب من المسلمين فلان وفلان ، ورجال من المسلمين لا تعلمهم ، الله بهم عالم ، وكانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دوى النحل ، وهم آساد الناس لا يشبههم الا الأسود ، ولم يفضل من مضى منهم من بقى الا بفضل الشهادة اذ لم نكتب لهم » .

انتهت المعركة .

وانتصر المسلمون .

واندحر الفرس .

ولابد لنا من وقفة نحلل فيها أحداث هذه المعركة من وجهة نظر الحرب الحديثة .

أولا : تقوم الحرب الحديثة على مبدأ الحشد ، أى جمع الجموع وتجهيز الجيوش واعداد القيادات بما يتناسب مع حجم المعركة وأهميتها .

وفى القادسية تجهز كل من الطرفين حشداً للرجال والسلاح ، فقد كان كل طرف يرى فيها المعركة الفاصلة .. الفرس يرون أن النصر فيها انحسار للموج العربى الاسلامى الممتد داخل ارض فارس .. لهذا كانت نظرتهم الى المعركة نظرة جادة فاجتمع أولو الأمر لبحث الموقف ودراسته والانتهاء الى موقف يرضاه الجميع اذ أدركوا أن الماضى مظلم ، وأن المستقبل مهدد ، وأن الوجود فى خطر ، وأن النهاية تقترب ، وأن المسلمين جادون يوالون انتصاراتهم .

واجتمعت كلمة الفرس قبل المعركة على ضرورة خوضها ومواجهة المسلمين فيها بعنف وقوة ، ولهذا انتظمت صفوفهم وطرحوا خلافاتهم وبدأ يزدجرد الذى تولى العرش اعداد الجيوش للثأر من العرب ولاستعادة أرضه ، وتمكن من اعداد جيش كثيف بلغ مائة وعشرين الف مقاتل يقوده رستم وهو واحد من أكبر وأعظم رجال الحرب المشهورين عندهم وكان جريئاً طموحاً يثير طموحه اعجاب الناس ، ويعاونه فى القيادة الجالينوس والهرمزان ومهران ابن بهرام .

وحقق الفرس مفاجأة كبيرة عند الحشد اذ ضموا الى الجيش سلاحا جديداً هو سلاح الفيلة .. سلاح لم يألفه العرب من قبل ولم يتعاملوا معه ، وكان له دور ايجابى الى حد ما فى سير الأحداث ، فالحق بالمسلمين خسائر

فادحة ولم يكن لديهم سلاح مضاد فاعتمدوا على شجاعتهم وجرأتهم فى مواجهته، هذا فوق أن الخيل — وهى سلاح المسلمين الأساسى — كانت تخشى الفيلة وترهبها وتفر من أمامها عند المواجهة .

أما فى الجانب الآخر — أى الجانب الاسلامى — فان الحشد كان الموضوع الرئيسى الذى شغل الخليفة عمر بن الخطاب بصفته القائد الأعلى للجيش الاسلامى ، ولقد أعطى الخليفة هذا الأمر غاية اهتمامه وعنايته فبعث برسائله الى عماله يحثهم على ارسال الامدادات اليه ليحركها الى بلاد فارس « لا تدعو أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى الا انتخبتموه ثم وجهتموه الى .. والعجل العجل » ويبدو اهتمام الخليفة بالحشد فى قوله لرجاله « والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب » .

وعندما وقع الاختيار على سعد بن أبى وقاص قائداً للجيش كان تحت امرته عند تحركه الى بلاد فارس عشرون ألف مقاتل معهم نساؤهم وأولادهم .

وأمر عمر هاشم بن عتبة بالسير بنعض قوات المسلمين فى الشام الى فارس لينضم الى قوات سعد ، فتحرك على رأس ثمانية آلاف مقاتل .. وظلت القوات الاسلامية بالشام على اتصال بقوات سعد فى فارس فسيرت اليه قوات أخرى تحت امرة القعقاع بن عمرو الذى قال فيه أبو بكر « لا يهزم جيش فيهم مثل هذا » .

وانضمت بعض القبائل العربية المجاورة لحدود فارس الى جيش سعد وكان عدد رجالها خمسة آلاف ، هذا فوق قوات المثنى بن حارثة التى بلغت ثلاثة آلاف .

وأصبح الجيش الاسلامى ستة وثلاثين الف مقاتل يعاون فى قيادتهم عمرو بن معدى كرب وطليحة بن خويلد والأشعث بن قيس الكندى وخالد ابن عرفطة وجرير بن عبد الله البجلى وعاصم بن عمرو وهاشم بن عتبة والقعقاع بن عمرو .

ثانيا : تعنى القيادات فى الحرب الحديثة عناية بالغة بروح القتال ومعنويات الجند حتى أصبح سلاح المعنويات من أهم أسلحة المعركة وأصبحت الكفاءة القتالية عند المقاتلين هى التى تحرك أحداث المعركة وتصنعها .

وفى القادسية كان سلاح المعنويات هو السلاح الرئيسى الذى سيطر على أحداث المعركة وسيرها ...

وبدراسة أحداث المعركة يتبين من النظرة الأولى تفوق المسلمين معنويا فقد كان أمل المسلم النصر أو الشهادة ، كان المسلمون لا يخشون الموت وانما يسعون اليه ايمانا منهم بقول الله تبارك وتعالى « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... » الى آخر الآية ... نسى المسلمون خلال المعركة حياتهم الخاصة ومصالحهم وتذكروا دينهم وواجبهم .. نسوا آمالهم فى الحياة وتذكروا فقط مستقبل الاسلام وعزته .. وبهذه المعانى خاضوا المعركة أشداء على أعدائهم أقوياء بدينهم .

ولقد أحس سعد قائد المسلمين فى المعركة بأهمية سلاح المعنويات فأثار حماس الجند وألهب مشاعرهم وكلف جماعة من أولى الرأى للقيام بهذه الرسالة الهامة كالمغيرة وعاصم بن عمرو وطليحة وعمرو بن معدى كرب فانطلقوا بين الصفوف يحدثون الجند ويخاطبونهم ويذكرونهم بانتصارات المسلمين ويوضحون أمامهم الرؤية .. واستعان سعد بالشعراء فى أداء هذه المهمة البالغة الأهمية فاختار من الشعراء الشماخ والحطيئة وعبدة بن الطيب وقال لهم « انطلقوا فقوموا فى الناس بما يحق عليكم ويحق عليهم عند مواطن البأس فأنتم من العرب بالمكان الذى أنتم به ، أنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم ، وأنتم سادتهم ، فسيروا فى الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال » ، وانطلق هؤلاء بين الصفوف يثيرون المشاعر والعواطف والقلوب .

وفى الجانب الآخر — أى فى جانب الفرس — اهتم رستم أيضاً بالروح المعنوية وسعى بكل جهده لرفع معنويات جنده ، فسار بين الصفوف يثير الحماس ويقوى العزائم ويخطب فى الناس ويقول « غدا ندقهم دقا » وطلب من قياداته أن تمر وسط الجند يحرضونهم على القتال دفاعا عن بلادهم وتاريخهم وصدا للتيار العربى ، ونجحت حملة الدعاية فى صفوف الفرس حتى أن الحماس بلغ بهم حدا بعيدا ، فلما وقعت الواقعة ودارت المعركة حاربوا فيها بكل ثقلهم وقدموا فيها كل ما يملكونه ويستطيعونه .

ثالثا : تهتم القيادات الحديثة بعنصر المفاجأة فى الحرب .. فالمفاجأة سلاح خطير له آثار بعيدة المدى بالنسبة للطرفين .. وقد تتحقق المفاجأة باستخدام سلاح جديد أو باتخاذ أسلوب جديد فى الحرب أو باستغلال الوقت بحيث يبدأ القتال فى وقت غير منتظر ، ومن هنا يتضح أن قيمة المفاجأة تتجسم فى اضطرار العدو الى القتال فى ظروف لا تمكنه من استخدام كافة قواته وامكانياته .

ولقد حفلت موقعة القادسية بكثير من المفاجآت التكتيكية ... كان أولها

دون ريب ظهور سلاح الفيلة فى المعركة ، وقد كان ظهور هذا السلاح مفاجأة لم يكن المسلمون قد أعدوا لها من قبل ، لانهم أساساً كانو يجهلون هذا السلاح .. وادى ظهوره الى حدوث خلل فى صفوفهم استمر الوقت الأكبر من المعركة حتى تنبه سعد الى خطورة هذا السلاح واستطاع ان يجد حلا يوقف به هذه الخطورة .. هنا فقط فقدت المفاجأة أهميتها ولكن بعد أن أثبتت وجودها الخطير فى المعركة .

ومن هذه المفاجآت دفع المسلمين لبعض من الابل الى صفوف الفرس وقد برقعوها فخافتها الخيل وولت هاربة وكانت الخيل سلاح الفرس الرئيسى فى المعركة وهروبها من المعركة كان بداية الهزيمة .

والمفاجأة الثالثة التى وقعت خلال المعركة هى وصول القعقاع بن عمرو بجيش جديد خاض به غمار المعركة فى يومها الثانى (يوم اغواث) ، فقد تقدم المقداد بجيشه بأسلوب جديد القى فى روع الفرس أن الامدادات التى تصل لا نهاية لها .. ذلك أن المقداد قسم جيشه الى عشر فرق ، وأمرها بالتقدم متباعدة بحيث تكون كل منها على مدى البصر بالنسبة للأخرى ، فبدت وكأنها جحافل جرارة تتقدم الى أرض المعركة ، مما هز مشاعر الفرس ظناً منهم انها امدادات متلاحقة ستقلب ميزان القوى ، فى الوقت الذى رفعت فيه معنويات المسلمين وهم يرونها متدفقة عليهم وكأنها امدادات لا تنتهى .

ثم مفاجأة رابعة وقعت ليلة الهدير (ويسمونها أيضاً ليلة الهدأة وليلة السواد) وأعنى بها ما حدث عند المخاضة التى كانت فى أسفل مواقع المسلمين.. فان الفرس كانوا يعلمون دون شك بوجودها ومكانها ولكنهم لم يفكروا فى استغلالها ولو أنهم فكروا فى الهجوم عن طريقها لنجحوا فى احداث مفاجأة لم يتوقعها المسلمون ، ولقد تنبه سعد الى خطورتها فبعث برجال عليهم طليحة وعمرو بن معدى كرب لمجرد استكشافها والبقاء عندها لمنع الفرس من استغلالها الا أنهما وجدا الفرصة سانحة للهجوم من ناحيتها — وقد أمنها الفرس — فخاضاها وهاجما منها فكانت ضربة وانقة ناجحة اتسمت بالجرأة ... وتحققت للمسلمين مفاجأة الفرس بالهجوم العام فى موقع وموعد لم يتنبهوا لهما ...

فان نظرة الفرس الى موقع المخاضة كانت نظرة سطحية فلم يحاولوا استغلالها ولم يحاولوا حتى مجرد الدفاع عنها أو مجرد مراقبتها خوفاً من استغلال المسلمين لها ... وكان موعد الهجوم مفاجأة لأنه تم ليلا ، وكان

القتال عادة يهدأ فى الليل فأمن الفرس بينما قام المسلمون بشن هجوم عام وظل القتال طوال الليل حتى انتهى بانتصارهم انتصاراً عظيما مؤزرا .

ذالت لهم البحــور

كانت المدائن نهــاية المطاف .

فيها سقط حكم يزدجرد وظل طريدا بعدها هنا وهناك حتى قتله أحــد اتباعه فى طاحونة .

كانت المعركة نموذجاً حيا للفكر الاسلامى العسكرى .. وضح فيها فن سعد ، وبدت عبقريته كقائد سبق بفكره وفنه كل ما جاء به التطور التكنولوجى العسكرى خلال العصور الحديثة .

وضع سعد خطة العمل فى نهاوند على أساس تكتيك جديد لم يكن أحــد على دراية به فى زمنه .

كان الجيش الفارسى قد تجمع فى نهاوند .. وكان الوصول اليها يتطلب عبور النهر (نهر دجلة) .. **وعبور الأنهــار من أخطر العمليــات الحربية ، وما زالت عمليات عبور الأنهار فى العصر الحديث مشكلة تواجه القيــادات المختلفة ، لأنها تحتاج الى اعداد وترتيب وخطة ، كما تحتاج الى مهارة فائقة وشجاعة نادرة ودقة تامة فى التنفيذ .**

واحساساً من سعد بخطورة الخطوة التالية جمع رجاله وعرض عليهم الأمر وقال : « ان عدوكم قد اعتصم منكم بهذا البحر فلا تخلصون اليه منــه ، وهم يخلصون اليكم اذا شاءوا فيناوشونكم فى ســفنهم ، وليس وراءكم شىء تخافون أن تؤتوا منــه ، فقــد كفاكموهم أهل الأيام وعطلوا ثغورهم وأفنوا ذادتهم ، وقد رأيت من الرأى أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا ، ألا انى قد عزمت على قطع البحر اليهم » ، فرد عليه أصحابه « عزم الله لنا ولك على الرشد فافعل » .

ووضع سعد خطة العبور ...

شكل كتيبة من ستمائة من أهل النجدة بقيادة عاصم بن عمرو التميمى ، سميت كتيبة الأهوال ، وكلفها بعبور النهر ، واعداد منطقة آمنة تصل اليهــا جيوش المسلمين .

وشكل كتيبة أخرى تولى قيادتهـا القعقاع بن عمرو ، سميت الكتيبـة الخرساء ، كان عليها أن تتبع الكتيبة الأولى وتعاونها .

هذه الخطة يمكن ان نترجمهـا بالأسـلوب العسكرى الحديث فنقول : ان كتيبة الأهوال تشبه فرق الصاعقة ، مهمتها فى حروب اليوم أن تتقدم وتعبر المانع المائى سراً ، ثم تقيم رأس جسر على الجـانب الآخر ، وتؤمن منطقـة واسعة تسمح باستقبال القوات الرئيسية ، وتقوم الكتيبة الخرساء بحمايتها ضد تدخل العدو خلال اتمام عملية العبور .. وبعد ذلك تتقدم باقى القوات فتعبر النهر الى منطقة رأس الجسر ، حيث يعاد تنظيمها استعدادا لعمليـات أخـرى ..

وتم تنفيذ الخطة الموضوعة .

وتقدمت كتيبة الأهوال الى الشاطىء ، وسأل عاصم رجاله « من ينتدب معى (أى يسرع بالتطوع) لنكون قبل النـاس دخولا فى هـذا البحر فنحمى الفراض (يعنى الثغور) فى الجانب الآخر ؟ » .. وتقدم اليه ستون فارسا ، واقتحموا جميعاً النهر ، وتشجع الباقون فاندفعوا بخيولهم الى النهر .

كان الفرس على الجانب الآخر يشاهدون ما أقدم عليه المسلمون فى دهشة وتعجب وذهول ، وأخذوا يتصايحون « مجانين !! مجانين !! » ، وقال بعضهم لبعض — وقد رأوا اصرار العرب على العبور بالخيل — « انكم والله ما تقاتلون انساً بل تقاتلون جناً » .

وأسرع فرسان الفرس الى الشاطىء فى محاولة لمنع اتمام العبور ومنع خروج العرب من الماء ، فقال عاصم لأصحابه « الرماح .. الرماح .. اشرعوها وتوخوا العيون » ٦. وانهمرت رماح المسلمين من كل جانب فأصابت الخيل فى عيونها فارتدت ، ولم يستطع فرسانها السيطرة عليها .

وخرجت كتيبـة الأهوال الى الشـاطىء ، ففـر الفـرس وأصـبح الشـاطىء آمنـا .

ثم وصلت بعدها الكتيبة الخرساء .

ثم عبرت باقى القوات وامتلأ النهر بالخيل حتى قيل ان ماءه اختفى فلم يكن يرى .

وعبر سعد وبرفقته سلمان الفارسى واخذ يردد « حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، وليظهرن دينه ، وليهزمن عدوه ، ان لم يكن فى الجيش بغى أو ذنوب تغلب الحسنات » .

وقال سلمان « ذللت لهم والله البحور كما ذلل لهم البر ، أما والذى نفس سلمان بيده ليخرجن منه افواجا كما دخلوا أفواجا » ، يعنى أن أحداً من المسلمين لن يغرق فى النهر ، وقد صدق سلمان ، فلم يغرق أحد منهم ، وقيل أن جندياً عربياً سقط اثناء العبور عن ظهر فرسه ، ورآه القعقاع فثنى عنان فرسه اليه ، وأخذ بيده فجره حتى عبر ، فقال له الرجل « أعجزت الأخوات أن يلدن مثلك يا قعقاع » .

وكانت على الشاطىء الآخر للنهر قوات لم تعبر بعد ، فأمر عاصم اصحاب الزوارق والسفن من الفرس فدفعوها الى هناك ، وعادت بهم .

ودخل المسلمون المدائن .. كانت خالية من الناس .

* * *

وصف ابن كثير فى البداية والنهاية هذه العملية فقال « كان يوما عظيما ، وأمراً هائلا ، وخطباً جايلا ، وخارقاً باهرا ، ومعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، خلقها الله لأصحابه لم ير مثلها فى تلك البلاد ، ولا فى بقعة من البقاع » .

ان ابن كثير يصف عملية العبور بأنها معجزة .. وهى كذلك دون شك فلعل عبور النهر كان أخطر عملية تمت فى هذا العصر ، ولعله أيضاً كان أعظم عملية تتم بهذه الصورة دون أضرار او خسائر رغم أن القائمين بها يمارسون معاملة الماء لأول مرة فى حياتهم .. وان العسكريين فى كافة العصور حتى فى هذا العصر الذى نعيشه يتحدثون عن المانع المائى كأخطر انواع الموانع التى تواجهها الجيوش ، ويعتبر اجتياز أى مانع مائى من وجهة نظر الحرب الحديثة عملية تتطلب اعداداً خاصا وكفاءة عالية وقدرات على مستوى راق من التدريب .

ولا شك فى ان نجاح المسلمين فى هذه العملية يعود أساساً الى الايمان العميق الذى تملك أحاسيسهم ومشاعرهم ووجدانهم ، فجعلهم يأتون بالمعجزات وبالخوارق من الأعمال ، حتى أن عدوهم أثارته هذه القدرة على العبور بالخيل فوصفهم بأنهم من الجن ، وهذا الوصف يعنى أن عدوهم ما كان يستطيع أن ياتى عملا كهذا خوفاً من نتائجه وحرصاً على رجاله ...

وبذلك يكون المسلمون اول من قاموا بعملية عبور بهذه الصورة من الكفاءة والقدرة والنجاح .

* * *

ودخل سعد قصر كسرى وهو يقرأ قول الله تبارك وتعالى « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوما آخرين . فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين » .

الشخصية الثالثة

خالد بن الوليد

« عجزت النساء أن ينشئن مثل خالد »

أبو بكر

البطـل

خالد بن الوليد بن المغيرة المخزومى .

بطل من أبطال النهضة الاسلامية الأولى .

شخصية عسكرية فذة تفرض القدرة وتلهم العبرة .

عبقرى مازال حياً فى ضمير الأمة الاسلامية .. ..

صورة من صور الخلود لا يظفر بمثلها كثير من أبطال الانسانية .

جندى من جنود الله ، تميز فى نواحيه المتعددة بمياسم العظمة ومعـالم العبقرية .

رجل من رجال الحرب يحتل بين رجالها مكان الصدارة ، له باع طويل فى مجالات الحرب ومعارك النضال البشرى سبق به من جاء قبله من رجال الحرب ، وبز به من جاء بعده منهم .

كان عملاقاً فى الميدان بفنه وعلمه وعقله ، خاض غمار المعارك فاهمـاً لأصولها ، مدركاً لمبادئها ، عارفاً بظروفها ملما بكل أحوالها .. خلقت بطولته فى الحرب ، ونهدت عبقريته فى ظلالها ، ووضحت عظمته على ذروتها ..

كان له فى المعارك تاريخ مجيد ، وفى الميدان جهد مزيد .

بطل من أبطـال الجاهلية اعتز به قومه ، كان سـندا قويا يحميهم من أعدائهم ، ويذود عنهم ، ينزل بالأعداء الهزيمة ، لا تقف أمامه قوة ولا تبـدو أمامه شجاعة ، كان القوى يخشاه ، وكان الشجاع يهابه ، وكان اسمه على كل لسان .. على لسان الصديق وعلى لسـان العدو ، هذا يبرز صـفاته العسكرية ويجسمها ، وذاك يؤكدها ويصدق عليها .

بطل من أبطال الاسلام حين أظله الايمان ودخل الاسـلام قلبه ، كان جنديه وحاميه .. بذل من نفسه وحياته ما يعطى مثلا ويغدو قدوة للشـباب فى كل جيل وفى كل عصر .

حارب الاسلام فكان خصمه العنيد ، وصد عنه فكان سنده القوى ودرعه الفتى وسياجه المتين ، وعاش اسلامه مجاهداً ، وظل على جهاده لاتهن لـه قـوة ، ولا يضـعف له ايمـان ، ولا تزوغ منـه عقيدة .. .. حارب فى

الجزيرة .. .. وفى بلاد فارس .. .. وفى بلاد الشام .. .. فى جبهات ثلاث تختلف فى طبيعتها وظروفها وبيئتها ، فكان فى الجبهات الثلاث البطل المغوار العارف المدرك الفاهم .

وواجه فى حروبه العرب .. ثم الفرس .. ثم الروم .. ثلاثة أنواع مختلفة الالوان والمشارب ، لكل طبيعته وصفاته ومميزاته ، فكان فى مواجهتهم جميعاً القائد الصامد الذى لا يهزم ولا يقهر .. كان اسمه يسبقه فيقع الرعب فى صفوف اعدائه ، وينالهم الوهن والذعر ويتملكهم اليأس .. كان ينتصر باسمه قبل أن ينتصر بسيفه ...

قال فى ذلك أكيدر بن عبد الملك الكندى « أنا أعلم الناس بخالد لا احد أيمن طائراً منه ، ولا أحد فى حرب ، ولا يرى قوم أبدا قلوا أو كثروا الا انهزموا عنه » .

وكان اسم خالد يسبقه الى أعدائه قبل مواقعتهم فينتشر الرعب فى قلوبهم ويشيع الفزع بينهم وتنحل قواهم وتنهار عزائمهم .

روى الطبرى عن عدى بن حاتم انه قال : « اغرنا على اهل المصيخ واذا رجل اسمه حرقوص بن النعمان من النمر ، واذا حوله بنوه وامراته وبينهم جفنة من خمر ، وهم عليها عكوف يقولون له : ومن يشرب هذه الساعة وفى اعجاز الليل ، فقال : اشربوا شرب وداع ، فما ارى أن تشربوا خمرا بعدها .. هذا خالد بن الوليد يعين النمر وقد بلغه جمعنا وليس بتاركنا » .

ثم أنشد :

الا فاشربوا من قبل قاصمة الظهر   بعيد انتفاخ القوم بالعكر الدثر (١)

وقبل منايانا المصيبة بالقدر   لحين لعمرى لا يزيد ولا يحرى (٢)

وروى ياقوت ، ان ربيعة لما تجمعت الى الهذيل بن عمران غضبا لعقبة ابن أبى عقة لتاخذ بثاره من خالد وجيشه ، نهاهم حرقوص بن النعمان عن مكاشفة خالد ، فعصوه ، فرجع الى اهله وهو يقول :

---

(١) العكر : الابل الكثيرة ، الدثر : المال الكثير .

(٢) يحرى : ينقص .

الا فاسـقيانى قبل جيش ابى بكر لعـل منـايانا قريب ولا ندرى
الا فاسـقيانى بالزجـاج وكررا علينا كميت اللون صـافية تجـرى
أظـن خيـول المسـلمين وخالدا ستطرقكم عند الصباح على البشر
فهـل لكم بالسـير قبـل قتالهم وقبل خروج المعصرات من الخـدر

لقد نشأ خالد فى بيئة صحراوية وسـط جمع من القبائل العربية ، فى مجتمع تفشى فيه الجهل ، فلم يتعلم الحرب فى مدرسة ، ولم يقرأ تاريخهـا فى كتاب ، ولم يكن يدرى شيئا عن حروب السابقين ، ولكنه حين حمل السـيف وخرج للقتال ، كان بطلا كشفت معاركه عن بطولة أصيلة فى نفسـه ، وقدرة عسكرية تتحكم فيه ، وفن حربى فاق به العسكريين فى كل الأزمنة والعصور .

كان ضليعا فى المعركة يخطط لها كأعظم القادة جميعـا ، ويرتب كأعظم ما عرفته الحروب الحديثة من ترتيب وتنظيم ، ويضع تكتيكات المعركة طبقـا لما يدرس الآن فى المعاهد والأكاديميات العسكرية ، ويسيطر على قواته أعظم ما تكون السيطرة والتوجيه .

وكان له النصر فى كل المعارك ، لم يهزم فى معركة ، ولم ينل منه عدو ، ولم تنكس له راية ولم يسقط له لواء ، حتى قيل أنه وقت وفاته بكى لا خشية الموت ولا خوف الردى ولكن لأنه يموت بغير السيف فى حومة الوغى « لقـد حضرت كذا وكذا زحفا ، وما فى جسدى موضع شبر الا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح ، وهأنذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يمـوت البعير ... فلا نامت أعين الجبناء » .

قال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم عبد الله ، هذا سيف من سـيوف الله » ..

وقال عنه أبو بكر « عجزت النساء أن ينشئن مثل خالد » ..

وتساءل عمر « هل قامت النساء عن مثل خالد ؟ » .

* * *

ميـــــدان المعـــــركة

ميدان المعركة هو رقعة الأرض التى تقع فوقها احداث المعركة .. ..

ودراسة ارض المعركة عمل جوهرى ، والالمام بأحوالها واجب يقع على عاتق القيادات ، فليس من المنطق أو العقل أن يتقدم جيش الى ارض يواجـــه فيها عدوا وهو جاهل تطبيعة هذه الأرض ، ولهذا تحرص القيـــــادات على دراسة طبيعة ارض المعركة كعمل اســــاسى لوضع خطة اللقــاء ، وترتيب القوات ، وخوض غمار المعركة .

ومما لا يختلف فيه اثنان ، ان القتـــال فى الأرض المنبســـطة يختلف فى نوعيته واسلحته وتكتيكه عن القتال فى الأرض الرماية او فى الأرض الجبلية او فى الأرض الطينية ، والقتال فى مناطق المســـتنقعات يختلف عنه فى مناطق الأدغال ، ويختلف أيضا عنه فى قتال المدن .

اذن فأرض المعركة تتحكم الى حـــد كبير — بجانب عوامل أخرى — فى تحديد نوع السلاح وعدد المقاتلين وخطة اللقاء .

وكان خالد بن الوليد يدرك ذلك ويعرفه .. كان يدرس طبيعة الأرض قبل أن يدخل المعركة ، ويضع هذه الدراســـة موضع البحث ليقف على كيفية استغلال الأرض لصـــالح قواته .. وكان يهتم اهتماما خاصــا بالأماكن ذات القيمة الاستراتيجية التى تفرض السيطرة على أرض العمليات .

وهنا تبرز عبقرية خالد ويظهر فنه الحربى ، فهو فى هذا الجانب لا يقل مرتبة عن غيره من القـــادة الذين تلقوا علوم الحرب عن طريق الكتب أو فى الأكاديميات والمدارس العسكرية ... واذا كانت قيادة المحور وقيادة الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية قد اهتمتا بدراسة الصحراء الغربية بصفتها ارض المعارك القادمة بين القيادتين ، فان خالد بن الوليد قد ســـبق الى مثل هذه الدراسة خلال معركة أحد التى دارت فى شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة بين قريش وقوات الرسول .

فبعد هزيمة بدر رأى المشركون أن يتجهزوا لمعركة أخرى ضد المسلمين، وخرجت قريش فى ثلاثة آلاف رجل فيهم ســـــبعمائة دارع ومعهم مائتا فرس وثلاثة آلاف بعير وخمس عشرة امراة ، واخطر العباس بن عبد المطلب — عم الرسول — المسلمين بخروج قريش ، فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم

قومه وكانوا ستمائة وخمسين رجلا معهم خمسون فارسا ، وخرج بهما الى موضع أحد .

وكان مع قريش خالد بن الوليد على الخيل .. اخذ خالد ينظر الى أرض المعركة ويدرسها ، فرأى الأرض منبسطة تتضح فيها الرؤية ، وتبين له أن هناك مرتفعا واضحا يسيطر على المنطقة ، ورأى بعقله الراجح ورأيه النافذ ان الجانب الذى يملك هذا الجبل المرتفع يملك بالتالى القدرة على السيطرة والتحرك .

الا ان خالدا كان يواجه جيشا يقوده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو اكثر منه معرفة بشئون الحرب ، وأكثر منه ادراكا لطبيعة الأرض ، وأكثر منه فهما لأهمية هذا الجبل .

فعندما انتهى رسول الله بجنده الى احد ، اقبل يصف اصحابه ويسوى الصفوف ، وأمر الزبير بن العوام « استقبل خالد بن الوليد وكن بازائه » ، ثم سبق الرسول قريشا ووضع يده على الجبل ، فجعل عليه خمسين من الرماة عليهم عبد الله بن جبير وقال لهم : « قوموا على مصافكم هذه ، فاحموا ظهورنا ، لا يأتون من خلفنا ، وارشقوهم بالنبل فان الخيل لا تقدم على النبل ، انا لا نزال غالبين ما ثبتم فى مكانكم .. ان رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل لكم ، وان رأيتمونا هزمنا القوم واوطأناهم وهم قتلى فلا تبرحوا حتى أرسل لكم » .

ودارت المعركة واحتدم القتال ، ودنا القوم بعضهم من بعض ، والرماة يرشقون خيل المشركين بالنبل ، وكبر المسلمون وشدوا على كتائب المشركين يضربونهم ، حتى وهنت قواهم ، وتبعثرت صفوفهم ، وانكشفوا منهزمين لا يلوون على شىء ، وتبعهم المسلمون يضعون السلاح فيهم حيث شاءوا .

ويصف ابن اسحق المعركة « ... ثم انزل الله نصره وصدق وعده فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر وكانت الهزيمة لا شك فيها » .. وروى عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : « والله لقد رأيتنى انظر الى قوم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هاربات مادون أخذهن قليل أو كثير » .

ورأى الرماة — رغم صراحة تعليمات رسول الله — الهزيمة تحل بقريش ، والنساء يهمن فى الصحراء ، والرجال يولون الادبار ، والغنائم التى خلفها ثلاثة آلاف رجل تزحم الجبل ، واخوانهم يجمعون الغنائم ، فقال بعضهم لبعض « لم تقيمون ها هنا من غير شىء وقد هزم الله عدوكم ، وهؤلاء اخوانكم

ينتهبون عسكرهم فاغنموا مع الغانمين » ، واعترض البعض قائلا : « ألم يقل لكم رسول الله لا تبرحوا محانكم وان رايتمونا نقتل فلا تنصرونا » ، فقالوا : « لم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان نبقى بعد أن أذل الله المشركين »، وانطلقوا يشاركون فى جمع الغنائم وتركوا مكانهم ، الا أميرهم عبد الله فبقى مع نفر قليـــل ...

كان خالد بن الوليد على خيل المشركين ، وهو رجل يملك أعصابه عند تفاقم الخطوب وزحف الأحداث ، يرفض الهزيمة ويبغى دائما النصر ، لم يطر عقله شــــعاعا بالهزيمة التى لحقت بقومه ، ولم يصبه ما أصاب أقرانه من الاضطراب والخوف ولكنه ظل كعادته قويا جلدا يقظا ، يرقب الأحداث وينظر ناحية الجبل ويتابع ما يحدث فوقه ... ورمى بنظره فى مؤخرة الجبـــل فرأى المسلمين يغادرون مكانهم ولم يبق منهم الا نفر قليل ، فحمل بخيله عليهم حتى أبادهم ، وركب أكتاف المســـــلمين ، وأوقع الاضطراب والخلل فى صفوفهم ، وتبدل الموقف وتغيرت هزيمة المشركين الى نصر وأصيب المسلمون اصابه بالغه وانتفخت أوداج قريش فرحا واعتزازا بنصر لم يكن فى الحســــبان ، ونادوا بشعارهم « يا للعزى .. يا لهبل » ، وأوجعوا من المسلمين قتلا ذريعـــا ، وأبو سفيان وقد هزه الانتصار الذى جاء على غير انتظار يصيح فى النـــاس « يوم بيوم بدر » .

قال ابن سعد فى الطبقات « ونظر خالد الى خـــلاء الجبـــل وقلة اهله فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبى جهـــــل فحملوا على من بقى من الرماة وقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير رحمه الله تعالى وانتقضت صفوف المســـلمين واســـتدارت رحاهم » .

اذن فخالد قد أدرك أهمية الموقع المرتفع الذى يشرف على أرض المعركة، وأدرك أن الاستيلاء عليه يعطى فرصة أكبر لاحراز النصر ، لهذا ظل يرقب المعركة ويتجاهل أحداثها الكبار وعينه على الجبل ينتظر لحظة يثب فيهـــا مع خيله الى قمته ..

وأثر الجبل فى نتيجة المعركة يشبه الى حد كبير أثر تبة على المنطار التى تطل على مدينة غزة فى المحاولات التى بذلها الانجليز لاحتلالها خلال الحـــرب العالمية الأولى ، وهذه التبة تقع على بعد ميل تقريبا من غزة من الشــــمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، وهى فى الواقع مفتاح جميع دفاعات المدينة ، وكان الأتراك قد أعدوا موقعا حصـــينا عند هذه التبة ادراكا منهم لأهميتهـــا الاســـتراتيجية ، وصارت هذه التبة هدفا للهجوم البريطانى وللدفاع التركى ،

وسـعى ألنبى جهده لكى يحتل هذه التبة التى كان يرى فيها مفتـاح الموقف والسبيل الى دخول غزة ، ولم يتحقق له دخول غزة الا بعد احتلال التبة .

***

وتقديرا من قريش لقائدها الشاب المغوار خلال غزوة الأحزاب أسندت اليه ، قيـادة اغلظ كتائبها ، وأعظمها عددا وأكثرها نفرا وأجمعها للقبـائل والأحزاب ، وأصبح هو قائدها وحامى حماها .

فى هذه الغزوة كان لخالد موقف مشابه لموقفه يوم أحد ..

فبعد أن أجلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى النضير جزاء غدرهم، قاوم نفر من رءوسائهم يدعون قريشا الى محـاربة محمد .. قالوا لهم « انا سنكون معكم على محمد حتى نستأصله » .. فأستجابت قريش وخرجت ومن تابعها من الأحابيش وكنانة وأهل تهامة فى عشرة آلاف يقودهم أبو سـفيان ابن حرب ، وخرجت معهم بتأثير من اليهود غطفان فى مثل عدد قريش يقودهم عيينة بن حصن الفزارى .

فلما علم رسول الله تجهز للقائهم ، واشـار عليه سلمان الفارسى بحفر الخندق حول المدينة « يا رسول الله انا كنا بأرض فارس اذا تخوفنا الخيـل خندقنا علينا » ، فقبل رسول الله رأيه واستحسنه وأمر فضرب على المدينـة الخنـدق .

وفوجئت الأحزاب بالخندق يحيط بالمدينة ، ووقف المشركون يرقبـون الموقف لا يدرون ماذا يفعلون أمام هذا النوع الجديد من تكتيك الحـرب الذى لم يكن لهم علم به ..

وقام خالد بن الوليد بجولة فى الموقع فدرسـه وفحصه والم بتفاصيله ووقع على موقع يضيق فيه الخندق ويمكن منه اجتيازه ، فجمـع قومه ودلهم عليه ، فأسـندوا اليه مهمة اجتيازه ، فهو أشـجع رجالها وأكثرهم جرأة واقداما ....

وبدأ خالد محاولاته فى هذا الموقع ..

واضطر رسول الله أن يخصص كتيبة من رجالة تواجه خالدا وتصده عن اجتياز الخدق .. فقد أسندت قريش مهمة اقتحام الخندق الى أبى سفيان بن حرب ، وهبيرة بن أبى وهب وضرار بن الخطاب الفهرى ، كل يغدو فى أصحابه

يوما ؛ وأسندت قريش الى خالد بن الوليد مهمة مواجهة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كتيبة كثيفة غليظة ، وظل خالد يناوش المسلمين طيلة يومه حتى أنهم لم يؤدوا فريضة الصلاة ظهرا وعصرا ومغربا وعشاء .

الا أن ظروفا خارجة عن ارادة خالد وقفت فى وجهه ومنعته من تحقيق أمله فى عبور الخندق .. فقد تدخلت عوامل الطبيعة ، وهبت ريح هوجاء ، كفأت قدور قريش وطرحت أبنيتهم وقلعت خيامهم واطفأت نيرانهم وملأت عيونهم بالغبار والرمال ، واشتدت الريح ، وأظلمت الدنيا فلم تجد قريش بدا من الرحيل ، وخاطب ابو سفيان القوم فقال « يا معشر قريش انكم ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ... ولقينا من هذه الريح ما ترون والله ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فانى مرتحل » .

ويصف حذيفة بن اليمان ليلة الأحزاب (غزوة الخندق) فيقول « ما أتت علينا قط ليلة أشد ظلمة ولا اشد ريحا منها ، تطن فى رياحها أصوات مثل الصواعق وما يستطيع أحدنا أن يرى اصبعه من قتامها الشديد » .

وقال تعالى فى وصف ما حدث خلال الموقعة — وقوله الحق — « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا » .

الايمـــان

أسلم خالد بن الوليد .. وزلزل اسلامه المشركين والمنافقين ، وانفجرت براكين غضب أبى سفيان فصاح فى وجهه « والله لو أعلم أن الذى تقوله حق لبدأت بك قبل محمد » .

كان لخالد أخ هو الوليد ، وكان قد سبقه الى الاسلام ، فكتب اليه يقول « انى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الاسلام ، وعقلك عقلك :! .. لقد سألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أين خالد ؟ ، قلت : يأتى الله به ، فقال : ما مثل خالد يجهل الاسلام ، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرا له ولقدمناه على غيره ، فاستدرك يا أخى ما فاتك فقد فاتتك مواطن صالحة » .

قرأ خالد كتاب أخيه وخلا الى نفسه وأدار خواطره ، وتمنى على الله أن يبسط من طريق الهداية ، والتمعت فى فؤاده بشائر اليقين ..

قال خالد « لما جاءنى كتابه نشطت للخروج وزادنى رغبة فى الاسلام وسرتنى مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورايت فى النوم كأنى من بلاد ضيقة جدبة فخرجت الى بلد اخضر واسع فقلت ان هذه الرؤيا حق » .

روى ابن سعد فى الطبقات عن الحارث بن هشام قال : سمعت خالد بن الوليد يقول : لما أراد الله بى من الخير ما أراد ، قذف فى قلبى حب الاسلام ، وحضرنى رشدى وقلت : قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد صلى الله عليه وسلم فليس موطن أشهده الا وانصرف وانى أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء وأن محمدا سيظهر ... » .

واتجه خالد الى صفوان بن أمية وحدثه فى أمر الاسلام ورجاه أن يكون رفيقه الى رسول الله « اما ترى يا ابا وهب ؟ أما ترى ما نحن فيه ؟ انما نحن أكلة راس ، وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا عليه فاتبعناه ؟ فان شرف محمد شرف لنا » ، فرفض صفوان قوله بشدة « لو لم يبق غيرى من قريش ما اتبعته أبداً » وعذره خالد قائلا « هذا رجل موتور يطلب وترا ، قتل ابوه واخوه ببدر » .

ثم اتجه خالد الى عكرمة بن أبى جهل فرفض ايضا ..

ثم فاتح عثمان بن طلحة فوجده يستعد للخروج ووجد فيه رفيقـا الى رسول الله ، قال له « انما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر ، ولو صب عليه ذنوب من ماء خرج !! » ، فرد عليه « لقد غدوت اليـوم وأنا أريد أن أغـدو » ، فخرجا معا حتى اذا بلغا موقعا يسمى الهدبة ، لقيا عمرو بن العاص وهو فى طريقه الى رسول الله وكان الاسلام قد دخل قلبه وملأه نوراً وايماناً ، وسـار الثلاثة معا يتطلعون الى غد مشرق ويتركون وراءهم ماضيا كئيبا ثقيلا قاتما ..

قال خالد : « قدمنا المدينة أول يوم من صفر سنة ثمان ، فأنخنا بظـاهر الحرة ركائبنا ... ثم لبست من صالح ثيابى وعمدت الى رسول الله فلقينى أخى فقال : أسرع فان رسول الله صلى الله علية وسلم أخبر بقدومك فسر به وهو ينتظر ، فأسرعت المشى فلما طلعت على رسول الله سلمت عليه بالنبوة فرد على السلام بوجه طلق ، فأسلمت وشهدت شهادة الحق ، فقال رسـول الله : قد كنت أرى لك عقلا رجوت الا يسلمك الا الى خير ، وبايعت رسول الله وقلت : استغفر لى فى كل ما أوضعت فيه من صد عن سبيل الله ، فقال : ان الاسلام يجب ما كان قبله ، قلت : يا رسول الله على ذلك ، فقال : اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من حق عن سبيلك » .

أسلم خالد وأصبح باسلامه دعامة هامة من دعامات الاسلام ، ومكسباً عظيما للاسلام والمسلمين عبر عنه رسول الله فى قوله لأصحابه : « ألقت اليكم مكة أفلاذ كبدها » (يعنى عليه السلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص) .. وكان اسلامه نتيجة لما عمر به قلبه من الايمان ، وكان هذا الايمان هو مفجر عبقريته ومبعث بطولته ..

قال ابن عبد البر فى الاستيعاب ، وابن الأثير فى الأسد « ولم يزل خالد من حين أسلم يوليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أعنة الخيل ، فيكون فى مقدمتها فى محاربة العرب » .

وحمل خالد على أكتافه عبئاً ضخماً خلال بناء الدولة الاسلامية ، فعلى اكتافه تمت فتوح كثيرة فى بلاد فارس وبلاد الشام ، بالاضافة الى انه كان صاحب فضل كبير فى مقاومة الفتنة التى قامت اثر وفاة رسول الله .

* * *

من أهم ما يجب أن يتصف به القائد — اى قائد — هو الايمان .. .. فالقائد العسكرى لا يمكن أبداً ان يكسب معركة دون أن يكون اشتراكه فيها قائماً اساساً على الايمان .. الايمان بالفكرة والهدف والغاية ..

ولعل ايمان خالد كان السر الكبير وراء انتصاراته ونجاحه ، لقد احس بخطورة دوره ، وكان ايمانه بهذا الدور عميقاً قوياً راسخا ، ومن هنا كان يخوض المعارك بقوة وشجاعة وصلابة وعزيمة دون أن ترهبه احداث المعركة.

رشحه رسول الله — وقد أدرك عمق ايمانه وصدقه — ليقود سرية بعث بها بعد فتح مكة الى العزى لهدمها .. فخرج فى ثلاثين رجلا فهدمها ثم عاد الى المدينة ، فسأله الرسول « هل رأيت شيئا » ؟ قال « لا » قال « فانك لم تهدمها فارجع اليها فاهدمها » ، فرجع وهو متغيظ فلما جرد سيفه خرجت اليه امرأة عريانة سوداء ناشزة الراس ، وجعل سادنها يصيح بها ، فضربها خالد فجزلها ، ورجع الى المدينة وأخبر رسول الله فقال له : « نعم تلك العزى وقد يئست أن تعبد ببلادكم أبداً » .. .. والعزى من أكبر أصنام قريش تعظمه كنانة ومضر ، وكان سدنتها بنوشيبان من بنى سليم ، ولما علم سادنها بمسير خالد اليها علق سيفه عليها ، والتجأ الى الجبل الذى هى فيه وقال :

أيا عز شدى شدة لاشوى لها ... على خالد ، ألقى القناع وشمرى

وياعز ان لم تقتلى اليوم خالداً ... فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى

وبعد أن هدمها خالد قال :

ياعــز كفــرانك لاســبحانك أنى رأيت الله قـــد أهانــك

واختاره رســـول الله مرة أخرى ليهدم ود بدومة الجندل ، وهناك حالت بنو عبد ود بينه وبين هدمه فجرد سلاحه وحاربهم ودحرهم ثم هدمه .

واختاره رسول الله مــرة ثالثة ليهــدم اللات وهو بيت كان أهل ثقيف يتعبدونه ، ويهدون له ، ويضاهون به البيت الحرام ، وكانوا قد سألوا رسول الله أن يبقيه لهم ولا يهدمه حتى يدخل الاسلام قومهم فرفض .. قدم خالد الى هناك وأمر المغيرة بن شعبة بهدمه فهدمه .

ورشحه ايمانه لكى يكون — فوق أنه رجل حرب — رجل علم يعلم الناس الاسلام ويحفظهم القرآن ويأخذ بيدهم على طريق الهداية ... بعث به رسول الله الى بنى الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم الى الاسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثا وقال له : « ان استجابوا لك فاقبل منهم ، وأقم فيهم ، وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ومعالم الاسلام » .. فأسلموا على يديه ، وبقى بينهم يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه وتعاليم الاسلام .. وكتب الى رسول الله « أنا مقيم بين أظهرهم آمرهم بما أمرهم به الله ، وأنهاهم عما نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الاسلام وسنة النبى صلى الله عليه وسلم » .

وايما خالد هو الذى دفعه الى المشاركة الايجابية فى حروب الردة ، فكان له دور كبير وخطير وهام سوف نتناوله بالتفصيل فيما بعد .

وايمان خالد كان الدافع الأكبر لاسلام القائد الرومى جرجة ، فقد دعا جرجة خالد أثناء اليرموك وسأله « ما منزلة الذى يدخل فيكم ويجيبكم الى هذا الأمر (يعنى الدخول فى الاسلام) » فأجابه خالد « منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا ، شريفنا ووضيعنا ، وأولنا وآخرنا » ، فعاد يسأل « هل لمن دخل فيكم اليوم ياخالد مثل مالكم من الأجر والذخر ؟ » فأجابه « نعم وأفضل » ، فعـــاد يسأله « وكيف يساويكم وقد سبقتموه ؟ » فأجاب « انا دخلنا فى هذا الأمــر وبايعنا نبينا صلى الله عليه وهو حي بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتاب ويرينا الآيات ، حق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع ، وانكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج ، فمن دخل منكم فى هذا الأمر بحقيقة ونية كان أفضل منا » .. وأيقن الرجل صدق حديث خالد فأسلم وطلب منه أن يعلمه الاسلام فمال به خالد الى فسطاطه حيث وضأه وصلى معه ركعتين ، وخرج جرجة مع خالد يواجه الروم وأبلى أحسن البلاء حتى أصيب .

ولعل ايمان خالد هو الذى جعله يتقبل وهو فى أوج انتصاراته أمر عمر ابن الخطاب بعزله من قيادة الجيش الاسلامى الذى يحارب الروم وكان خالد ساعتئذ فى موقف قوى يغرى بالمعارضـــة وبالوقوف فى وجـــه أمير المؤمنين ، فيرفض أمره ويفرض رأيه ، ولكن ايمانه كان أساس فكره وعقله وقلبه ، لهذا لم يفكر فى شىء يمس به هذا الايمان أو يضره به ، أو ينقص منه ، واســـتجاب خالد لأمر العزل دون غضب وبنفس راضية ، وقبل بعد أن كان قائداً للمسلمين أن يعمل جندياً تحت امرة أبى عبيدة ... مثل حى لايمان صادق لرجل يحس أنه يجب أن يؤدى واجبه فى أى موقع ، لا فرق بين موقع القائد وموقع الجندى .. أبلغ خالد بأمر العزل ومعركة اليرموك على أشدها فأخفاه حتى انتهت المعركة، ثم أعلن الأمر على الناس ، وترك مكان القيادة وعمل كجندى ، وحارب تحت امرة أبى عبيدة فى دمشق وفحل وحمص وقنسرين ، وكان فى كل المعارك خير جندى يأتمر بأوامر قائده ويبذل غاية جهده ويســـعى ســـعى المؤمن ابتغـــاء نصر الله .

ســـيف الله المســلول

سمى خالد بن الوليد « سيف الله المسلول » .

روى الترمذى عن أبى هريرة قال : « نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلا فجعل الناس يمرون ، فيقول رسول الله صلى الله علية وسلم : من هذا ؟ فأقول : فلان ، حتى مر خالد بن الوليد ، فقال : من هذا ؟ قلت : خالد بن الوليد ، قال : نعم عبد الله هذا سيف من سيوف الله » .

وروى عبد الله بن أبى أوفى فى الاستيعاب « اشـــتكى عبد الرحمن بن عوف خالد بن الوليد للنبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا خالد لم تؤذى رجلا من أهل بدر ، لو أنفقت مثل أحد ذهبا لم تدرك عمله ؟ : قال : يا رسول الله انهم يقعون بى فأرد عليهم ، فقال النبى : لا تؤذوا خالداً فانه سيف من سيوف الله صبه الله على الكفار » .

وروى عن ابن عباس أنه قال : « وقع بين خالد بن الوليد وعمار بن ياسر كلام فقال عمار : لقد هممت ألا أكلمك أبدا ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليـــه وسلم فقال : يا خالد مالك ولعمار ، رجل من أهل الجنة وقد شهد بدرا ، وقال لعمار : ان خالداً ياعمار سيف من سيوف الله سله على الكافرين » .

وفى الاصابة « لمـــا عقد أبو بكر لخالد على قتال أهل الردة قال : انما

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : نعم عبد الله وأخو العشيرة خالد بن الوليد ، سيف من سيوف الله سله الله على الكافرين » ..

وروى الامام أحمد أن عمر استعمل أبا عبيدة على الشام وعزل خالداً فقال خالد « بعث عليكم أمين هذه الأمة » ، فقال أبو عبيدة « سمعت رسول الله يقول : خالد سيف من سيوف الله ، نعم فتى العشيرة » .

وفى خلال معركة اليرموك خرج رجل من صفوف الروم يسمى جرجة كان يتولى قيادة أحد جيوشهم ونادى « ليخرج الى خالد » ، فخرج اليه وأقام أبا عبيدة مكانه ، (أشرنا فى ص ١٠٦ الى قصة اسلامه) فسأله جرجة « ياخالد ، أصدقنى ولا تكذبنى ، فان الحر لا يكذب ، ولا تخادعنى فان الكريم لا يخادع المسترسل ، بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم الا هزمتهم ؟ » ، قال خالد « لا » فعاد يسأله « فيم سميت سيف الله ؟ » ، فأجابه : « ان الله عز وجل بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً ثم ان بعضنا صدقه وتابعه ، وبعضنا باعده وكذبه ، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله ، ثم ان الله أخذ بقلوبنا فهدانا به فتابعناه ، فقال : أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين » ، وقال جرجة معلقا « صدقتنى » ..

حقاً كان خالد بن الوليد سيفاً من سيوف الاسلام .

سله الله على الكافرين والمشركين فى حروب الردة فقضى على المرتدين وأخمد نيران الفتنة ، وأعاد الناس سيرتهم الأولى وجعل الاسلام دين الجزيرة كلها تدين به قبائلها جميعا ..

وسله الله على أهل فارس فأطاح فيهم ضرباً وقتلا حين رفضوا الاسلام ثم الجزية ، وقبلوا أن يواجهوا الاسلام ويقاتلوا رجاله فكانت معارك خالد المتعددة المتتالية فوق أرض فارس وكانت انتصارته الرائعة فى المذار ، والولجة ، والیس وأمغيشيا ، والحيرة والفلاليج ، والأنبار ، وعين التمر ، ودومة الجندل وخنافس والحصير وغيرها .

وسله الله على أهل الشام فكان قوة الاسلام هناك ، واجه الروم فى قوة وعنف ، وحمل اليهم الهزيمة المرة والضربة القاصمة فى اليرموك ، فلم تقم لهم بعدها قائمة ، ولم تعد لهم قوة يواجهون جيوش المسلمين المتقدمة الى دمشق وفحل وحمص .

كان خالد بن الوليد سيفاً من سيوف الله ، ظل حياته محارباً فى سبيل ما آمن به حتى احتل مكان الصدارة بين القادة العسكريين ، وأصبح اسـمه فى تاريخ الحرب عنواناً للشجاعة النادرة والمهارة الفائقة والكفاءة العظيمة والفهم السليم والايمان العميق والقدرة على قيادة الجند وخوض المعارك فى حكمة وقوة ..

خالـد وروميل

عاصر الناس فى العصر الحديث حرب الصحراء الغربية التى دارت بين قوات الحلفاء وقوات المحور فى الفترة من سبتمبر ١٩٤٠ حتى أبريل ١٩٤٣ ، وعاشوا أحداثها وأثارتهم تطوراتها ، وأصبح اسم القائد الألمـانى الجنرال أروين روميل على لسان كل من عاش أحداث هذه الفترة ، وذكره الناس قائدا محنكا بارعاً عظيماً فى التخطيط والمراوغة والتقدم والانسحاب والمواجهة .

وأطلق المؤرخون عليه اسم ثعلب الصحراء لأنه — وقد دارت المعـارك كلها فى منطقة صحراوية — استطاع أن يعبث بالجيش الثامن البريطانى .. كان يتقدم الى مواقع الجيش الثامن فيكيل له الضربات ، ثم يفر من أمامه دون أن ينال منه الجيش الثامن ، كان قديراً فى المراوغة والمحاورة والكر والفر ، وارتفع اسمه عندما استطاع أن ينسحب بجيشه من العلمين ثم من الجبهـة الأفريقية دون أن تقع به خسارة ما ، وتردد اسـمه فى مجـالات متعددة فى الصحافة .. فى المؤلفات .. فى كل المجالات .. كنجم من نجوم الحرب وكبطل من أبطالها وكفارس كانت له صولات ناجحة نالت التقدير والاعجاب .

ومن عجب أن هناك شبهاً كبيراً بين خالد وروميل كقائد من قادة حـرب الصـحراء .

فروميل لمع كنجم وسط الظلام عندما بدأت الحرب العالمية الثانية ، وكلما دارت عجلة الحرب دوى اسمه ، حتى انه لما بلغت الحرب ذروتها كان قد أصبح أشهر من أنجبتهم من القادة .

وخالد هو الآخر لمع كنجم منذ بدأت الحرب بين الرسول وقريش فلمـا أسلم وتعددت المعارك بين الجانبين ، ثم بين العرب والفرس ، ثم بينهم وبين الروم دوى اسمه وأصبح من أعظم القادة الذين شهدتهم ميادين القتال .

وروميل رغم تميزه عن غيره من القادة العظام الذين ظهروا خلال الحرب العالمية الثانية وكانوا من أبطالها (ويفل — دي جول — مونتجمرى — شيانج

كاى شتيك — ايزنهاور — تيمو شنكو) ، فانه اختفى من المسرح العسكرى فجأة وان ظل خالداً فى تاريخ هذه الحرب .

وكذلك كان خالد بن الوليد فرغم تميزه عن القادة العرب الميامين الذين برزوا خلال الحروب الاسلامية فى داخل الجزيرة أو خارجها ، وكانوا أبطال المعارك وآسادها ، فانه اختفى من المسرح العسكرى ، وظل يعيش بعيداً عن ارض المعارك ، وان بقى اسمه علماً من أعلام الحرب وبطلا مغواراً من أبطالها.

وروميل كان ذا قدرة على المبادأة والمناورة ، وذا قدرة عجيبة على استخدام الأرض ، وكان سر نجاحه فى كافة معاركه أنه كان يعلم عن عدوه أكثر مما يعلمه العدو عنه ، وكانت المفاجأة والخديعة عاملين لا يفارقان نظره عند وضعه أية خطة ، وكان يجتهد فى اخفاء نواياه الحقيقية عن العدو ، بينما يتحسس نقط الضعف فى خطوطه ، ويبنى خطته على أساس هذا الضعف .

وكذلك كان خالد بن الوليد .. الصورة واحدة ... الفكر متشابه ... التخطيط لا يختلف ... كان خالد قادراً على استخدام الأرض استخداماً يفيده فى المعركة بقدر ما يضر عدوه .. وكان يهتم بجمع المعلومات بالقدر الذى يعين فى وضع الخطة .. وكان قادراً على خداع العدو ومفاجأته ... وكان مجيداً فى اخفاء تحركاته ونواياه عن عدوه ... وكان بارعاً فى تلمس نقط الضعف فى مواقع عدوه ، وكانت هذه النقط هى دائماً مفتاح النصر له ..

ورغم هذا التشابه الكبير بين الاثنين رغم اختلاف الفترة الزمنية بين ظهور كل منهما ، فان روميل وصل الى هذه المرتبة من الكفاءة والقدرة بعد دراسة لفن الحرب فى الكلية العسكرية ، وبعد أن قرأ المعارك ، وتتلمذ على أيدى قادة آخرين ، ومارس فن الحرب منذ بدأ حياته ضابطا صغيرا بالجيش.. وهذا ما لم يتوفر لخالد بن الوليد .. ومن هنا يتميز خالد ويبرز نبوغه الذى يؤهله لأن يكون فى مقدمة القادة العسكريين جميعاً ..

ورغم هذا التشابه الكبير بين الاثنين فان الناس يعرفون عن روميل اكثر مما يعرفون عن خالد .. ولهذا فها نحن أولاء نقدم فى هذه الدراسة مثلا حياً لاحدى معارك خالد فى الصحراء وهى معركة مؤتة ... وهذه المعركة تؤكد فى صدق عظمة خالد العسكرية ، وتعطينا بأحداثها صورة واضحة لما كان يتميز به كرجل حرب لا يبارى ، وتعزز وجهة النظر التى تقول أن خالداً قد ارتفع بمكانته كقائد عسكرى الى رتبة تفوق رتبة روميل الذى أصبح بعد أن

تحمل القتال فى الصحراء عامين متتاليين اسـطورة ونموذجا .. ونحن بذلك لا نكون مبالغين اذا أكدنا ثقل خالد من وجهة نظر الفكر العسكرى التقدمى .

* * *

حارب روميل الجيش الثامن البريطانى فى بلاد صحراوية (الصحراء الغربية فى شمال أفريقيا) ، بعيداً عن بلده ... وحارب خالد الروم فى منطقة صحراوية (فى محلة مؤتة على الحدود الشمالية للجزيرة العربية وعلى مشارف بلاد الشام) بعيدة عن بلده .

ونجح روميل فى محاورة عدوه وتضليله ، وكذلك نجح خالد .

وانسحب روميل بقواته دون أن تناله خسارة ما ، وكذلك فعل خالد .

والشىء الذى يثير الاهتمام أن ما فعله خالد سبق ما فعله روميل بأكثر من الف عام .. وهنا تبرز عبقرية خالد ويظهر نبوغه .

ولنوضح الأمر ...

بعث رسول الله الحارث بن عمير الأزدى الى ملك بصرى من جهة هرقل يدعوه الى الاسلام ، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى ، وسأله « لعلك من رسل محمد ؟ » ، فأجابه « نعم » ، فأمر به فأوثق ثم ضرب عنقه .

غضب رسول الله واشتد الأمر عليه ، فندب الناس للجهاد وارهاب العدو ، فاجتمعت ثلاثة آلاف بالجرف — وهو مكان على بعد ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام — وقال رسول الله « أمير الناس زيد بن حارثة ، فان قتل فجعفر بن أبى طالب ، فان قتل فعبد الله بن رواحة ، فان قتل فليرتض المسلمون رجلا منهم يجعلونه أميراً عليهم » .

خرج رسول الله مشيعاً لهم حتي ثنية الوداع ، وقال لهم مودعا « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا ... اغزوا باسم الله ، فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام » ... وودعهم الناس وقالوا لهم « صحبكم الله ، ودفع عنكم ، وردكم الينا صالحين .. » .

وكان خالد جندياً فى هذا الجيش ، حمل سلاحه وخرج مجاهداً فى سبيل الله كغيره من المهاجرين والأنصار .

وتحرك الجيش حتي معان ، وخرج الروم في جموع كثيفة

والتقى الجمعان فى مؤتة .

كان الجيش الاسلامى ثلاثة آلاف .

وكان جيش الروم مائتى الف ، ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين .

وتردد المسلمون قليلا وتساءلوا « نكتب لرسول الله فنخبره ، فاما أن يمدنا بالرجال ، واما ان يأمرنا بأمر فنمضى له » ، ولكن عبد الله بن رواحة انهى الموقف قائلا « ياقوم والله ان الذى تكرهون للذى خرجتم له ، خرجتم تطلبون الشهادة ، ونحن ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، وما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى اكرمنا الله به ، فانطلقوا ، فانما هى احدى الحسنيين .. اما ظهور واما شهادة » ... وقال الناس « صدق والله ابن رواحة » ، ومضوا الى عدوهم ، ايمانهم فى قلوبهم ، وعزمهم فى سواعدهم ...

ودار القتال ، وقتل زيد بعد أن أدى واجبه احسن ما يكون الأداء ، ثم قتل من بعده جعفر الذى قطعت يده اليمنى فاخذ اللواء بيده اليسرى فقطعت فاحتضنه بعضديه وقاتل به ، ثم قتل عبد الله .

فى هذا الموقف العصيب كان المسلمون يواجهون قوات معادية تفوقهم عدداً وعدة ، بعد أن فقدوا قادتهم الثلاثة الواحد وراء الآخر ، بعد أن أعطى كل منهم مثلا فى البطولة والشجاعة والاستشهاد .

واصبح المسلمون فى حاجة الى قائد يسوس أمرهم وينظم صفوفهم ويخطط للمعركة ، وكان من العسير أن يستمر القتال وهم بدون قيادة ، فأسرع ثابت بن أقرم العجلانى وهو بدرى ، وأخذ الراية وتقدم بها مسرعا الى خالد قائلا « خذ اللواء أبا سليمان » ، فرفض خالد وقال : « لا .. لا آخذ اللواء .. انت أحق به .. لك سن وقد شهدت بدرا » .

فأعاد ثابت عليه القول « خذه فانت أدرى بالقتال منى ، ووالله ما اخذته الا لك » ... ثم سأل المسلمين « اترضون امرة خالد » ، فأجابوا جميعا « نعم » .

وتولى خالد القيادة ...

ولم يتردد رغم انه يتولاها فى لحظات حرجة وظروف سيئة ، فقد انكشف المسلمون ، ووقع القادة الثلاثة شهداء ، وكثر عدد الضحايا ..

تولى خالد قيادة جيش جناحه مهيض .. جيش فى قلة .. معنوياته منحطة .. كل الدلائل تشير الى تعرضه لنكسة مروعة .. وعدوه قادر كاسر كثير العدد والعدة ظافر منتصر .. ولم يكن هناك امل فى النصر .. ولكن كان الأمل الوحيد فى النجاة هو الخروج بالجيش سالما .. أى الانسحاب به الى الخلف بأقل خسارة ممكنة .. وهذا ما نسميه فى حروب اليوم بالانسحاب الوقائى ، حتى لا يصيب الجيش هلاك أو دمار على ارض المعركة ..

ولكـن :

كيف يكون الانسحاب والعدو أمامه متنمر قد أعجبته كثرته ، ومتحفز لنصر اكبر واعظم ؟ ؟

كيف استطاع خالد أن ينجو بالجيش من فناء اكيد ؟؟

الاجابة على السؤالين دليل واضح يؤكد عبقرية خالد العسكرية التى تدفع به الى ذات المستوى الذى وصل اليه روميل فى نظر الناس وفى نظر المؤرخين ، بل تدفع به الى مستوى أرقى وأرفع فى نظر الرجل العادل .. ذلك **لأن ظروف روميل كانت تفوق بكثير** ظروف خالد .. فالأول كان يقود جيشا تضى ثلاث سنوات تقريبا يواجه قوات الحلفاء وهزمها فى معارك متتالية ، وكانت معنويات الجيش مرتفعة وروحه عالية .. اما خالد فقد تولى قيادة جيش تلقى هزيمة مروعة ، وانكسرت حدة القتال عند رجاله وهم يرون قادتهم يقعون صرعى الواحد وراء الآخر ، واللواء ينتقل من يد الى يد ، فيلقى العنف والشدة والموت من كل جانب .. كان جيشا قد انهارت معنوياته وفقد قدرته على القتال ، واصبح فى موضع لا يبشر بخير ابدا ... هذا فى الوقت الذى كان فيه عدوه سعيدا بانتصاراته قويا بامداداته مطمئنا الى معنوياته .

ان الموقف الذى واجهه خالد كان فى حاجة الى الفكر الصائب لا الى السيف الصارم ، لأن الجيش الاسلامى كان لا طاقة له فى قلة عدده وكثرة جروحه بجيش اعدائه الكثيف .

كان الموقف فى حاجة الى فكر ثاقب ، وموهبة خاصة ، وتقدير سليم للموقف ، وتدبير محكم وبراعة تغنى عن السيف .

لهذا قرر خالد أن ينسحب بالجيش الى المدينة حفاظا على البقية الباقية منه ، وحفاظا على سمعة الاسلام والمسلمين ، وخوفا من ان تنهار روح القتال فيشد ذلك من أزر قريش واليهود والكافرين الذين يتربصون بالمسلمين ويرجون لهم الهزيمة والاندحار .

قاتل خالد الروم قتالا شديداً في اليوم الأول الذى تولى فيه القيادة حتى قيل ان تسعة اسياف اندقت فى يده « لقد اندقت فى يدى يوم مؤتة تسعة اسياف فما ثبت فى يدى الا صحيفة يمانية » .

ثم انتهز خالد فرصة الليل فغير نظام الجيش وجعل مقدمته ساقة وساقته مقدمة ، وكذلك فعل بالميمنة والميسرة .. قال الديار البكرى « وروى أن خالداً لما اصبح اخذ اللواء ، فبعد ما صفوا للقتال غير صفوف جيشه ، فجعل المقدمة مكان الساقة ، والساقة مكان المقدمة ، والميمنة مكان الميسرة ، والميسرة مكان الميمنة ، فوقع الكفار فى غلط فحسبوا أن لحق المسلمين مدد ، فوقع فى قلوبهم من ذلك الرعب فانهزموا » .

◆ ◆ ◆

ان الدارس لتاريخ مؤتة والعلمين يتبين له أن الانسحاب فى كلتا المعركتين كان يرجع الى اسباب واحدة ...

فكل من القائدين خالد وروميل احس بأن قواته قد اصابها الارهاق نتيجة المعركة الطاحنة التى خاضت غمارها .. وكلاهما احس بأنه عاجز عن أن يعوض الخسائر فى الرجال والعتاد .. وكلاهما أدرك سوء الموقف الادارى نتيجة لطول خطوط المواصلات وصعوبة الامداد بالرجال والعتاد ..

كل ذلك فى الوقت الذى كان فيه موقف العدو الادارى على درجة من الكفاءة لقصر خطوط مواصلاته ولامكانية وصول الامدادات اليه فى فترات قصيرة متعاقبة .

وانسحاب خالد من مؤته كان أول انسحاب من نوعه فى التاريخ ، فالجيوش قبل ذلك كانت تنسحب دون خطة أو تدبير ... بطريقة غير منظمة .. ينسحب كل فرد اعتماداً على نفسه وفكره ، وينتشر افراد الجيش هنا وهناك بحثاً عن ملجأ .. لاضابط ولا رابط ولا نظام ولا منظم لشئون الانسحاب ..

تم انسحاب المسلمين دون خسارة فى الأرواح .. فقد كان خالد خلال عمليات تغيير مواقع القوات يجرى عملية « تخفيف » ، وهى عملية عرفت فى الحرب الحديثة .. فقد كان جزء من القوات ينسحب الى الخلف خلال تغيير الموقع فيصل الى الموقع الجديد جزء بسيط بينما يكون الجزء الآخر قد اتجه الى الخلف ... وظلت عملية التخفيف حتى تم انسحاب القوات كلها .. وقيل ان عدد القتلى من المسلمين خلال مرحلة الانسحاب كان اثنى عشر فقط وهو

عدد تافه بالنسبة لخطورة العملية ، ولكنه دليل قاطع على سلامة التنفيذ ودقته وروعته .

واذا أراد المؤرخ المنصف أن يقيم انسحاب المسلمين من مؤتة لجعله أعظم عملية انسحاب تمت فى تاريخ الحروب كلها ...

الحرب البـــاردة

القت المقادير على عاتق ابى بكر حماية الدولة الاسلامية من الأخطار التى تعرضت لها بعد موت رسول الله .. فقد ظن كثيرون أن موت الرسول كان فرصة للانقضاض على الاسلام ، ورفع النفاق رأسه ، وأعلن بعض النـاس تمردهم وعصيانهم ، على حد قول الطبرى عن عروة بن الزبير « ... ونجم النفاق واشرابت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغنم فى الليلة المطيرة الشاتية لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم وقلتهم وكثرة عدوهم » .

ولم يكن العصيان فى مكان محـــدد ، ولكنه كان فى كل مكان حتى فى مكة والمدينــــة .

ارتد كثيرون ..

هم أهل مكة بالردة فخاطبهم سهيل بن عمرو وهددهم « ان ذلك لم يزد الاسلام الا قوة فمن رابنا ضربنا عنقه .. والله ليتمن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

وهمت ثقيف أن ترتد فقـــال لهم عثمان بن العاص « يا ابناء ثقيف كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من ارتد » .

نعم ارتد كثيرون ... وافترقت العرب فى ردتها ، قالت فئة « لو كان نبيا ما مات » وقال البعض « انقضت النبوة بموته ، فلا نطيع احدا بعده » .

ورفضت قبائل كثيرة أن تدفع الزكاة .. وقالت فى ذلك « نؤمن بالله ، ونشهد أن محمدا رسول الله ، ونصلى ، ولكن لا نعطيهم أموالنا » .

وظهـــر من ادعى النبوة كطليحـــة فى بنى أسد وسجـــاح فى بنى تميم ، ومسيلمة فى اليمامة ، وذى التاج لقيط بن مالك فى عمان ، والأســـود العنسى فى اليمـــن .

وكانت عاصفة عاتية شديدة عابسة تعرض لها الاسلام ...

ولكن ابا بكر خليفة رسول الله وصديقه ورفيقه تصدى لها ووقف في وجهها ... وكان له النصر ... فمرت العاصفة ، وبقى الاسلام شامخا راسخا قويا عزيزا .

وكانت الجولة الأولى مع مانعى الزكاة ..

وانقسم هؤلاء الى فرقتين ... هاجمهم ابو بكر فى الأبرق ، ثم فى ذى القصة ، وتغلب عليهم .. وكان رأيه فى ذلك « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فان الزكاة حق المال وقد قال الا بحقها » .. و .. « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » .
واسرع المسلمون من كل قبيلة يؤدون الزكاة اليه بعد انتصاره .

وكانت الجولة الثانية مع المرتدين ..

وحشد ابو بكر قواته للقضاء عليهم ، أو لاعادتهم الى الاسلام تائبين مستغفرين .. كتب اليهم يقول « قد بلغنى رجوع من رجع منكم عن دينه ، بعد ان أقر بالاسلام ، وعمل به اغترارا بالله عز وجل وجهالة لأمره ، واجابة للشيطان .. وانما قد انفذت اليكم فلانا فى جيش من المهاجرين والأنصار والتابعين باحسان ، وأمرته الا يقاتل أحدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله ، فمن استجاب واقر وكف وعمل صالحا قبل منه واعانه عليه ، ومن أبى ، ان يقاتله على ذلك ولا يبقى على احد منهم قدر عليه ، وأن يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة ، ويسبى النساء والذرارى ، ولا يقبل من أحد الا الاسلام » .

قسم ابو بكر قواته الى احد عشر لواء ، وجعل على كل لواء اميرا ، وكان كل لواء يتناسب فى عدده وامارته مع قوة القبائل التى سيلاقيها ، وعلى مدى الحاح هذه القبائل فى الردة .

وكان اول هذه الالوية بقيادة خالد بن الوليد .. كان امنع **الالوية** وأقواها ، به خيرة المقاتلين من المهاجرين والأنصار ، **وكانت مهمته قتال طليحة بن خويلد فى بنى اسد ، ثم قتال مالك بن نويرة زعيم بنى تميم ، ثم قتال مسيلمة فى بنى حنيفة .**

ثلاثة أهداف عظام تتناسب مع بطولة خالد ومكانته ، فقد عرفه أبو بكر

بطلا مقــداما وفارسا مغوارا ، ومداورا فى الحرب الهم اسرارها وعرف ادق أمورها ، وادرك أصولها وفنونها .

＊＊＊

كان أول لقاء ضد طليحة .

وبدت عبقرية خالد العسكرية فى قتاله له .. رأى أن انســلاخ بعض القبــائل التى انضــمت الى طليحة عنــه يضعف قواته ويفت فى عضــده ، فبعث بعدى بن حاتم الطائى الى قومه يدعوهم ليرجعوا الى الاسلام فقالوا له « لا نتبع أبا الفصيل أبدا » ، فقال لهم « لقد اتاكم قوم ليبيحن حريمكم ، ولتكننه بالفحــل الأكبر فشأنكم به » ... وحدثهم عن قوة خالد وعن مســيرته اليهم بما أفزعهم وروعهم ، ورأوا أن عديا على حق فقــالوا له « اســتقبل الجيش فنهنهه عنا حتى نستخرج من لحق بالبزاخة منا ، فانا ان خالفنا طليحة وهم فى يديه قتلهم وارتهنهم » ، وطلب عدى من خالد « يا خالد أمسك عنى ثلاثا يجتمع لك خمسمائة مقاتل لتضرب بهم عدوك » .. وانفصــل رجال بنى طيىء عن طليحــــة .

ثم توجه عدى بعد ذلك الى جديلة وقال لخالد « ان طيئا كطــائر ، وان جديلة أحد جناحى طيىء ، فأجلنى أياما لعــل الله أن ينقذ جديلة كما انقــذ الغوث » .. ونجح عدى فى انسلاخ جديلة عن طليحة وانضمامهم الى خالد فى الف راكب .. وســعد المسلمون بنجــاحه فى مهمته حتى أن أحد الشــعراء عبر عن ذلك فقال :

جزى الله عنــا طيئا فى بلادها ومعتــرك الأبطــال خير جزاء

هم أهل رايات السماحة والندى اذا ما الصبا الوت بكل خناء

هم ضربوا بعثا على الدين بعدما اجابوا منــادى فتنــة وعماء

وقاتل خالد طليحة فى البزاخة قتالا شديدا ، وفر أصحاب طليحة فتبعهم المسلمون — وخالد فى المقدمة — يقتلونهم ويأسرونهم ووقع فى الأسر عيينة بن حصن الفزارى قائد قوات طليحة .

وانكشف عن طليحة شيطانه وراى ما حل بأصحابه ، فأعد فرسه وحمل وراءه امرأته ثم فر من المعــركة بعــد أن خاطب قومه « يا معشر فزارة ، من استطاع أن يفعــل هكذا ، وينجو بامرأته فليفعــل » ، وأقبــل بنــو سليم وعامر وهوازن قائلين « ندخــل فيما خرجنا منــه ، ونؤمن بالله ورســوله ، ونسلم لحكمه فى أموالنا وأنفسنا » .

قال عبد الله بن عمر وكان فى جند خالد « نظرت الى راية طليحة يومئـذ حمراء يحملها رجل لا يزول بها فترا ، فنظرت الى خالد أتاه فحل عليه فقتـله ، فكانت هزيمتهم ، فنظرت الى الراية تطؤها الخيل والابل والرجال ، ولقد رأيت خالدا يوم طليحة يباشر القتال بنفسه حتى ليم فى ذلك » .

* * *

ثم كانت الجولة الثانية ضد مالك بن نويرة

وسار خالد للقائه فى البطاح ، فما أن سمع مالك بدنو جيوش المسلمين واقترابهـا حتى فرق قومه ومنـع اجتماعهم قائلا « يا بنى يربوع ، انا كنا قد عصينا أمراءنا اذ دعونا الى هذا الأمر ، وبطأنا الناس عنهم فلم نفلح ولم ننجح وانى قد نظرت الى الناس فاياكم ومناوأة قوم قد صنع لهم » ثم نصحهم « تفرقوا الى دياركم وادخلوا فى هذا الأمر » .

ووصل خالد فلم يجد احدا فبث جنده وامرهم ان يأتوه بكل من لم يجب داعية الاسلام ، فان امتنع قتلوه .

وجاء الجند بمالك بن نويرة فى نفر من بنى يربوع الى خالد ، فأمر ضرار ابن الأزور بقتـله ... روى ابن خلكان : قال مالك « انى آتى الصـلاة دون الزكاة » ، فقال له خالد « أما علمت أن الصلاة والزكاة معا لا تقبـل واحدة دون أخرى » ، فقال مالك « فقد كان صاحبك يقول ذلك » ، فقـال له خالد « أو ما تراه لك صاحبا » ثم أردف « والله لأقتلنك » .

* * *

وكان قتال مسيلمة الكذاب آخر المطاف مع المرتدين

ومسيلمة كان قد ادّعى النبوة فى عهد رسول الله ، وكان لبقا فاستطاع أن يقنع بعض الناس فآمنوا به ، ونجح فى استمالة نهار الرجال ، الذى بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم اليه ، وكان قد أسلم وتفقه وحفظ القرآن.

وقوى شأن مسيلمة واستطاع أن يهزم جيشا يقوده عكرمة بن أبى جهل سيره أبو بكر اليـه ، كما اسـتطاع أن يهزم جيشا آخر كان يقوده شرحبيل ابن حسنة .

وبعث أبو بكر الى خالد « ان أظفرك الله بأهل اليمامة فاياك والابقـاء عليهم .. أجهز على جريحهم ، واطلب مدبرهم ، واحمل أسيرهم على السيف ، وهول فيهم القتل ، وأحرقهم بالنار ، واياك أن تخالف أمرنا » .

وتحرك خالد على رأس جيش من صناديد المسلمين مهاجرين وانصارا ، فيهم أبو حذيفة بن اليمان وزيد بن الخطاب وثابت بن قيس والبراء بن مالك ، وانضمت اليه قوات أخرى اسلامية أمده بها أبو بكر بقيادة سليط بن قيس الأنصارى من بنى النجار ، فأسند اليه خالد مهمة حماية مؤخرة قواته ، واتفق خالد مع بعض القبائل لتحمى له ظهره .

وخرج مسيامة فى أربعين الفا ، واتخذ له معسكرا فى عقرباء ، وجعل على جانبيه محكم اليمامة ونهار الرجال ، وكان ابنه يثير نفسية المقاتلين فيقول لهم « يا بنى حنيفة اليوم يوم الغيرة ، ان هزمتم تستردف النساء سبيات وينكحن غير حظيات ، فقاتلوا على أحسابكم ، وامنعوا نساءكم » .

ورأى خالد أن يكسر شوكة مسيلمة ، وأن يجعله يهزم نفسه قبل أن يلقاه ، وأن يحطم معنوياته ، وأن يبعد عنه حلفاءه الذين انضموا اليه ، واستخدم أسلوبا جديدا فى الحرب وهو ما يطلق عليه اسم الحرب الباردة .

فدعا أحد سادات أهل اليمامة وهو عمير بن صالح اليشكرى — وكان قد أسلم وكتم ذلك عن أهله ، وكان راسخ الايمان قوى العقيدة — وقال له «تقدم الى قومك فاكسرهم » .. وجاءهم عمير « يا معشر أهل اليمامة ، أظلكم خالد فى المهاجرين والأنصار ، تركت القوم يتتابعون الى فتح اليمامة ، وقد قضوا وطرا من أسد وغطفان ، وأنتم من أكفهم ، وقولهم لا قوة الا بالله ، انما رأيت قوما ان غلبتموهم بالصبر غلبوكم بالنصر ، وان غلبتموهم بالعدد غلبوكم بالمدد، ولستم والقوم سواء ، الاسلام مقبل ، والشرك مدبر ، صاحبهم نبى وصاحبكم كذاب ، ومعهم السرور ومعكم الغرور ، فالآن والسيف فى غمده ، والنبل من جفيره ، قبل أن يسل السيف ويرمى بالسهم ، سرت اليكم مع القوم عشرا » .

وبذلت محاولة أخرى فى مجال حرب الأعصاب قام بها ثمامة بن أثال الحنفى من أشراف بنى حنيفة ، فخاطب الرجل قومه وقال « يا أهل اليمامة ، اسمعوا منى وأطيعوا أمرى ترشدوا ، انه لا يجتمع نبيان بأمر واحد ، ان محمدا صلى الله عليه وسلم لا نبى بعده ، ولا نبى مرسل معه ... لقد بعث اليكم رجل لا يسمى باسمه ولا باسم أبيه يقال له سيف الله ، معه سيوف الله كثيرة ، فانظروا فى أمركم » .

وبذلت محاولة ثالثة أيضا فى مجال حرب الأعصاب بقصد تحطيم أعصاب القوم وارهابهم واضعاف روح القتال عندهم ، فقد أرسل خالد زياد بن بياضة الأنصارى الى محكم بن طفيل « يا زياد لو ألقيت الى محكم شيئا تكسره به فانه

سيد أهل اليمامة » ، فأنشد زياد شعرا خاطب به محكم بن طفيل جاء فيه :

يا محكم بن طفيـل انكم نفـر	كالشاء أسلمها الراعى لآساد
ما فى مسيلمة الكذاب من عوض	من دار قوم واخـوان وأولاد
فاكفف حنيفة يوما قبل نائحــة	تنعى فوارس شاج شجوها باد
لا تأمنوا خالدا بالبرد معتجرا	تحت العجاجة مثل الأغضف العادى
ويل اليمـــامة ويلا لا فراق له	ان جالت الخيل فيها بالقنا الصادى
والله لا تنثنى عنــكم أعنتهــا	حتى تكونوا كأهل الحجر أو عاد

بدأ القتال قويا عنيفا لم يسبق له مثيل ، وانهزم المسلمون فى أول الأمر حتى أن بنى حنيفة دخلوا فسطاط خالد ، ولكن المســـلمين صمدوا فى كفاحهم وخاطبهم خالد « امتازوا لنعلم بلاء كل حى ولنعلم من أين نؤتى »

قال عكرمة بن أبى جهل « حملت بنو حنيفـــة ، أول مرة كانت لها الحملة وخالد على سريره ، حتى خلص اليه فجرد سيفه وجعل يسوق بنى حنيفة سوقا حتى ردهم وقتل منهم قتلى كثيرة ، ثم كرت بنو حنيفة حتى انتهوا الى فسطاط خالد فجعلوا يضربون الفسطاط بالسيوف » .

وهاجم المسلمون وكلهم حماس ورغبة فى نصر أو استشهاد .. قال ثابت ابن قيس « بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين ... اللهم انى أبرأ اليـك مما يعبــد هؤلاء (واشار الى أهل اليمامة) ، وأبرأ اليـك مما يصــنع هؤلاء (واشار الى المســـلمين) » ثم اندفع يقـــاتل حتى قتـــل ... وقال البراء بن مالك « ... أين يا معشر المسلمين .... أين .... أنا البراء ... هلموا الى »، وقال زيد بن الخطاب « والله لا أتكلم اليوم حتى نهزمهم أو ألقى الله فأكلمـــه بحجتى .. غضـــوا ابصاركم وعضوا على أضراسكم أيهـــا الناس واضربوا عدوكم وامضوا قدما » .. وقال أبو حذيفة « يا أهل القرآن زينوا القـــرآن بالفعـــال » ..

ورأى خالد أن قتل مسيلمة هو العامل الأول فى القضـــاء على معنويات رجاله ، فأخذ يرقبـــه حتى دنا منـــه فهاجمه ، وفر مســـيلمة فصـــاح خالد « وامحمداه » ، فركب المسلمون المشركين وطاردوهم ، وصاح محكم بن طفيل فى الفارين « يا بنى حنيفة .. الحديقة .. الحديقة » ، فاتجهوا جميعـــا الى حديقة لمسيلمة فسيحة الأرجاء منيعة الجدران ، وتحصنوا داخلها ، فأمر خالد بحصارهم ، ولكن البراء صرخ فى قومه « احملونى على الجدار حتى تطرحونى

عليه » ، فلما وضعوه على الحائط اقتحم عليهم وحاربهم على الباب ، واقتحم خالد مع رجاله والتحم مع العـدو وقتل منهم كثيرين كان فى مقدمتهم مسيلمة ، قتله وحشى الحبشى ، وقال فى ذلك « قتلت خير النـاس (يقصـد حمزة بن عبد المطلب فى احد) وانا على جاهليتى ، وشر الناس (يقصـد مسيلمة) وانا على الاسـلام » .

وكان مقتل مسيلمة بداية لنهاية هذه المعركة القاسية ، فلم يكد يسرى نبأ قتله فى قومه حتى انفرط عقـدهم وانحلت عزائمهم وضـاع الأمل ووهنوا أمام المسلمين فتفرق من بقى منهم الى الحصون ، وطلب مجاعة بن مرارة من خالد الصلح ، فأجابه خالد اليه .

وانتهى القتال .. قتل من المسلمين الف ومائتا شهيد ، ومن بنى حنيفة اربعة عشر الفا ، اى ان نسبة الشهداء المسلمين الى قتلى المشركين تعـادل ستة فى المائة ، وهذا دليـل على أن النصر الذى حققـه خالد كان من أروع الانتصارات واعظمها .

ونظرة على أحداث المعركة بين جند الاسلام من مهاجرين وانصار صادقى العزم والايمان وبين بنى حنيفـة ، توضح لنا كيف أدار خالد المعركة برجولة وبطولة .. لم يجبن أو يخف ، رغم أن لقاءه مع بنى حنيفة كان ثالث لقـاء مع أعداء الاسـلام ، لقاء وراء لقاء ، فقد انتهى من طليحة ليقاتل مالكا ، ثم انتهى منه ليقاتل مسيلمة ، جهد متصل مشكور بذله خالد رغبـة فى القضاء على مدعى النبوة ، وفى الحفاظ على الاسلام ، وفى الابقـاء على كيانه ووجوده .. من أجل هذا أشعل النفوس حماسا ومضاء وعزما « امتازوا لنرى اليـوم بلاء كل حى » ، وامتازوا جميعا ، وكان خالد خلال المعركة يهلل ويكبر ويسـمعه الجند فتتحول سيوفهم الى مقادير لا راد لها ولا معوق ، وحلت روحـه فى جيشه كله .

ونجـح خالد وانتصر ، وطوى تحت التراب وفى باطن الأرض مسـيلمة الدعى الكذاب .

* * *

ولنـا هنا وقفـة صغيرة ...

انتصر خالد على قوات طليحة ومالك ومسيلمة بعـد أن استخدم سلاحا جديدا لم يكن معروفا من قبل ، **هو سلاح حرب الأعصاب او الحرب الباردة ،**

وهو يعنى تحطيم معنويات العدو ثم محاولة اضعافه بفض محالفاته مع الآخرين.

هذا أسلوب مستحدث فى الحرب ، فقد أصبحت الحرب الباردة اليوم من أخطر الأسلحة التى تستخدمها الدول فى تحطيم معنويات أعدائهـا ، كما أن الدول فى العصر الحديث تحاول دائما أن تشكل الأحلاف ، وأن تجمع دولا أخرى معها حتى يبقى العدو وحده فى الميدان ، فاذا ما حاول العدو أن يشكل حلفا سعت الدول الى تعطيل قيامه بكل الوسائل الممكنة .

اذن فأسلوب خالد فى محاربة الردة أسلوب جديد مستحدث تستخدمه الجيوش الحديثة ، ولعل الحرب الباردة التى يعانى منها العالم فى هذه الآونة ، ولعل كذلك فكرة الأحلاف العسكرية التى تسيطر على سياسة الدول تعطى الدليل القاطع والبرهان الساطع على تميز عقلية **خالد** التى سبقت فى التفكير والتقدير والتنفيذ كل الاتجاهات العسكرية الحديثة .

* * *

ان فكر خالد الحربى قد التقى مع افكار ثلاثة من العسكريين فى العصر الحديث .

فالمفكر العسكرى الصينى **سن تزو** يقول « ان أعظم المهارة هى تحطيم مقاومة العدو دون قتال » ، **وهذا هو ما حدث مع مالك .**

ويقول **لينين** « ان أصلح استراتيجية للحرب الحديثة هى أن تؤجل العمليات الحربية حتى يهيىء تحلل القوى المعنوية للعدو الى الضربة القاضية بسهولة ويسر » ، **وهذا هو ما حدث مع طليحة .**

ويقول **روشتنج** « ان استراتيجيتنا هى أن ندفع العدو الى تحطيم نفسه أو نهزمه عن طريق نفسه » ، **وهذا هو ما حدث مع مسيلمة .**

لا يشك انسان بعد هذا الاستعراض فى أن خالد بن الوليد كان يتميز بعقلية عسكرية مفكرة متطورة سبقت عصره وفاقت غيره .

* * *

نهـــــر الـــدم

كانت لخالد جولات كثيرة فى بلاد الفرس بدأت بكاظمة وانتهت بالفراض .

كان خالد خلال كل المعـــارك هو قائد جيش المســلمين ، بينما تغيرت القيادات وتبدلت عقب كل معركة عند الجانب الآخر .

ورغم أن كل قائد كان له اسلوبه الخاص فى مواجهة عدوه ، فان خالد ابن الوليد قابل عددا من قادة الفرس فى مواقع مختلفـــة وبأساليب مختلفـــة واستطاع أن يقهرهم جميعا ، وأن ينتصر فى كل معاركه ، وأن يكون منهجـــه هو المنهج المميز فى كل المواقع

كان العرب قبـــل غزو خالد للعراق ينظرون الى الفرس نظرة اجـــلال وتهيب ، بينما كان الآخرون ينظرون الى العرب باحتقار لا مثيل له .

وكانت مسيرة خالد الى العراق بدء ظهور الدولة الاسلامية واحلالهـــا المكانة اللائقة بها بين الأمم الكبيرة فى هذا العصر ، وكانت أيضا ايذانا بانتهاء سلطان الأكاسرة .

وكان أسلوب خالد فى الحرب عظيما رائعا يتفق مع عظمتـــه العسكرية وينبع من ابداعه الحربى ..

كان خالد حكيما فى غزوه لأرض فارس ، فكان اذا فتـــح بلدا لا يجوزها الى أخرى قبـــل أن يستتب الأمر بها ويســـودها الأمن والنظام والســـلام .

وكانت حرب العراق فرصـــة تعليمية وتدريبية لقوات المسلمين ، فقـــد واجهت أعداءها فى خمس عشرة موقعة ... التقت فيها بجيوش تفوقها عددا وعدة ، وخبرة وقدرات وامكانيات ، وعلم بفن الحرب ، ودراســـة لأساليب القتال ، فتعلمت منها كل جديد ، وأخذت منها كل مستحدث .

ولم يهزم خالد فى معركة واحدة من المعارك المتعددة التى خاض غمارها فوق أرض العراق ، حتى أن أبا بكر وقد بلغته انتصاراته المظفرة قال لقومه « يا معشر قريش ... عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله...أعجزت النساء أن ينشـــئن مثل خالد ؟ » .

لم يكد خالد يفرغ من نصر يتوج به هامات المســلمين الا ليستقبله نصر

جديد أعظم وأروع ... وكان الفرس فى ذات الوقت لا يفيقــون من هزيمة الا ليتلقوا هزيمة أخرى اشد واوجع .

وكان خالد على راس جيش من المؤمنين الصــابرين الراغبين فى الموت الباحثين عن الجنة المشتاقين الى لقاء ربهم .. وصفهم خالد فى قوله لأهل العراق « قد والله أتيتكم بقوم هم على المــوت أحرص منكم على الحياة » ... وقال يصفهم لمرازبة العراق « لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر » .

وكان خالد يحارب قوما لا رابطة بينهم ولا ايمان فى قلوبهم ولا عقيــدة عندهم .. اختلفوا على السلطة والعرش والصولجان .. نشروا الظلم والفساد فكرهتهم الجماهير .. وصفهم خالد فى كتاب له بعث به الى ملوكهم « الحمــد لله الذى حل نظامكم ، ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ... » واعاد خالد وصفهم فى كتاب آخر قال فيه « الحمد لله الذى فض خدمتكم ، وفرق جمعكم ، وأوهن بأسكم ، وسلب أموالكم ، وأزال عزكم ... »

وكان خالد يثير حماسة جنده بوسائل متعــددة ايمانا منه بأن المعــركة لا تكسب الا بالرجال ... فهم عمــاد المعركة وهم وقودها وهم وحدهم الذين يقررون نهايتها ، فاما نصر عزيز واما هزيمة نكراء .. من أجل هذا ومن خلال هذا المعنى وفى ضوئه اهتم خالد بحياة الجند ومعنوياتهم .. وعلى سبيل المثال كان هرمز قد سبقه ونزل على ماء فى كاظمة واضطر خالد الى النزول على غير ماء ، وحدثه فى ذلك بعض أصحابه فقــال « حطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء ، فلعمرى ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين » ، ولما كان الماء من الزم الأمور بالنسبة للمقاتلين ، ولمــا كان الحرمان منــه يضر ضررا بالغا بالمحاربين ، فان قول خالد قد أثار حماس الجند فاستمدوا من ايمانهم قوة ، ومن يقينهم عدة ، ومن أرواحهم أسلحة ، ومن روح قائدهم عزيمة ، وجالدوا على الماء حتى انتزعوه فكانوا بذلك أصبر الفريقين وأكرم الجندين .

وتميزت مواقع خالد بالخطط الحربية التى كان يخوض على اساسها غمار المعــركة ...

ففى موقعة الولجة مثلا اعد الفرس جيشا كثيفا بقيادة الأندرزغر ، سار حتى أتى كســكر (بين البصرة والكوفة) ثم جاوزها الى الولجــة ، وخرج وراءه بهمن جاذويه فى جيش كبير ، واتخذ طريقا آخر فسلك وسط السواد ، وكان خالد فى هذا الوقت فى المذار ، فسار بجيشه الى الولجة ، واحس بالتفوق

العددى والمادى فى جانب عدوه ، فقدر موقفه ، ووضع خطة اللقاء على اساس أن يقسم جيشه الى ثلاث فرق .. تتقدم الفرقة الأولى بقيادته لملاقاة العدو ، وتبقى الفرقتان بقيادة يسر بن أبى رهم وسعيد بن مرة كمينا لا يشترك فى القتال الا بعد أن يكون القتال قد نشب فعلا ، وتحملت منه قوات الفرس من الجهد ما يضعفها ، فلا تستطيع مواجهة الفرقتين اللتين تدخلان المعركة بكامل قواتهما ، واسند خالد الى سويد بن مقرن مهمة حماية مؤخرة قواته . ولما بدأ القتال واشتد وعظم الخطب ونفد الصبر خرج الكمين من جهتين مختلفتين، واصبح الفرس مطوقين من كافة الجهات مما أدى الى انهيار مقاومتهم، ودارت عليهم الدائرة فولوا الأدبار منهزمين ، وهرب قائدهم وملت عطشاً .

وفى موقعة الأنبار سار خالد فى تعبية اليها، وعلى مقدمته الأقرع بن حابس فلما بلغها طاف بها ، فرأى أهليها قد تحصنوا وخندقوا على انفسهم .. فأمر بحصارها ثم مر على الخندق ودرسه ، وعرف عيوبه ، ووقف على أماكن الضعف فيه ، وادرك أن القوم ضعاف لا حول لهم ولا قوة ، فأمر رجاله « انما أرى اقواما لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها » ، ورشق الجنود اهل الانبار بالسهام ، ففقأوا الف عين لهم ، فتصايح الناس : « ذهبت عيون اهل الأنبار » .

وعاد خالد ليطوف بالخندق ، فوجد فيه مكانا ضيقا ، فأمر بالابل الضعاف فنحرت ، والقى بها فى اعماق الخندق ، ثم اقتحم بجنده الخندق من فوقها ، وحطم ابواب الأسوار ، ثم دخل المدينة .

وفى واقعة الفراض تجمعت قوات الفرس مع حلفائهم من الروم وتغلب وبعض القبائل العربية ، وكان بين الجيشين نهر الفرات ، فبعث الفرس الى خالد « اما أن تعبروا الينا أو نعبر اليكم » ، فأجابهم « اعبروا الينا » ، فقالوا « تنح عن طريقنا حتى نعبر » ، فقال « لا افعل ، ولكن اعبروا اسفل منا » . وواضح انه كان يريد أن يلزم عدوه بعبور النهر من مكان تكون له فيه السيطرة ويجد فيه مكانا صالحا للقاء العدو يكون هو فيه فى وضع اكثر استعدادا للقتال .. وهذا تفكير عسكرى لا يصدر الا عن عقلية عسكرية متفتحة .

وادرك الروم حلفاء الفرس سر تفوق خالد عسكريا فقالوا للفرس « احتسبوا ملككم ، هذا رجل يقاتل عن دين ، وله عقل وعلم ، ووالله لينصرن ولتخذلن » .

وعبر الأحلاف النهر فهاجمهم خالد ، ودارت معركة عنيفة انتصر فيها المسلمون ، وقال خالد لأصحابه « الحوا عليهم ، ولا ترفهوا عنهم » ، وانجلت

المعركة عن هزيمة ساحقة لفارس ومن لف لفها من الأعراب ، وبنذير يأتى به الله تبارك وتعالى حلفاءهم من الروم ... لقد قتـل من الفرس وحلفائهم من الروم والعرب فى هذا القتال مائة ألف .

ووصف القعقاع بن عمرو موقعة الفراض فقال :

لقينـا بالفراض جمـوع روم وفرس غمهـا طول السـلام

ابدنا جمعهـم لمـا التقينـا وبيتنـا بجمـع بنى رزام

فمـا فتئت جنود السـلم حتى راينـا القوم كالغنم السـوام

***

نلاحظ خلال عمليات العراق أن خالدا كان حسن التصرف سريع التقدير للموقف ومواجهة الأمور التى كانت تفاجئـه خلال القتـال ، وحسن التصرف وسرعة التقدير من السمات المميزة للقائد الناجح ، اذ أنه كثيرا ما يحدث خلال العمليات ان تبدو مواقف حرجة تتطلب تصرفا سريعا وسليما ، والقائد الناجح هو الذى يستطيع أن يواجه هذه المفاجآت بما يعود على جيشه بالفائدة ويرجح كفة المعركة الى جانبه .

فى موقعة الحيرة مثلا قدر صاحب الحيرة أن خالدا سيركب اليـه النهر فأمر ابنه ان يسد قناطر الفرات ليعوق بذلك سير السفن ، ثم خرج وعسكر خارج الحيرة ، وحمل خالد رجاله فى السفن وسار شمالا باتجـاه الحيرة فاذا بالسفن تجنح ، وعلم من الفلاحين أن الفرس قد فجروا الأنهار ، فسلك المـاء غير طريقه ولم يعد يجرى فى الفرات ، وبالتالى تعطلت السفن وتعطل تحرك القوات ، فكر فى الموقف المفاجىء الذى وجد نفسه أمامه ، وانتهى بسرعة الى اجراء حاسم ، اذ تحرك بكتيبة من الخيل نحو ابن المرزبان الذى سد النهر ، ولم يكن يتصور أن يأتيه خالد فى موضعه ، وكان آمنا من الاغارة ، فلما وصل خالد ، وقع قتال قتل خلاله وعاد الماء يجرى فى النهر من جديد ، وعادت السفن الى السير ، وقصد خالد الحيرة فوجد أهلها فى قصورهم ، فأمر بحصارهم ، وعين لكل قصر قوة على رأسها أحدرجاله (ضرار بن الأزور على حصن القصر الأبيض ، وضرار بن الخطاب على قصر العدسيين ، وضرار بن مقرن المزنى على قصر بنى مازن ، والمثنى على قصر ابن قبيلة) ، ثم عرض خالد على زعماء الحيرة الاسلام أو الجزية أو المنابذة فاختاروا القتال ، فلما اشتد قتل المسلمين لهم طلبوا الصلح ، فعقد خالد صلحا معهم .

واستخدم خالد فى دومة الجندل نوعا جديدا من التكتيك لم يكن للفرس علم به ، فقد جعل عدوه بين فكى الكماشة .

واجه خالد الروم بقواته من ناحيـــة وقوات عياض بن غنم من ناحيـــة أخرى ، ولمـــا بدأ الهجوم فر أهل دومة الى داخـــل حصن ضاق بهم ، فأغلقوا أبوابه ، وحاصره المسلمون ، واقتلعوا الأبواب واقتحموه على من فيه . ولعل القارىء يعرف أن أسلوب فكى الكماشة هو أسلوب حديث استخدمه الألمـــان خلال الحرب العالمية الثانية .

وكانت المفاجأة من وسائل الحرب الاسلامية ضد الفرس ، واحساسا من خالد بأثر المفاجأة على نفسية المحاربين ، فقد رأى أن تكون المفاجأة سـلاحه الجديد فى معركة أليس .

فى هذه المعركة اجتمع نصـــارى بكر بن وائل مع قوات الفرس يقودها بهمن جاذويه ، ووصلت قوات خالد الى أرض المعركة ، وقوات الفرس تتناول طعامها ، وليست فى وضع القتال ، فانتهز خالد الفرصة وهاجمها ، فترك الجند طعامهم وبحثوا عن سلاحهم ، وصمدوا أملا فى وصول مدد يشد من أزرهم ، ودعا خالد ربه « اللهم ان لك على ان منحتنا أكتافهم ، ألا أســتبقى منهم أحدا قدرنا عليه حتى أجرى نهرهم بدمائهم » . وشد خالد وشد معـــه المسلمون ، فانهزم الفرس وفروا من الميدان ، فأمر خالد مناديه فنادى فى الناس « الأسر .. الأسر .. لا تقتلوا الا من امتنع » ، ثم وكل بهم من يضرب أعناقهم فى النهر .. واستمر الضرب يوما وليلة دون أن يجرى النهر دما ، فقـــال له أصحابه « لو أنك قتلت أهل الأرض لم تجر دماؤهم .. ان الدماء لا تزيد على أن تترقرق ، فأرسل عليها الماء تبر يمينك » ، فأمر باعادة الماء الى النهر فجرى دما وسمى النهر «نهر الدم » .

لقد كانت معركة أليس من أشد المعارك التى خاضها خالد فى العراق ، وقد قال فى ذلك « لقد قاتلت يوم مؤتة ، فانقطع فى يدى تســـعة أسياف ، وما لقيت من أهل فارس قوما كأهل أليس » .

التـــحرك العظيـــم

تلقى خالد بن الوليد وهو فى العراق كتابا من أبى بكر جاء فيه « سر حتى تاتى جموع المسلمين باليرموك ، فانهم قد شجوا وأشجوا » .

وكان القوم قد تجمعوا فى الشام فى جيش كثيف العدد كثير العدة ، فقد بلغ عدده أربعين ومائتى الف يقوده ثلاثة من اكبر قادة الروم هم تيودريك ، والفيقار بن نسطوس ، والدارقصى ، وجرجة .

وكان تجمعهم فى منطقة الدبوك ، فى مواجهة جيوش المسلمين الأربعـــة التى كان الخليفة قد ارسلها وتبلغ قوتها جميعا ثلاثين الفا يقودها أبو عبيدة ابن الجراح ، وعمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيد بن أبى سفيان، ولم تستطع قوات المسلمين هناك أن تفعل شيئا ازاء هذه الجموع الغفيرة ، فلما اعياهم الانتظار وأملهم الاصطبار وهالتهم الحشود الروميـــة ، كتبوا الى ابى بكر يستمدونه ، ويلتمسون عنده الراى ، فأرسل كتابه الى خالد .

وكان موقف المسلمين حرجا ، وعامل الوقت فى صالح الروم ، ولذا كان على خالد أن يصل الى بلاد الشام فى اقصر وقت ، وان يقطع المسافة بين العراق والشام فى أقل مدة حتى لا يتدهور الموقف هناك .

والتحرك من العراق الى الشام عملية ليست يسيرة ، بل هى عملية شاقة عسيرة لا يقدر عليها الا من هانت فى نظره المتاعب والمشاق .

وكان التحرك يخضع لعوامل ثلاثة ..

اولها : ضرورة الوصول الى موقع التجمع فى حالة نفســية طيبة وفى ظروف ملائمة دون ان يقع اجهاد على الجيش ، حتى اذا ما وصل كان فى امكانه أن يأخذ دوره فى المعركة .

ثانيها : ضرورة تقدير قيمة الوقت وهذا يعنى ضرورة اســتخدام اقصر الطرق واكثرها امانا .

ثالثها : ضرورة تجنب اى قتال يجهد القوات او يؤخر وصولها او يعوق سيرها أو ينزل بهـا الخسائر .

والعامل الاخير يســمي في حروب اليوم بـ « المحافظة على الفرض »

بمعنى أن يواظب القائد على الوصول الى غرضه الرئيسى جاهزا للقتال جامعا لكل قوته وجهده ، متجاهلا اية أغراض أخرى تظهر له على الطريق ، تبعده عن هدفه أو تضر به أو تؤخر وصوله .

فى ظل هذه العوامل بدأ التحرك على طريق الحيرة — دومة الجندل .. سأل خالد الأدلاء « كيف لى بطريق أخرج فيه من وراء الروم فإنى ان إستقبلتها حبستنى عن غياث المسلمين » قالوا له « لا نعرف الا طريقا لا يحمل الجيوش ، انما يأخذ الفذ الراكب فاياك أن تغرر بالمسلمين » .

الطريق اذن شاق وعر مجهد ، والأدلاء يحذرونه ، ويخشون على المسلمين منه ، ولكن خالدا ضرب بأقوالهم عرض الحائط ، وقرر أن يركب الطريق مهما كانت ظروف التحرك .

وجاءه رافع بن عميرة وقال « انك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال ، والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه ، وما يسلكها الا مغرور ، انها لخمس ليال جياد ، لا يصاب فيها ماء مع مضلتها » ، فقال له خالد « ويحك !! انه والله لابد من ذلك ، انه قد أتتنى عزمة ، فمر بأمرك » .

واحس خالد ان الناس تحت قيادته يخشون الطريق بعد كل ما سمعوه ، وانهم يتهيبونه احساسا منهم انهم مقبلون على مغامرة جريئة لا يعرفون نهايتها ، فقام اليهم يقوى ايمانهم ، ويحشد هممهم ، ويثير بطولتهم وقال «لايختلفن هديكم ، ولا يضعفن يقينكم ، واعلموا ان المعونة تأتى على قدر النية ، والأجر على قدر الحسبة ، وان المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله له » .

ترى هل هناك ايمان اقوى وأرسخ من هذا الايمان ؟

الطريق شاق صعب مجهول لا ماء فيه .. يجهد الناس ويجهد الخيل .. والناس فى خوف على انفسهم وعلى خيلهم .. ولكنه منطق البطل يعيد الهدوء ويزيل الخوف ويقوى النفوس .. فلا ينبغى لمسلم يسعى فى سبيل الله ان يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله .. ولابد للمسلم الحق من أن يتحمل المشاق وأن يجتاز العقبات وأن يصبر عند الشدة .

ولم يجد المسلمون إمام منطق قائدهم سوى الاستجابة له فساروا معه وهم يقولون « انت رجل قد جمع الله لك الخير ، فشأنك » .

ونصح رافع الناس « استكثروا من الماء ، من استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل ، فانهـا المهالك الا ما دفع الله » ، ثم قال لخالد « ابغنى عشرين جزورا عظاما سمانا مسان » ، فأتاه بهن ، فعمد اليهن فظمأهن ، حتى اذا أجهدهن العطش أوردهن ، فشربن حتى اذا تملأن ، عمد اليهن فقطع مشافرهن ، ثم كممهن لئلا يجتررن (*)

وبدأ السير الرهيب (*)

ولم تكن لتغيب عن ذهن خالد القائد الملهم خلال التحرك أهمية الشئون الادارية ، فكان كلما نزل منزلا افتظ أربعا من الجزر ، وأخذ ما فى أكراشها ومزجه بما كان من الألبان فسقاه الخيل ، ثم يشرب الناس مما حملوا معهم من الماء .

ولم تكن تغيب عن ذهن خالد القائد الملهم خلال التحرك ضرورة معالجة نفسية المحاربين المتقدمين على الطريق الشاق ، فبعد مسيرة أربعة أيام خشى خالد أن يفضح أصحابه حر الشمس وأراد أن يطمئنهم فسأل رافع « ويحك يا رافع ما عندك ؟ » قال « خير ، أدركت الرى ان شاء الله » ولما اقترب الركب من مكان يعرفه رافع صاح فى الناس « أنظروا ، هل ترون شجرة من عوسج كقعدة الرجل ؟ » قالوا « لا نراها » ، فقال « انا لله وانا اليه راجعون ، هلكتم والله اذن ، وهلكنا لا أبا لكم ، انظروا » . وتطلع المسلمون فى كل اتجاه يبحثون عن الشجرة حتى وجدوها ، فكبروا وهللوا ، وقال رافع « احفروا فى أصلها » ، فحفروا ، فنبع الماء غزيرا فشربوا وسقوا الخيل (*)

هذا التحرك العظيم كان مغامرة جريئة لا يقوى عليها الا البطولات ، ولا تأتيها الا العبقريات ، وما كان لها أن تتم لولا أن خالد بن الوليد هو الذى كان على رأس الناس .. لقد تلقى أمر الخليفة بالتحرك الى مواقع المسلمين فى الشام ، وكان لابد أن يأتى الشام عن طريق يصله بالمسلمين ولا يحول بينه وبينهم .

ولما عثر على الطريق وجد فيه أعظم المخاطر وأشد العقوبات ، ولما أراد أن يستعين بالأدلاء حذروه وخوفوه على نفسه وعلى جيشه ، فالطريق لو ركبه راكب فذ لكان غرورا منه بنفسه ، فكيف تجتازه جحافل معها أحمالها وأثقالها .. والطريق لا ماء به ، والجيش لا يتحمل مسيرة خمسة أيام دون ماء .. هذا فوق أن سلوك الطريق فيه خطورة وعناء ويحتاج الى صبر وجلد ، ولكن خالدا كان له هدف وغاية ، والغاية دائما تبرر الوسيلة ،

والوسيلة مليئة بالصعاب والمتاعب والعقبات ، ولكن متى خضعت ارادته لمثل هذه الأمور .. ليسلك اذن الطريق ، وليكن بعد ذلك ما يكون .... واستجاب له الجند ايمانا بقوله « ان المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله له » .

وثمة صعوبة أخرى واجهت خالدا خلال التحرك .. فقد كان على الطريق أعداء له ، وكان لابد من أن يلقاهم ويحاربهم ، واجه أول ما واجه أهل تدمر فحاصرهم وخشي أن يطول الحصار وأن ينسيه واجبه الأول ، فقرر أن يرفع الحصار على أن يعود اليهم مرة أخرى ... ، « ثم لا ارحل عنكم حتى اقتل مقاتلكم واسبي ذراريكم » ، فبعثوا اليه وصالحوه .

وعن سراقة بن عبد الأعلى أن خالدا مر على حوران فأغار عليهم ، واستاق أموالهم وقتل الرجال ، ثم واجه مددين كانا على الطريق من بعلبك وبصرى اليها ، فحمل على مدد بعلبك فانهزموا ودخلوا المدينة ، ثم حمل على مدد بصرى فهزمهم ودخلوا المدينة ، ثم عاد هو الى المدينة فصالحه أهلها .. يقول فى ذلك عمرو بن محصن « والله لخرجنا اليهم بعد ما جاءنا مدد أهل بعلبك وأهل بصرى بيوم ، وانا لأكثر من خالد وأصحابه بعشرة أضعافهم ، فما هو الا أن دنونا منهم فثاروا فى وجوهنا بالسيوف كأنهم الأسد ، فانهزمنا أقبح الهزيمة ، وقتلونا شر مقتلة .. فما عدنا نخرج اليهم حتى صالحناهم » .

واخيرا ...

وصل التحرك الى نهايته .. الى اليرموك حيث احتشدت قوات الروم .

* * *

وقبل ان نختم حديثنا عن هذا التحرك العظيم ، نود أن نشير الى أن هذا التحرك يشبه تماما تحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا الى تبوك .

فمسيرة رسول الله كانت لمحاربة الروم فوق أرضهم ، وكذلك كانت مسيرة خالد . ففى رجب من السنة التاسعة ، أمر رسول الله بالتهيؤ لحرب الروم ، وكانوا قد أعدوا العدة لحرب رسول الله ، ذلك انهم بعد غزوة مؤتة ، رأوا أن الدين الجديد يغزو النفوس بأحكامه ، ويغزو البلاد برجاله ، فقرروا أن يستعدوا لغزو المسلمين ، وما كان للنبى أن يتركهم ، حتى يغزوه فى داره .

ومسيرة رسول الله الى تبوك تمت فى وقت حر شديد ، حتى انه عليه

السلام — وما كان يبين للناس اتجاهه اذا خرج لحرب — ابلغ الناس بخروجه ووجهته ، وذلك يرجع الى بعد الشقة وعظم المهمة ، وليستعد الناس لنوع من الجهاد شاق ومرير ، فى وقت شديد غليظ ، اذ كان عليهم أن يقطعوا الصحراء من المدينة الى حدود الشام ، فى وقت شديد الحرارة ، وفى منطقة يقل فيها الماء .

ولقد أصاب الناس خلال التحرك الجهد والتعب ، كما أصابهم عطش شديد ، وروت كتب السيرة أن الجيش تعرض لريح شديدة كانت خطرا على أفراده ، حتى أن رسول الله أمر رجاله أن يشد كل منهم عقال بعيره ، وألا يخرج أحدهم الا ومعه آخر .

واطلق على هذا الجيش اسم « جيش العسرة » ، ووصف عمر بن الخطاب ما لاقاه الجيش أثناء التحرك فقال « خرجنا فى حر شديد ، فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش ، حتى أن الرجل ليجتز بعيره ، فيعصر فرثه ، فيشربه ، ويجعل ما بقى على كبده » .

وتغلب رجال محمد على كل المشاق بالصبر والجلد والايمان والعزيمة والقدرة والصمود وقوة الارادة ... وبهذه الصفات أيضا غزا خالد بن الوليد بجيشه الصحراء من العراق الى اليرموك .

وهذا النوع من التحرك يمكن أن نطلق عليه ما يسمى فى العصر الحديث « بالتكتيك العنيف » ، وهو نوع من التدريب تحرص القيادات على أن تمارسه القوات ، فتتدرب على التحرك فى ظروف قاسية وتحت أجواء مختلفة حتى تتعود على قهر الطرق الشاقة التى قد تواجهها خلال التحرك ، وعلى قهر الظروف الجوية التى قد تتعرض لها أثناء المعركة ، والاسلام فى ذلك سابق لكل الأفكار العسكرية الحديثة .

خالد ومونتجمرى

هناك شبه كبير بين خالد بن الوليد ومونتجمرى .

ويبدو الشبه كبيرا فى موقعتى اليرموك والعلمين .

لقد سارت الأمور فى المعركتين تقريبا على وتيرة واحدة وبأسلوب واحد وبتكتيك واحد ، رغم اختلاف العدد والسلاح .. فالمعركة لا تقاس بعدد المقاتلين ونوعية السلاح وكميته ، ولكنها توزن بالأفكار التى سيطرت عليها ووجهت أحداثها ، كما أن العبرة فى المعركة ليست بأشكالها وأحجامها وظواهرها ، وانما العبرة بالأسس والنظم والأفكار .

فى العلمين تسلم مونتجمرى قيادةالجيش الثامن بعد أن تكبد خسائر فادحة فى معارك متصلة خلال سنوات ثلاث كان يتولى قيـادته أثناءها كالنجهام ثم ريتشى ثم أوكنلك ، وانحطت روحه المعنـوية ، وأصـبح جنـده على مختلف مستوياتهم يفزعون كلما ذكر اسم روميل ثعلب الصحراء ، وأصبحوا لا يعرفون من أحداث الحرب الا كلمة الانسحاب .. وخاصة بعد الخسائر الفادحة التى لحقت بدبابات الجيش فى الكمـين الذى أعده روميل عنـد جسر الفرسان فى يونيو ١٩٤٢ .

كانت المهمة الملقاة على عاتق مونتجمرى مهمة خطيرة يتوقف عليها تاريخ الامبراطورية البريطانية وشرفهـا . كان لا يواجه فى هـذه المعركة جيش روميل وحده ، ولكنه كان يواجه ألمانيا كلها .. كان يرى فى هزيمته أفولا لنجم امبراطوريته ، وزوالا لأمجاد عريقـة ضاربة فى التاريخ ، ولهذا فقد كان أول أمر عمليات يصدره مونتجمرى هو « ان الجيش الثامن سيحارب عدوه فى نفس البقعة التى هو فيها الآن ، وأنه لا انسحاب ولا تسليم بعد اليوم »

اهتم مونتجمرى أول ما اهتم بمعنويات جنـده فعالجها بطرق مختلفـة وبوسائل متعـددة حتى أنه قال فى مذكراته « لقـد كان الجيش الثامن عائلة سعيدة ، فقد تقدم من العلمين الى منتصف ايطاليا دون أن يفقد معركة واحدة أو حتى عمليـة واحدة ، ودون أن ينسـحب ياردة واحدة ، وكنتيجـة لذلك احتفظ بدرجة عالية جدا من الروح المعنوية ، وكان لرجاله كامل الثقة فى أنفسهم وفى قوادهم ، وعلموا أنهـم محاربون من الطراز الأول ، ونظر كل منهـم الى نفسه نظرة الامبراطور .. » .

كان لا يمل الحديث الى جنده فى كل مكان وفى كل مناسبة ، وكان يجعل من كل فرد فى الجيش شريكا له فى خطته وهى هزيمة روميل وتحطيم جيشه .. كان يؤمن ايمانا راسخا بدور الجند فى المعركة ولهذا ذكر فى مذكراته عن حرب الصحراء « .. المفروض فى الجنرالات أن يكسبوا الحرب ومادتهم الخام الأولى هى الرجال ، فالمعارك تكسب أولا وبصفة رئيسية فى قلوب الرجال .. فان النصر يعتمـد على تدريبهـم وعلى شـجاعتهم وعلى تصـميمهم على النصر أو الموت .. » .

واهتم مونتجمرى بالحشد فأعاد تنظيم قوات الجيش وترتيبها وطلب من القيادة العليا لجيوش الحلفاء المدد فأمدته بعـدد كبير من الدبابات الشيرمان فلما تم التجمع المطلوب قسم الجيش الى فيالق ، والفيلق الى فرق والفرقة الى وحدات .. كان لديه ثلاثة فيالق (الفيلق ٣٠ ، ١٣ ، ١٠) ، وثمان فرق ، وحدد لكل فيلق قطاع عمله وأهداف فرقه ومحاور التحرك ، وكانت خطتـه

تقضى بتعاون الفيالق كلها تعاونا كاملا .. قال « كانت سياستى هى انشاء الجيش على ثلاث دعائم رئيسية هى القيادة والامداد والتدريب .. كنت مطمئنا من ناحية القيادة ، فقد كان قادتى المرءوسين من الطراز الجيد ، وكنت أثق بهم ثقة تامة .. وكان موقف المهمات والعتاد يتحسن بسرعة .. وكان على أن أجهز للمعركة القادمة بطريقة تكفل للقوات امكان أداء كل ما يطلب منها .. » .

ونجح مونتجمرى ونال النصر الذى كان ينشده فى العلمين ومنيت قوات المحور بهزيمة منكرة أفقدتها ميدان القتال فى أفريقيا كلها ...

أما القائد العربى خالد بن الوليد فقد كان عليه أن يخوض غمار معركة ضد الروم .. وكان هذا اللقاء هوثالث لقاء للمسلمين مع أهل الشام .. فى المرة الأولى انتصر الروم فى مؤتة .. وفى الثانية لم يحدث صدام عند تبوك .. وهذه هى المرة الثالثة ..

وكان خالد وهو يخوض المعركة ينظر الى مستقبل أمته والى تاريخها ، ويتطلع بشوق الى نصر ينسى المسلمين هزيمتهم أمام الروم أول مرة .. كان يرى فى انتصاره فتحا للباب على آخره أمام المسلمين .. وكان يرى فى هزيمته شرا لا يعرف أحد ما يترتب عليه من نتائج خطيرة .

ولنبدأ قصة اليرموك من البداية ..

فى هذه المعركة كان الحشد هو أهم ما يشغل بال القائد الأعلى للقوات..

فقد كان أبو بكر قد عزم على مواجهة الروم فى بلادهم ، فبعث اليهم بألوية بلغ عدد كل منها ثلاثة آلاف ، ثم توالت النجدات حتى وصل عدد كل لواء الى سبعة آلاف .. كان قد استقدم عمرو بن العاص من عمان ، « قد أحببت أبا عبد الله أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك ، الا أن يكون الذى أنت فيه أحب اليك » ... ، ثم ولى يزيد بن أبى سفيان امارة لواء « انى قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرجك ، فان أحسنت رددتك الى عملك وزدتك » وعقد لربيعة بن عامر بن لؤى « أنت مع يزيد بن أبى سفيان لا تعصه ولا تخالفه » ، ودفع بلواء الى شرحبيل بن حسنة « أنت أحد أمرائى ، فاذا سار يزيد بن أبى سفيان فأقم ثلاثا ثم تيسر للمسير » وأسندت قيادة القوات الى أبى عبيدة بن الجراح أمين الأمة .

وتحركت الألوية الى بلاد الشام ، ونزل كل جيش فى مكان يشرف منه

على الروم ، ويقول هاشم بن عتبة بن أبى وقاص « لمـــا مضت جنود أبى بكر الى الشام ، بلغ ذلك هرقل ملك الروم ، وهو فى فلسطين ، وقيـــل له ، لقد أتتك العرب وجمعت لك جموعا عظيمة ، وهم يزعمون أن نبيهم الذى بعث اليهم أخبرهم أنهم يظهرون على أهل هـــذه البلاد ، وقد جاءوك وهم لا يشـــكون أن هـــذا يكون ، وجاءوك بأبنائهم ونسائهم تصـــديقا لمقالة نبيهم ، يقولون : لو دخلناها وافتتحناها نزلنا بأولادنا ونسائنا » .. فقـــال هرقل « ذلك أشـــد لشوكتهم اذا قاتل القوم على تصديق ، فما أشـــد على من كلبدهم أن يزيلهم أو يصـــدهم » .

وجمع هرقل قومه وقال لهم « أرى من الرأى الا تقاتلوا هؤلاء القوم وأن تصالحوهم ، فوالله لأن تعطوهم نصف ما أخرجته الشام ، وتأخذوا نصـــفه ، وتقر لكم جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام ، ويشاركوكم فى جبال الـــروم » ..

وعارضه رجاله ووقفوا فى وجهـــه وقرروا منازلة الجيوش الاسلامية ، فنزل على رأيهم وكون ثلاثة جيوش بلغ عددها أربعـــين ومائتى الف ، تولى قيادتهـــا خيرة رجاله تيودريك ونســـطوس الدراقصى وجرجة .. وكان مقر قيادته فى حمص .

وتشاور المسلمون فى أمر أنفسهم ، وقد أزعجتهم هـــذه الكثرة فى جانب العدو ، فقال لهم عمرو بن العاص « ان الرأى الاجتماع ، وذلك ان مثلنـــا اذا اجتمع لم يغلب من قلة » .. وجاءتهم تعليمات أبى بكر الصديق مطابقة لرأى عمرو ، قال « اجتمعوا عسكرا واحدا والقوا زحف المشركين بزحفـــكم ، فأنتم أعوان الله ، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره ، ولن يؤتى مثلكم من قلة ، وانما يؤتى العشرة الآلاف والزيادة عليهـــا بذنوبهم ، فاحترسوا من الذنوب ، والله ناصركم » .

تجمعت قوات المسلمين على شاطىء اليرموك الأيسر .

وتجمعت قوات الروم على الشاطىء الأيمن لليرموك .

وانتظر الفريقان لحظة الصدام ..

وكان أبو بكر فى المدينة يفكر فى أمر هذه الحرب ، فجمع رجاله وتناقش معهم ، وتم الاتفاق على ضرورة توحيد القيادة الاسلامية فى جبهـــة الشام فيتولاها رجـــل جسور قـــوى ، لا يعـــرف فى الحرب هوادة أو احجـــاما ، ولا يهاب الموت .

ولكن من يكون هذا الرجل ؟..

أبو عبيدة .. انه رقيق القلب .

عمرو .. انه رجـل هيـاب .

عكرمة .. تعوزه دقة التقـدير .

اذن من يكون القائد ؟؟. وتباحث الناس .. وعرضت أسماء رفضـها أبوبكر لأنها لا تصل الى مستوى هذه المعركة فى أهميتها وخطورتها .

وأخيرا قفز اسم خالد بن الوليد .

وعرض أبو بكر على أصحابه قائلا « خالد لهـا .. والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد » ... وقبل الناس ووافقوا ..

ووصل خالد من العراق الى اليرموك ... وأخذ يدرس الموقف ويضـع ترتيبات المعركة ... رأى ألوية المسلمين مستقلة ، كل لواء على حدة ، يتلقى أوامره من أميره ، وكانت خطـة عمـل كل لواء مستقلة عن خطـة اللواءات الأخرى ، فلا تناسق بينها ولا تعاون .

ورأى خالد بصدق فكره العسكرى أن هـذا وضع لا يتفق ومتطلبـات المعركة ، وأن الواجب أن يلم الشمل تحت قيـادة واحدة ، تصـدر الأوامر وتعد الخطة ، واللواءات كلها تنفـذ وتعمـل وتتحرك فى نطاق خطة واحدة وقيادة واحدة تيسر التعاون والاتحاد بينها..**تماما كما فعل مونتجمرى فى العلمين** فقد جعـل همه الأول حشد الحشود فى مواجهة العدو على أن تعمـل جميع القوات طبقا للخطـة العامة التى وضـعها وفى حدود الواجبـات والأهداف المرســومة .

دعا خالد الأمراء الى اجتماع يناقشون فيـه الموقف وقال لهم « هل لكم يا معشر الرؤساء فى أمر يعز الله به الدين ، ولا يدخل عليكم معه ولا منه نقيصة ولا مكروه ؟ » قالوا « نعـم » قال « ان هـذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيـه الفخر ولا البغى .. أخلصوا جهادكم ، وأريدوا الله بعملـكم ، فهـذا يوم له ما بعده .. **لا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئة وأنتم على تساند وانتشار** ، فان ذلك لا يحل ولا ينبغى ، وان من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هـذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته » .

وتساءل الأمراء « فما الرأى ؟ » ، فأجابهم « ان أبا بكر لم يبعثنا الا وهو يرى أننا سنتياسر ، ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم ، ان الذى أنتم فيه

أشد على المسلمين مما قد غشيهم وانفع للمشركين من أمدادهم ، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم ، فالله ، الله ، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان ، لا ينتقصه منه ان دان لغيره من الأمراء ، ولا يزيده عليه ان دانوا له .. ان تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله .. هلموا ، فان هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده ، ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نردهم ، وان هزمونا لم نفلح بعدها ، فهلموا فلنتعاور الامارة ، فليكن بعضنا اليوم والآخر غدا ، والآخر بعد غد ، حتى تتأمروا كلكم ، ودعونى أتامر اليوم » .

اذن فخالد فى أول مراحل المعركة كان يفكر فى القيادة .. ذات التفكير الذى شغل مونتجمرى عند معركة العلمين .. اطمأن مونتجمرى الى القيادة .. وبذل خالد جهده حتى تكون القيادة فى المستوى الذى يبعث بالطمأنينة ..

رأى خالد أن تكون القيادة ممثلة فى شخص واحد ، لأن تعددها يسىء الى الموقف العام ويضر به ويفسده .. ورأى أن تجتمع الألوية كلها فى نطاق خطة واحدة موحدة ، يعمل الجميع فى ضوئها وحدودها ، فذلك يعز الجيش ويقويه ويدعمه أمام عدو يفوقه عددا وعدة ، واستعدادا وعلما بالحرب وأساليبها .

وبذلك كان هدف خالد قبل خوض غمار المعركة اعداد الحشد العسكرى اللازم للقوات حتى تكون مستعدة متوثبة قادرة .

واستجاب قادة الألوية وأقروا خالدا على رأيه ، فتولى قيادة الجيش .

كان خالد قد عرف — خلال فترة اقامته بالشام وقبل توليه القيادة — من أسرار قيادة الروم ما طوع لعبقريته أن ترسم الخطة لملاقاتهم والظفر بهم .

بدأ أولا فى اعداد الجيش للمعركة

فقسم الجيش الى فرق سميت بالكراديس (جمع كردوس وهى كلمة يونانية معناها الكتلة أو الكتيبة) ، وكان كل كردوس من ألف رجل ، عليه رجل من المسلمين الأقوياء أمثال القعقاع بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل وعياض ابن غنم وعبد الرحمن بن خالد .. قال خالد لأصحابه « .. ان عدوكم قد كثر وطغى ، وليس أكثر فى رأى العين من الكراديس » .

وأسند قيادة كراديس القلب الى أبى عبيدة ، وكراديس الميمنة الى عمرو

ابن العاص ، وكراديس الميسرة الى يزيد بن أبى سفيان ، وجعل للجيش مقدمة تولاها قباث بن أشيم .

وجعل أيضا مع الجيش قاضيا هو أبو الدرداء ، وقارئا هو المقداد بن الأسود ، وصاحب أقباض هو عبد الله بن مسعود ، وواعظا هو أبو سفيان .

هكذا أعد خالد جيشه لمواجهة الروم فى حشد عسكرى كبير لم يشهده المسلمون من قبل ايمانا منه بأهمية الحشد كمبدأ من أهم مبادىء الحرب ، وبذلك يكون قد سبق غيره من القادة فى ادراك قيمة هذا المبدأ الذى قال فيه جولتز « تتضمن الخطط الحربية لجميع الدول الحديثة قبل اشتباك قواتها بقوات العدو القيام بعمليتين هما التعبئة والحشد » .

وكما اطمأن مونتجمرى الى قادته المرءوسين كفاءة وصلاحية ، فقد اطمأن خالد أيضا الى القادة على مختلف المستويات واختارهم بنفسه ثقة وأملا ورجاء .

العامل الآخر الهام الذى التقى عنده القائدان هو اعداد نفسية المحارب لمواجهة عدوه ولتقبل احداث المعركة .

ولقد نجح مونتجمرى فى تحقيق هذا العامل وفى اصلاح نفسية جنده ، وأزال من تفكيرهم أسطورة الجندى الألمانى الذى لا يقهر ، والذى يحمل النصر ملء يديه ، ووضع فى ذهن كل جندى أنه يدافع عن شرف أمته وتاريخها .

ونجح خالد فى هذا المجال أيضا ، وكان له فيه قصب السبق ، فقد أثار روح القتال عند المسلمين ، وأنساهم ذكرى الهزيمة المرة فى مؤتة ، وأعاد لهم ثقتهم فى أنفسهم ، فأصبح الواحد منهم مشتاقا الى لقاء الروم للقضاء عليهم وازالة دولتهم .. وكان أبو سفيان دائم المرور بين الكراديس يخاطب الناس « الله ، انكم ذادة العرب وأنصار الاسلام ، وانهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم ان هذا اليوم من أيامك ، أنزل نصرك على عبادك »

سمع خالد رجلا من المسلمين — رأى ما عليه الروم من الكثافة والعدة فقد كانوا فى كثرة تزيد على خمسة أضعافهم — يقول « ما أكثر الروم وأقل المسلمين » ، فغضب لقوله لأنه لا يعبر عن الفكر العسكرى السليم الذى يرى أن النصر فى المعركة لا يرتبط بعدد بقدر ارتباطه بعوامل أخرى ذات أهمية كبيرة تفوق أهمية العدد .. قال خالد له غاضبا « بل ، ما أقل الروم وأكثر المسلمين ، انما تكثر الجنود بالنصر ، وتقل بالخذلان ، لا بعدد الرجال ،

والله لوددت أن الأشقر (يقصد فرسه) براء من توجيه (يقصد حفاءه من شدة المشى) ، وأنهم أضعفوا ضعفهم » ، وأثار خالد بهذا القول حماس الجند ، والهب نفوسهم ، وأيقظ فيهم الشوق الى الاستشهاد .

ولم يقصر خالد جهده على رفع معنويات جنده فقط ، وانما أراد أيضا أن يحطم هذه الروح عند عدوه ، فانتهز فرصة لقائه مع قائد منهم هو جرجة وحدثه عن الاسلام حديثا شرح صدره له .

يا خالد ، أخبرنى الام تدعون ؟

— الى شهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، والاقرار بما جاء به من عند الله .

— فمن لم يجبكم ؟

— فالجزية ونمنعهم .

— فان لم يعطها ؟

— نؤذنه بحرب ثم نقاتله .

ولا شك فى أن انحياز جرجة وهو قائد أحد جيوش الروم الى صفوف المسلمين كانت له آثار معنوية على الطرفين .. ففى الوقت الذى سعد به المسلمون واعتبروا اسلامه تفاؤلا ، فى هذا الوقت اهتزت اعصاب الروم وانهارت معنوياتهم ، واعتبروا انحيازه الى المسلمين أمرا سيئا ، وخاصة أنه كان من قادتهم المشهود لهم بالكفاءة والقدرة والفن العسكرى ، ولقد قاتل جرجة فى صفوف المسلمين وأبلى بلاء حسنا ونال الشهادة .

ولفتة معنوية أخرى ..

فقد طلب ماهان قائد الروم لقاء خالد ، فلما التقيا قال ماهان « لقد علمنا أنه لم يخرجكم من بلادكم الا الجهد والجوع ، فان شئتم أعطيت كل واحد منكم عشرة دنانير وكسوة وطعاما وترجعون الى بلادكم ، وفى العام القادم أبعث اليكم بمثلها .. » فقال له خالد « انه لم يخرجنا من بلادنا الجوع كما ذكرت ، ولكنا قوم نشرب الدماء ، وقد علمنا أنه لا دم أشهى ولا أطيب من دم الروم ، فجئنا لذلك » .. عرض رخيص تافه من جانب الروم ولكنه ذو مدلول عميق .. ان قول ماهان يدل دلالة واضحة على أن الروم كانوا يائسين من هذه الحرب ، مقتنعين بنتيجتها ، فهم ان حملوا سلاحهم وحاربوا فهذا مجرد واجب يؤدى دون اقتناع أو ايمان .. ويدل أيضا على أنهم كانوا يخشون اللقاء ويقدرون عواقبه ، فيعرضون الثمن أملا فى السلامة .. وقوم هذه روحهم

لا يكون النصر من نصيبهم أبدا .. ورد خالد فيه قوة ، وفيه استهزاء بالعدو ، ويبـدو فيه اصرار على القتـال وتصميم على النزال ، بروح تتميز بالرغبـة الجادة فى الكفـاح المرير من أجل كسب المعركة .... وشـتان بين معنويات هؤلاء وهؤلاء ...

ونقطة معنوية هامة أخرى ..

فان خالد بن الوليد أثار روح القتال عند جنده ، فأخذ يذكرهم بغزوات رسول الله ، ويذكرهم بأن بينهم كثيرا من أهل بدر ، ويذكرهم أيضا بتاريخـه فوق أرض فارس ومعاركه ضد الفرس ، ويعدهم بالنصر مصـداقا لقول الله تبارك وتعـالى «ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامـكم » ، وكانت أحاديث خالد تثير حماسهم وتشـعل عندهم الرغبة فى القتال أملا فى النصر أو الشهادة وسرت فى قلوب المسلمين قوة لم يكن لهم بمثلها عهد منذ نزلوا الشام .

وهكذا عالج خالد معنويات جيشه بذات الأساوب وعلى ذات المستوى الذى عولجت به وعليه معنويات الجيش الثامن قبل معركة العلمين .

وبعد أن تم الاعداد والتجهيز معنويا وماديا .. أصبح الكل مشتاقا لحمل السلاح ومواجهة الأعداء ، وقد أيقنوا جميعا أن يوم اللقاء هو يوم الفصل .. يوم من أيام الله تستحب فيه الشهادة ، وتفتح فيه أبواب الجنة ، وتوهب فيه الحياة لمن حرص على الموت .

وبدأ القتـال .

وهاجم القعقاع متقدما الصفوف وهو يرتجز :

يا ليتنى ألقـاك فى الطـراد

قبـل اعترام الجحفـل الوراد

وأنت فى حلبتـك الـوراد

وهاجم عكرمة بن أبى جهـل وهو يقول « قاتلت مع رسـول الله فى كل موطن ، أأفر اليوم من أعداء الله ! » ، ثم أنشد :

قـد علمت بهكنـة الجـوارى

أنى عـلى مـكرمة أحامى

ثم نادى أصحابه « من يبايع على الموت ؟ » ، فبايعـه ضرار بن الأزور

والحارث بن هشام وعمرو ابنــه فى أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم ، واندفعوا جميعا فى اتجاه الروم اندفاعة رجل واحد زلزلت الروم زلزلة عظيمة.

والتحم الناس ، وتطــارد الفرسان ، وشــن المسلمون هجوما عنيفا ، واندفع خالد يهوى بسيفه يخطف الأرواح.

وحمى وطيس المعــركة ، والكل فى موقعــه ثابت لا يتراجع ، بينما فر الروم داخل بلادهم ، وسقطوا فى هاوية الواقوصة وبلغ قتلاهم مائة الف .

وتمت الهزيمــــة .

وما أن بلغ خبرها هرقل وهو فى حمص حتى فقد الأمل فى بقاء الشام تحت حكمه ، فارتحل عنها مهموما مدحورا وهو يقول « سلاما عليك يا ســوريا .. سلاما لا لقاء بعده » .

وصور القعقاع بن عمرو انتصار المسلمين فقال :

ألم تـرنا على اليرموك فــزنا ... كمــا فــزنا بأيام العــراق

فتحنــا قبلهــا بصرى وكانت ... محرمة الجناب لدى التــلاقى

قتلنــا الروم حتى ما تساوى ... على اليرموك مفـروق الوراق

فضضنا جمعهم لمــا استباحوا ... على الواقوصــة البتر الرقاق

غداة تهافتــوا فيهــا فصاروا ... الى أمر تعضــــل بالذواق

***

بعد اليرموك ترك خالد قيادة الجيش ، وعمــل تحت قيادة أبى عبيــدة كجندى من جنود الله ، لم يغمد ســيفه ، ولم يضعف يقينــه ، وضرب بذلك للعسكريين مثلا رائعــا فى الطاعة ، متمثلا فى ذلك بقول الله تبارك وتعــالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

تولى أبو عبيدة القيادة ، وتلقى التعليمات من عمر بن الخطاب تحدد له خطر تحرك القوات بعــد الانتصار العظيم من اليرموك .. كانت التعليمات تقضى بـــ « ابدءوا بدمشق فانهدوا لها فانهــا حصن الشام وبيت مملكتكم ، واشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بازائهم من نحورهم ، فان فتحها الله قبل دمشق فذلك الذى نحب ، وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها ، وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل ،

فان فتــح الله عليكم فانصرف انت وخالد الى حمص ، وضع شرحبيــل وعمرا بالأردن وفلسطين » .

شارك خالد مشاركة ايجابية فى فتح دمشــق ، وكان من أكثر المقاتلين شجاعة وجراة وحماسة ، وكان أعمقهم فهما لمعنى الجهاد فى ســبيل الله .. جهادا خالصا لوجه الله ســواء كان فى منصب القيادة أو جنــديا فى صفوف المقــاتلين .

خصص له أبو عبيدة الباب الشرقى (كان على مقربة من هذا الباب دير يسمى دير صليبيا اتخذه خالد مقرا له ، ولهذا ســمى من بعد دير خالد) ، فظل فى موقعه يقظا منتبها يبث العيون تأتيه بالأخبار حتى علم منها أن بطريق المدينة ولد له ولد فرح به وأولم النــاس فأكل الجنــد وشربوا وغفلوا عن مواقعهم ، فقرر مهاجمة المدينة من موقعه فجمع جنده وقال لهم « اذا سمعتم تكبيرنا من السور فارقوا الينا » .

واستحدث فى هذا الهجوم اسلوبا جديدا اذ اعد حبالا على هيئة سلالم وأوهاق ربطها القعقاع بن عمرو ومذعور بن عدى فى شرف الأسوار وتسلقوها وانحدروا من الجانب الآخر أمام البــاب ، وقتل خالد الحراس وفتح الباب ثم كبر ، فاندفع رجاله الى داخل الحصن ، وتبعهم باقى القوات .

وكان خالد فى فحل على مقدمة الجيش وأبلى فى هذه الموقعة بلاء حسنا، وواجه قوات الروم بقيادة ســقلار بن مخراق ، وقاتلهم أشــد قتال ، وأمره وطالت المعركة الليل كله واستمرت اليوم الذى يليه الى الليل ، وخالد يذكر المسلمين بموقفه القتالى الرائع .. بفعاله فى معاركه السابقة ، وبطولاته فى لقاءاته مع العــدو ، حتى خارت قوى الروم وانهزموا وجرح قائدهم سقلار ، وما أن بدءوا الهروب من أرض المعركة حتى أمر خالد بمطاردتهم فطــاردهم المسلمون وقتلوا منهم ثمانين الفا .

وكان أيضا على المقدمة فى حصار حمص .

وعلى يديه قتل ميناس قائد الروم فى قنسرين ، وقيل ان ميناس هذا كان أعظم رجل فى المملكة بعد هرقل ، وكان قد خرج على رأس جند عظيم لملاقاة خالد ، الا أنه فوجىء به يهاجمه على غير انتظار بكل قوته ، فلم يستطع البقاء بالمدينة فأرسل اليهم خالد « لو كنتم فى السحاب ، لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم أمامه ، وكان للمفاجأة أثرها ، فاضطربت صــفوفهم ، وحاولوا الفرار ولكن

خالدا كان قد أخذ عليهم المسالك ، وأمعن فيهم قتلا ، ونجح البعض فى التحصن بالمدينة فأرسل اليهم خالد « لو كنتم فى السحاب ، لحملنا الله اليكم او لأنزلكم الينا » ، وبعد مقاومة قليلة طلبوا الصلح فأمر خالد بتخريب المدينة .

* * *

واخــــيرا ..

قضى خالد بقية ايامه بعد عزله فى حمص طالت الى اربع ســنوات .. ومات بها سنة واحد وعشرين ولم يجاوز الخامسة والخمسين ، ولم يوجد فى بيته غير فرسه وغلامه وسلاح وقفه للجهاد فى سبيل الله ... قال عمر عندما بلغه نبأ وفاته « رحم الله أبا سليمان .. كان على غير ما ظنناه به .. كان والله سدادا لنحور العدو ميمون النقيبة »

وان خير ما نختتم به هــذا البحث عن خالد هو قوله وهو على فراش الموت ، بعد حياة عريضة ملء سمع الدنيا وبصرها « لقد طلبت القتل فى مظانه فلم يقدر لى الا أن أموت على فراشى » . وقوله « ما من عمل أرجى عندى بعد لا اله الا الله ، من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين بتها وأنا مترس ، والسماء تنهل على ، وانا انتظر الصبح حتى أغير على الكفار » .

وكانت آخر كلماته نصيحة مستخلصة من حياته لأصحابه قال لهــم : « عليكم بالجهاد » .

استدراك : يستبعد السطر قبل الأخير من صفحة ١٤٢ .

الشخصية الرابعة

عمرو بن العاص

« خدعنى الرجل انه ادهى الخلق جميعا »

ارطبون

شخصية فريدة

شخصية اسلامية تاريخية .

شخصية رحبة النواحى فسيحة الجوانب متسعة الآفاق .

شخصية تميزت بالتأمل الثاقب والعلم الغزير والاستنباط المحكم .

شخصية جذبت المؤرخين مدنيين وعسكريين ...

كلما اتجه باحث بالدرس تكشفت له نواح جديدة من النبوغ والعبقرية ، فهو مدرسة فريدة فى التاريخ قديمه وحديثه ... تشعبت سبل البحث فى تاريخه ودراسة منهاج حياته ، واختلف الباحثون طرقا ، الا أنهم اتفقوا على الايمان بعظمته فى السلم والحرب ، وبعبقريته فى الراى والمشورة وبنبوغه فى ميادين السياسة ومجالات الحرب .

بطل داهية واسع العقل عميق التفكير بارع الحيلة ، فيه فطنة وكياسة وسياسة ، وفيه خبرة بوسائل جذب القلوب وكسب النفوس ، وفيه اعتداد بنفسه ومعرفة لتبعات وظيفته وعمله ، لا يجامل ولا يفرط بل يحرص ويستمسك .

جرىء مقدام يجازف ويخاطر ، فيه حب للامارة وشغف بالزعامة ، لا يكتفى بالتمنى فى بلوغ ما يريد بل يناضل ويكافح حتى يكسب تقدير اصفيائه ، وحسبك أن أرطبون الروم وهو قائد جيشهم قال فيه « انه أدهى الخلق جميعا » .

كان فية صبر على المحاولة ، وثبات على المنهج ، واستمرار على الطريقة ، ودوام على الرأى ، ولو كلفه ذلك جهدا ومشقة ، كان يكره التردد والتأرجح ، وبعد التغيير لما اعتاد مما لا يوائم مكارم الأخلاق ، وهو الذى أخبر بأنه لن يمل أحدا يدوم له حتى دابته لا يملها مهما شابت ما دامت تحمله ، وهو الذى قال : « ان الملل من كواذب الأخلاق » (*) .

وكان فيه ذكاء نادر ، وأى ذكاء كذكائه حينما حرض الخليفة عمر ان يأذن له فى فتح مصر فأجابه بعد تردد ومراجعة ، واهتبل الفرصة وسارع بجيشه تجاه مصر ، فى الوقت الذى تعاود الخليفة الخشية والخيفة ، فيرسل خلفه بكتاب يأمره بالعودة ، اذا كان لم يطأ أرض مصر ، وعند رفح يلتقى بحامل الكتاب ، ويدرك بذكائه مضمون الرسالة ، فيشرع فى شغل الرسول بالحديث فى أمور شتى ، والركب يغذ السير نحو أرض مصر ، فلما وطئها ، تناول الكتاب وفضه فماذا فيه : « ان أدركك كتابى قبل أن تدخل مصر ، فارجع الى موضعك ، وإن كنت قد دخلت فامض لوجهك واعلم أنى ممدك » ، وتجاهل

المكان ، وسأل : « أين نحن الآن ؟ » فقالوا : « نحن فى مصر » ، وهنا تلا كتاب الخليفة على الناس ، ثم أمرهم بالتقدم نحو هدفهم .

وفتح مصر باسم الله وتحت لواء الاسلام ، ووصفها ونيلها المبارك وواديها الأخضر ، ذلك الوصف الأخاذ فى التاريخ ... « مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر ميمون الغدوات ، مبارك الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان ، كجرى الشمس والقمر له أوان .. بينما هى درة بيضاء ، اذا هى عنبرة سوداء ، واذا هى زبرجدة خضراء ، فتعالى الله الفعال لما يشاء ، الذى يصلح هذه البلاد ، وينميها ، ويقر قاطنها فيها » .

على يديه انتشر فى مصر نور الاسلام وضوؤه ، أنقذها من مظالم الروم وجبروتهم ، وكان له فيها وفيما جاورها أيام وتاريخ .

هذا هو عمرو بن العاص .

صاحب الفضل الكبير على العرب وعلى الاسلام .. تميز بصفات جعلته فريدا فى قومه .. جمع بين السياسة والقيادة ، ولمع اسمه فى مجال السياسة كما لمع فى مجال الحرب .. اعتمدت عليه قريش فى جاهليتها ، فكان سفيرها الى النجاشى حين هاجر المسلمون الأوائل اليها ، واعتمد عليه المسلمون بعد أن دخل الاسلام وآمن به ، فكان سفيرهم الداعى الى الدين الجديد ، ثم كان جنديهم المظفر حين أسهم فى حروب الردة ومعارك فلسطين والشام ، ثم كان أسطورة التاريخ العسكرى وعميد الفن الحربى حين تولى قيادة الجيش الاسلامى فى مصر وشمال أفريقيا .

وهو فوق كونه سياسيا ممتازا وقائدا عظيما ، كان مصلحا اجتماعيا ومعلما هاديا ، وحاكما عادلا ، جمعت سماته القلوب من حوله ، دفعت به الى أكبر المناصب وأخطرها ، ورفعته الى مستوى الخالدين ، فكانت له فى التاريخ صفحات مشرقات .

كان عمرو كاتبا ممتازا ، وقارئا متفهما ، كان يجيد الشعر واشتهر بالفصاحة والبلاغة ، وعرفت عنه أقوال مأثورة ، وحكم بليغة ، مثل قوله لمعاوية « ان الكريم يصول اذا جاع ، واللئيم يصول اذا شبع ، فسد خصاصة الكريم ، واقمع اللئيم » .. ومثل قوله « أبلغ الناس من كان رأيه رادا لهواه ، وأسمى الناس من بذل دنياه فى صلاح دينه ، وأشجع الناس من رد جهله بحلمه » ، وكان معروفا بسرعة الرد وحدة الذهن وطول خطبة ، قال عنه أبو المحاسن انه كان يتلجلج فى الكلام ... وقال عنه ابن حجر « ما رأيت رجلا يعرف كلام الله معرفته » .

كان عمرو من أصحاب القوة الحيوية فاحتفظ بحضور ذهنه ومضاء عزمه حتى نجاوز التسعين ، كان شديد الاعتزاز بنفسه ، رآه عمر بن الخطاب وهو يمشى فقال « ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض الا أميرا » .

وكان ميالا الى الزعامة والقيادة ، طموحا متتبعا لما يراه عقله دون عاطفته .. أوتى من الشجاعة والاقدام وحسن البلاء والعلم والحكمة والحزم والوفاء والعزيمة والدهاء ما لم يجتمع لمثله الا فى القليل النادر من مشاهير الرجال ، كان فريدا فى عصره نابغة بين قومه ، نابا من أنياب العرب ، ليثا من ليوثهم ، دعامة من أقوى دعائمهم ، صادق العزيمة ، قوى الحجة ، ثابت الجنان .

سافر كثيرا فى شبابه .. سافر الى الشام والحبشة ومصر وخالط أقواما مختلفين ، فأكسبه ذلك معرفة بأحوال البلاد والعباد ، فارتقى تفكيره وسمت ثقافته واتسعت مداركه وازداد علمه .. شاهد فى مصر احتفالا أقامه أهل الاسكندرية ، واجتمع فيه أشرافهم يتبارون بكرة من ذهب ، فكانوا يترامون بها ويتلقونها بأكمامهم .. فمن دخلت الكرة كمه واستقرت به لا يموت الا اذا ملكهم .. وبينما هم يترامون بالكرة ويتلقونها بأكمامهم ، وقعت فى كم عمرو ، فتعجبوا لذلك وقالوا : « ما كذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة » .. وتساءلوا « أترى هذا الأعرابى يملكنا ؟ » .

وصدقت الكرة ولم تكذب ، فقد ملكهم عمرو ، وكان عهده عصرا ذهبيا لم تشهد البلاد عصرا مثله .

على طريق الهداية

عمرو بن العاص من بنى سهم ، وهؤلاء ينتمون الى كعب بن لؤى ، بطن من بطون قريش ، ذات الشرف والمجد ، كما روى النسابة الكلبى ، كانوا من أصحاب السيادة والسلطان فى مكة ، كان لهم باع طويل فى ادارة شئون قريش ، كانوا كثرة فى العدد وكثرة فى المال ، وكانوا أصحاب الحكومة فى الجاهلية ، وكانت لهم الأموال التى كان العرب يحبسونها على الأرباب والمعابد ، وكانوا يفصلون فى الخصومات ، واشتهر بالكرم واليسار والأدب والشعر والجاه .

كان أشهر رجالهم قيس بن عدى الذى ضرب به المثل فى العز ، فكان يقال « كأنه فى العز قيس بن عدى » ، والحارث بن سعيد الذى عرف بالكرم وقرى الضيف ، وعبد الله بن الزبعرى وهو من الشعراء المعدودين وقيل انه كان من أشد شعراء قريش على المسلمين قبل فتح مكة .

أبوه هو العاص بن وائل .. واحد من سادات قريش وأعيانهم وأشرافهم قال فيه عبد الله بن جدعان « انه يعتد بنفسه كأن الدنيا لم تخلق الا له » كان من ذوى اليسار ، وأكثر التجار نشاطا خلال رحلتى الشتاء والصيف ، عده المؤرخون من حكام قريش ... أدرك الاسلام ولكنه لم يتقبله ولم يؤمن به ، بل وقف فى وجه الدعوة ، وكان عنيفا شديدا فى مقاومتها ، واشتهر بطعنه وايذائه لرسول الله وأصحابه ، وانكاره لما يدعون اليه ، ومات فى الخامسة والثمانين دون أن يؤمن ، وظل حتى آخر أيامه يناصب الرسول العداء ، ويكيد له فى الجهر والخفاء .

وكان عمرو فخورا بأبيه حتى أنه كان يفخر به على الخلفاء ... قال يوما لرسول عمر بن الخطاب اليه « قبح الله زمانا عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فيه عامل ، والله انى لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حزمة من الحطب وعلى ابنه مثلها ، وما منهما الا من نمرته لا تبلغ رسغيه ، والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزررا بالذهب » ... ، وقال لعثمان بن عفان حين عزله من ولاية مصر « قد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك فوالله للعاص كان أشرف من عفان » .

أما أمه فهى سلمى بنت حرملة من بنى عذرة ، أصابتها رماح العرب ، وبيعت فى سوق عكاظ ، واشتراها الفاكه بن المغيرة ، ثم عبد الله بن جدعان الذى وهبها للعاص بن وائل .. وجاء فى السيرة الحلبية أنه وطئها أربعة هم العاص وأبو لهب وأمية بن خلف وأبو سفيان ، وأنها ولدت عمراً فألحقته بالعاص .. وكان عمرو على قدر اعتزازه بأبيه يخجل من نسبه الى أمه ، فقد كانت نقطة الضعف التى هاجمه منها خصومه ، ولاحقه بذكرها حساده . قالت له أروى بنت الحارث بن عبد المطلب ترد عليه سبه لها وشتمه اياها « ... والله ما أنت من قريش فى اللباب من حسبها ولا كريم منصبها ، ولقد ادعاك خمسة نفر من قريش كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم فقالت : كلهم أتانى ، فانظروا أشبههم به فألحقوه به ، فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به » .

وبينما الحياة تسير فى الجزيرة على وتيرتها ، وبينما عمرو يعيش حياته بين أهله وعشيرته ، ارتفع صوت رسول الله فى أرجاء مكة يدعو القوم الى الدين الجديد ، وأدركت قريش خطورة ما يدعو اليه محمد بن عبد الله ، فشمرت عن ساعدها ، وجمعت جموعها ، وحملت عبء مناهضة الدعوة ومحاربة الداعى لها والمؤيدين والسائرين فى ركابه ، وكان العاص من أشد المعارضين .. وسلك الابن مسلك أبيه ، فعارض الدين الجديد فى شدة ، وقاومه فى عنف ، حتى أنه كان سفير قريش الى النجاشى ، محذرا اياه من المسلمين المهاجرين الى أرضه ،

ومطالبا بإخراجهم وتسليمهم ، وقد بذل عمرو جهــدا كبيرا فى محاولة اقنــاع النجاشى ، ورغم مهارته فى الحديث ، وحذقه فى الحوار ، ودهائه ، فقد فشل فى هــذه السفارة .

ورغم كراهيته الشــديدة للاسلام ومقاومته له فانه لم يشارك مشاركة فعالة فى الحروب المتعددة التى اشتد أوارها بين قريش والمسلمين، لم يكن ضمن جيش قريش فى بدر ، ورغم أنه خرج مع الخارجين فى أحد والخنــدق الا أنه لم يكن له دور يذكر .

كان هناك دافع داخلى يدفعه الى أن يرقب الأحداث ، فلما رأى نصر المسلمين فى موقعة اثر موقعة ، وفى لقاء وراء لقاء ، جمع قومه وأشار عليهم أن يلحقوا بالنجاشى يقيمون عنده يرقبون الموقف ، فاذا انتصر الرسول كانوا بعيدين عن يديه ، واذا انتصرت قريش رجعوا اليها .. ذكر الطبرى « قال عمرو : لما انصرفنا مع الأحزاب عند الخندق ، جمعت رجالا من قريش ، كانوا يرون رأيى ويسمعون منى ، فقلت لهم : تعلمون والله انى لأرى أمر محمد يعلو علوا منــكرا ، وانى قد رأيت أن نلحــق بالنجــاشى فنكون عنــده ، فان ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى ، فانا أن نكون تحت يديه أحب الينا من أن نكون تحت يدى محمد ، وان يظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلا يأتينا منهم الا خير » .

وذهب عمرو الى الحبشة ، وظل هناك يرقب وينظر ، فلما بلغته أخبار انتصارات المسلمين بدأ يفكر فى أمر نفسه وحياته .

وعاد الى مكة وفى نفسه شىء ، فقد آمن بالاسلام دينا وبمحمد رسولا ، واستقر أمره على اعلان اســـلامه ، وخاصة بعد أن نصحه النجاشى قائلا « أطعنى يا عمرو واتبعه ، فانه والله لعلى الحق ، وليظهرن على ما خالفــه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده » .

وبعد الحديبية ... فى العام الثامن الهجرى ... كسب الاسلام عمرو ابن العاص ، فقد اختار الله له طريق التوبة والرحمة ، فهداه الى الاسلام .. وخرج الى المدينة ، فالتقى فى الطريق بخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة الحجبى فقال لهما « ان دين محمــد يعلو ودين الأصــنام يهوى ، وقد ظللنا طويلا فى بهتاننا حتى أذن الله ، وكم أنا نادم على هــذا التأخــير ولا أدرى كيف أقابل رسول الله بعد ما قدمت » ، وقال أيضا « قد وقع فى نفسى أن ما يقول محمد عن البعث حق » ، ثم أردف « لا خير من التمادى فى الباطل » .

واستقبله رسول الله وقبل منه اسلامه ، فقال للرسول « يا رسول الله ، انى أبايعك على أن يغفر الله لى ما تقدم من ذنبى » ، فطمأنه رسول الله ، وقال

له « ان الاسلام يجب ما قبله » ... وكان سعيدا غاية السعادة باستقبال الرسول له حتى أنه كان يظهر ندمه لتأخره فى اتخاذ هذه الخطوة ، وقال فى ذلك « ... ثم قدمت فو الله ما هو الا أن جلست بين يديه صلى الله عليه وسلم ، وما استطعت أن أرفع طرفى حياء منه ... ولو سئلت أن أنعته ما استطعت لأنى لم أكن أقدر أن أملأ عينى منه اجلالا له » .

ولكن الذى يثير الانتباه هنا هو كيف تأخر عمرو عن الاسلام ، وهو هو الذى نعرف عنه الحكمة والعلم والدراية وحسن التقدير ؟ .. انه يفسر هذا الموقف بنفسه ... كان أبوه شديدا على الاسلام والمسلمين ، وكان هو من المعتدلين الى حد ما فى معارضة الدين الجديد ، ولكنه كان يخشى شدة أبيه وشدة قومه ، فأخفى مشاعره وظل يرقب الموقف .

وسئل فى ذلك « ما أبطأ بك عن الاسلام وأنت فى عقلك ؟ » ، فأجاب « انا كنا فى قوم توازن حلومهم الجبال ، ما سلكوا فجا فتبعناهم الا وجدناه سهلا ، فلما أنكروا على النبى صلى الله عليه وسلم أنكرنا معهم ، ولم نفكر فى أمرنا وقلدناهم ، فلما ذهبوا وصار الأمر الينا ، نظرنا فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم وتدبرناه ، فاذا الأمر بين ، فوقع فى قلبى الاسلام » .

وسأل عمر بن الخطاب عمرا « لقد عجبت لك فى ذهنك وعقلك ، كيف لم تكن من المهاجرين الأولين ؟ » ، فقال له عمرو « وما أعجبك يا عمر من رجل قلبه بيد غيره لا يستطيع التخلص منه الا ما أراد الذى هو بيده » ، فقال له « صدقت »

المهم هو أنه دخل الاسلام عن ايمان ، فكان اعلان اسلامه قائما على أساس من رضاء العقل وراحة الضمير وايمان القلب .. رشحه مرة رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعثة يغنم منها كثيرا فقال لرسول الله « ما أسلمت من أجل المال بل أسلمت رغبة فى الاسلام » .

وكان أول عمل لعمرو بعد أن أعلن اسلامه تحركه بسرية الى سواع حيث كان هناك صنم لهذيل على بعد ثلاثة أميال من مكة ، كانوا يحجون اليه ويعبدونه ويقضون عنده النذور ... أرسله رسول الله لهدم سواع ، وروى عمرو قصة خروجه فقال « .. فانتهيت الى ذلك الصنم ، وعنده سادنه ، فقال لى : ما تريد ؟ قلت : أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهدمه ، قال: لا تقدر ، قلت : لم ؟ قال : تمنع ، قلت : حتى الآن أنت على الباطل ، ويحك!! وهل يسمع أو يبصر حتى يمنعنى . ودنوت منه فكسرته ، وأمرت أصحابى فهدموا بيت خزانته ، فلم نجد فيها شيئا ، ثم قلت للسادن : كيف رأيت ؟ قال: أسلمت لرب العالمين »

أسلم عمرو عن يقين واقتناع وعقيدة ، بعد أن دخل الإسلام قلبه وعقله وفكره ، ولهذا كان من أكثر الناس علما بشئون الدين ، واقبالا على دراسته ، للوقوف على تعاليمه ومختلف آرائه ومبادئه وأصوله وأوامره ونواهيه .

***

اكبر رسول الله علمه وتفقهه ، فبعث به الى مملكة عمان دون جيش ودون سلاح ، لم يكن معه سوى كتاب من رسول الله الى الأخوين جيفر وعباد يدعوهما الى الاسلام ، وكانا وأهل المملكة يعبدون النار . ولم يشأ عمرو أن يعرض الكتاب وأن يكشف عن الهدف بمجرد وصوله الى هناك ، فهو صاحب فكر سياسى قدير يحسن التصرف ويجيد معالجة الأمور ، لهذا رأى أن يدرس عن قرب شخصية الأخوين حتى يجد الأسلوب العامى لاقناعهما ، وعرف أن الملك عباد الصغير أكثر حلما من أخيه وأرق خلقا ، وأن الأخ الأكبر أحرص على الملك .

ومن هذه المعلومة بدأ عمرو مهمته مع عباد ، فعرض عليه الاسلام ، وشرح له أصوله ، وأوضح له أبعاده ، وأبان له أنه دين الدنيا والآخرة ، فيه سعادة الدارين ، ثم عرض عليه « اذا أسلمت أنت واخوك ظللتما على ملككما وسلطانكما تنفذان فيه أمر الله فتنصران المظلوم وتعينان الضعيف وتأخذان من الغنى حق الفقير ... أسلم يؤتك الله ثواب الدنيا والآخرة » .

ونجح معه وأقنعه ، حتى عرض أن يرافقه الى حيث أخوه ومهد له الطريق ويسر عرض الرسالة « أرى أن أذهب معك الى أخى لنقرأ عليه كتابك ثم تسمع رده وتتصرف بلباقتك وذكائك ، وأنا من خلفك أعينك وأدفعه الى قبول دعوتك ، وأرجو أن يأذن الله له بالاسلام ويشرح قلبه للايمان » .

وكسب عمرو الجولة الثانية فقد أسلم الأخوان ، وأسلم معهما قومهما ، وبقى عمرو معهم ينشر بينهم نور الله ويقرئهم كتابه ، يعلمهم القرآن ويفقههم فى الدين .

الأمن وسلامة القوات

بدأت عبقرية عمرو العسكرية وتميزه الحربى يتضحان فى أول عمل عسكرى ولاه اياه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فبعد اسلامه وفى جمادى الآخرة سنة ثمان هجرية ولاه الرسول قيادة سرية الى بلاد بلى (قبيلة تنتسب الى بلى بن عمرو بن قضاعة) ، وعذرة (قبيلة تنسب الى عذرة بن سعد بن قضاعة) ، وتقع وراء وادى ذات القرى ، بينها وبين المدينة عشرة أيام .

قال عمرو « بعث الى رسول الله يأمرنى أن آخذ ثيابى وسلاحى فقال : يا عمرو انى أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك » . وعقد رسول الله له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء ، وكان قوام السرية ثلاثمائة من سراة المهاجرين والانصار ومعهم ثلاثون فارسا .

خاض عمرو بهذه السريه معركة عرفت فى التاريخ باسم ذات السلاسل، وحقق فى هذه المعركة نصرا عظيما بدأ به حياته العسكريه وكان فاتحة خير له . فقد اثبت خلال المعركه كفاءه قياديه عاليه ، كما تجلى بوضوح تميزه العسكرى وتفوقه الحربى .. لقد عالج امور المعركه بمنهاج جديد وأسلوب متطور ، وتأكدت قدرته الفائقة على التخطيط البارع للمعركه .

ما ان تقدم عمرو على رأس السرية الى مواقع عدوه حتى علم ان جمعا كثيرا من قضاعه قد تجمع ، ولاحظ قلة عدد رجاله ، فبعث الى رسول الله برافع بن مكيث الجهنى يستمده ، حتى لا يعرض رجاله الى موقف حرج ، حيث كان واضحا قلة عددهم بنسبة لا تمكنهم من القيام بعمل يشرف به الاسلام، وأمده رسول الله بمائتين من المهاجرين والانصار ، فيهم أبو بكر وعمر وعليهم أبو عبيدة بن الجراح ، وقال رسول الله لأبى عبيده حين وجهه « لا تختلفا » .

ولما اكمل الاعداد للمعركه ، هاجم عمرو العدو ، وحمل عليه حملة منكره ، واضطره الى الفرار فى داخل البلاد ، فتفرق جمعه وتشتت شمله ، وظل عمرو فى موقعه ثلاثه أيام حتى تأكد له النصر ... ووصف البلاذرى القتال فقال « لقى العدو من قضاعه وعبرهم وكانوا مجتمعين ففضهم (أى فرقهم) وقتل منهم مقتلة عظيمة وغنم » .

فى هذه المعركة رغم صغر حجم القتال فيها برزت أمور ذات أهمية عسكرية ألقت الضوء على كفاءة عمرو وقدرته .. أمور لم تكن معروفة فى زمن عمرو ولكنه أدركها ، بفكره الثاقب وادراكه الواعى وعقله الفاهم ووضع لها قواعدها وأصولها .

ولقد أثبت تاريخ الحرب أن الأجيال العسكرية التى جاءت بعد عمرو قد تابعت هذه المبادىء والأصول ووضعتها موضع التجربة فى مختلف معاركها وتأكدت من سلامتها وأهميتها وضرورة تطبيقها ، وتلقت القيادات العسكرية الحديثه هذه المبادىء والأصول ووضعتها نصب أعينها وأعطتها عناية اهتمامها ورعايتها .

عندما وصل المدد الذى كان على رأسه أبو عبيدة ، قام خلاف بين المسلمين حول منصب القياده ...

من الذى يتولى قيادة المعركة ؟؟

هل هو عمرو بصفته أول من بعثه الرسول الى هذا المكان ؟..

هل هو أبو عبيدة بصفته قائد الامداد ؟..

وكان موضوع القيادة هو أول مشكلة يتعرض لها المسلمون ، فقد عرض ابو عبيدة أن يبقى عمرو على سريته ، وأن يظل هو على مدده « أنا على ما أنا عليه ، وانت على ما أنت عليه » ..

واعترض عمرو على هذا المنطق الذى لا يتفق مع طبيعة الحرب ، فان المعركة لا يقودها أبدا قائدان ، **وان الجند لا يتلقى أوامره من رئاستين** ... ففى ذلك مضيعة للجهد ، وتفرقة للشمل واخلال بأهم ما تحتاجه المعركة من وحدة الصف والتضامن .

وشرح عمرو لأصحابه أن **وجود القيادتين يزعزع ثقة المقاتلين ، ويورد الجيش موارد الهلاك** ، وأبى الا أن تتحد القيادة فى شخص واحد يكون مسئولا عن مواجهة العدو ويتحمل وحده نتيجة المعركة .

قال أبو عبيدة « يا عمرو ليست لك الامامة، فقد بعثنى رسول الله أميرا »، ورد عليه عمرو بوجهة نظره « بل أمرنى رسول الله يا أبا عبيدة ، وانما أنت مدد ، وقد أصبحت أنت ومن معك جزءا من جيشى » ... وكأنما عز على أبى عبيدة أن يكون هو وأبو بكر وعمر تحت قيادة عمرو وهو حديث عهد بالاسلام فقال له : « ولكنهم كبار الصحابة » ، وهنا تبرز حكمة عمرو اذ يقول له : « ولكنا فى جهاد يا أبا عبيدة ، تتساوى فيه السيوف والمقامات وانت وهم تحت امرتى لأنكم مدد لى ، وسوف أؤم الناس » ، ويصر عمرو على رأيه « لن يكون هناك الا أمير واحد ، ولن يؤم الناس الا واحد ، اننا سنعمل صفا متحدا يتمثل فى هذه الصلاة » .

وكان أبو عبيدة رجلا سهلا هينا عليه أمر الدنيا ، حسن الخلق لين العريكة ، فلما استمع الى ما قاله عمرو قال له « يا عمرو ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لى لا تختلفا ، وانك ان عصيتنى أطعتك » فقال له عمرو « فانى الأمير عليك ، وأنت مدد لى » فوافق ، واقتنع أبو عبيدة ورضى بأن يكون تحت امرة عمرو ..

وتوحيد القيادة مبدأ هام وخطير ، وخاصة فى مجالات الحرب ، ولم يسجل تاريخ الحرب ان معركة دارت بين قوتين كانت احداهما تحت رئاستين ..

ولقد تعرض المسلمون لموقف مشابه فى اليرموك الا أن خالد بن الوليد

حسم موقف القيادة تماما كما حسمه عمرو بن العاص فى ذات السلاسل ، وجعل القيادة متمثلة فى شخص واحد ، يتحمل المسئولية ويدير المعركة ويقود الناس ويحقق بهم النصر .

وبمراجعة احداث معركة اليرموك نجد أن عمرو بن العاص كان يطالب دائما بتوحيد كافة الوية المسلمين تحت قيادة واحدة فقد قال لهم « ان الرأى الاجتماع ، وذلك أن مثلنا اذا اجتمع لم يغلب من قلة ، فأما ان تفرقنا لم تقم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدونا » .. ولقد أيده فى ذلك فى حينه أبو بكر الصديق حين كتب لهم « اجمعوا عسكرا واحدا ، والقوا زحف المشركين بزحفكم » .. ولقد أيده كذلك خالد بن الوليد فى قوله الأمراء المسلمين « هلموا فلنتعاور الامارة فليكن بعضنا اليوم والآخر غدا » ..

وظهرت مشكلة أخرى

كان الجو قارسا شديد البرودة ، وطلب المسلمون أن يوقدوا نارا تخفف عنهم حدة البرد ، وذكر ابن عساكر أن عمرو بن العاص رفض السماح لهم ، فغضب عمر بن الخطاب وشق ذلك عليه لما كانوا فيه من شدة البرد ، فتشاور مع أبى بكر فقال له « دعه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعثه علينا الا لعلمه بالحرب » ، فسكت عمر ، وجاء المسلمون الى أبى بكر وطالبوه بالتحدث اليه فى هذا الشأن ، فلما كلمه قال له « لا يوقد أحد نارا الا قذفته فيها » .

ما هى المشكلة هنا ؟؟؟

المشكلة أن الجو بارد والناس فى حاجة الى نار تخفف من حدة البرد ... والقائد يرفض السماح بايقاد النار ، لأن ايقاد النار من وجهة نظره مشكلة تفوق مشكلة البرد ....

كيف ؟.

كان عمرو يرى فى ايقاد النار خطرا على قواته المحاربة ، وقد أوضح هذا الخطر لرسول الله حين سأله عليه السلام عن سبب عدم السماح لجنده بايقاد النار قال « خفت أن يمتد الضوء فيكشف المسلمين لأعدائهم وهم قلة فينقضوا عليهم » ...

اذن فلم يكن الأمر تشددا منه ، ولكنه كان حرصا منه على صالح قواته وأمنها .. وسلامة القوات من أهم المهام التى تقع على عاتق القائد ، والقائد الناجح هو الذى يحقق لجنده السلامة والأمن قبل الاشتباك ، وخلاله ، وبعده ....

وهذه السلامة هى ما يطلق عليها فى الحرب الحديثة اسـم السـلامة الحربية وهى تعنى وقاية القوات المحاربة وحمايتها ...

وموقف عمرو هو موقف الفكر العسكرى السليم الذى يتفق مع ما تنتهجه المدارس العسكرية الحديثة ، فان مجرد اشعال عود ثقاب قد يكشف موقعـا للعدو هو جاهل بمكانه ، فيكون هدفا لهجومه أو نيرانه ، **ولهذا تحـرص القيادات الحديثة على ضرورة الاظلام التام خلال الاشتباك ، ويعتبر الظهـور أى شعاع عملا خطيرا لا يتفق مع أمن القوات وسـلامتها** ، وهناك بعض **القيادات — ان لم تكن كلها — تمنع رجالهـا وقت الحرب من حمـل رتب** نحاسية أو استخدام أدوات تلمع أثناء الاظلام التام ... وان من أهم ما استقر عليه رأى القادة فى مختلف المدارس العسكرية هو أن السلامه هى أسـاس خطة الحرب وان القائد هو وحده الذى يقرر الأسـلوب الذى يحقق هذه السلامه ، وهى مسئوليه وحده وان الجيش الذى تصبح سلامته مهدده يفقد حرية العمل ويصبح هدفا سهلا لعدوه .

اذن فعمرو كان صائبا فى رأيه رغم أن هذا الرأى أغضب الناس وكان من مبادىء الحرب .

ومشـكله أخرى تظهر على مسرح الأحداث فى هذه السرية الصـغيرة الحجـم ...

فبعد أن انهزم العدو وتفرق فى البلاد ، أبدى بعض الجند المسـلمين الرغبة فى مطاردته واقتفاء اثره ، فحال عمرو بينهم وبين ما يرغبون وقال لهم « اسكنوا ولا تتبعوا الفارين » ، فتضايقوا لمنعهم وقالوا « كيف لا نأخذ أسلابهم وكيف لا نتبعهم حتى نقضى عليهم » ، فأجابهم « كفى هذه الرءوس التى تملأ بطن الوادى » ، فلما أرادوا مناقشته حسم الأمر قائلا « هكذا أمرت ، ومن تبعهم فليس له الا أشد العقاب » .

الجند اذن يطالبون الاذن لمطارده العدو الهارب املا فى أسرى ... أخذ الأسـلاب ثم الاستيلاء عليه ... ولكن القائد يرفض مطلبهم لحكمة أو أكثر ..

فهو أولا يريد أن يلقنهم درسـا يتصل بأصل الدين ويرتبط بالايمان ، فان الخروج فى سبيل الله يجب أن يكون صادقا لله وحده لا أملا فى غنيمه أو كسب أو جاه ... وكان هو فى ذلك المثل والقدوة ، فقد دعاه رسـول الله « يا عمرو انى أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسـلمك » ، فقـال للرسول « انى لم أسلم رغبه فى المال » ، فقال له رسـول الله « نعم المـال الصالح للمرء الصالح » .

وهو ثانيا كان يعلم أنه يقاتل فى ارض عـدوه ، وأن عدوه اكثر منـه

عددا ، وانه يستطيع أن يجمع الجموع ضده ، وكان يعلم قلة رجاله فخاف ان سمح لهم بما يطلبون أن يحتج اليهم عدوهم وقد عرف قلبهم ، فيهزمهم .

وقد شرح عمرو وجهة نظره هذه لرسول الله عندما سأله عليه السلام « ألا تركتهم يتبعون المنهزمين » ؟ فقد قال « ... كنا نحارب فى بلادهم يا رسول الله وقد خشيت أن تكون لهم مدد فينقض على المسلمين اذا تبعوهم ويبعدوا عن مواضعهم » .

❊ ❊ ❊

نقطة أخيرة تعمدت أن أتركها حتى أصل الى آخر الحديث عن هذه السرية وكان مكانها أصلا فى بداية الحديث .

روت كتب التاريخ أن عمرو بن العاص حين تلقى أوامر الرسول بالتحرك الى مواقع بنى قضاعة ، خرج من المدينة ليلا ... وكان يحرص خلال تقدمه على ان يكون التحرك دائما فى الليل فكان يكمن نهارا ويسير ليلا .

لماذا نهج عمرو هذا المنهج فى التحرك ؟

انه يعلم انه على الطريق الى قتال ، ويعلم أيضا أن العدو فى انتظار وصوله ، ويعلم أيضا أن العدو قد يسعى الى معرفة أخباره قبل اللقاء ، حتى يعد نفسه له فى ضوء ما تتجمع لديه من معلومات عنه ..

من خلال هذه المعانى كلها ، رأى عمرو أن يكون تحركه ليلا حتى يمنع العيون عن ملاحقته ، وحتى يضمن سلامة قواته ..

هذا فوق أن التحرك يتم فى منطقة صحراوية تشتد فيها الحرارة نهارا ، مما يجهد الجند ويعرضهم لمتاعب كثيرة ، قد تؤثر عليهم حين يصلون الى مراكز المواجهة ، ولهذا كان التحرك ليلا يحميهم من الحر والجهد ، ويبقى لهم نشاطهم ، فيصلون الى مكان اللقاء موفورة قوتهم متكاملة معنوياتهم .

اذن فعمرو — حين أمر بالسير ليلا والتوقف نهارا — كان يستهدف أمرين هامين هما :

- اخفاء تحركات قواته عن عدوه .
- حماية قواته من حر الصحراء .

ولقد أصبح هذان الأمران من أهم ما يشغل بال القادات فى الحروب الحديثة . ولعل القارىء قد لاحظ أن تحركات الجيوش فى العصر الحديث تتم خلال الظلام وفى الليل ، وتقيد هذه التحركات كلما أمكن نهارا ضمانا لسلامة القوات وحرصا على أمنها وتأكيدا للسرية التى تتطلبها ظروف القتال .

ومن هنا يكون عمرو بن العاص صاحب نظرية « سلامة القوات » التى آمنت بها كل المدارس العسكرية التى جاءت بعده ، وأخذ بها كافة العسكريين الذين قادوا الجيوش وخاضوا غمار المعارك .

توجيهات القائد العام

جمع ابو بكر أصحابه ومستشاريه من رجال الرأى من المسلمين وذكر لهم ان رسول الله كان قد اعتزم أن يصرف همته الى الشام لولا أن الله قبضه ، وقال « العرب بنو ام وأب ، وقد اردت أن استنفرهم الى الروم بالشام ، فمن هلك منهم هلك شهيدا ، وما عند الله خير للأبرار ، ومن عاش منهم عاش مدافعا عن الدين مستوجبا على الله عز وجل ثواب المجاهدين » .

ووافق المجتمعون — وكان منهم عمر وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن ابى وقاص وابو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وزيد ابن ثابت — على فكرة المسير الى الشام ، وبدأ الاعداد لهذا الغزو الجديد .

كان عمرو فى هذه الآونة مقيما فى قضاعة ، فبعث اليه ابو بكر يعرض عليه البقاء حيث هو او الاشتراك فى العمليات « اردت أبا عبد الله أن افرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك الا أن يكون الذى انت فيه أحب اليك » ، ورد عمرو فقال « انى سهم من سهام الاسلام ، وأنت بعد الله الرامى بها والجامع لها ، فانظر اشدها واخشاها وافضلها ، فارم بها شيئا ان جاءك من ناحية من النواحى » .

وهكذا آثر عمرو حياة الجهاد والكفاح ونبذ حياة الخمول .

سير أبو بكر أربعة جيوش الى بلاد الشام تحت قيادة ابى عبيدة بن الجراح ، وحدد لكل جيش هدفه .. وتولى عمرو بن العاص قيادة الجيش الثانى وكان عدده تسعة آلاف من أهل مكة والطائف وهوازن وبنى كلاب ، وكانت وجهته فلسطين ، (قاد الجيش الأول أبو عبيدة وكان هدفه حمص ، والثالث يزيد بن أبى سفيان وكان هدفه دمشق ، والرابع شرحبيل بن حسنة وكان هدفه وادى الأردن) .

وكان عمرو يطمع فى أن يكون هو فى مكان القيادة العامة بدلا من أبى عبيدة ، فخاطب عمر بن الخطاب ليكلم له أبا بكر ، قال له « يا أبا حفص انت تعلم شدتى على العدو وصبرى على الحرب ، فلو كلمت الخليفة ان يجعلنى اميرا ، وقد رأيت منزلتى عند رسول الله ، وانى لأرجو ان يفتح الله على يدى البلاد ويهلك الأعداء » .

ولكن عمر رفض طلبــه قائلا « كلا ، ما كنت لاكذبك ! وما كنت بالذى اكلمه فى ذلك ، فانه ليس على أبى عبيدة أمير ، ولأبى عبيدة عندنا أفضـــل منزلة منك واقدم سابقة ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال فيه : أبو عبيـــدة أمين الأمة » .. ثم قال له « ... اتق الله ، ولا تطلب الا شرف الآخرة ووجه الله تعالى » ، واقتنع عمرو ، فاستدعاه أبو بكر وسلمه راية الجيش الثانى ، وزوده ببعض النصائح والتوجيهات .

وقال له ...

« قد وليتك هذا الجيش ، فانصرف الى أهل فلســـطين .. ، وكاتب أبا عبيدة ، وانجده اذ أرادك ، ولا تقطع أمرا الا بمشورته » .

وقال ايضا ...

اتق الله فى سرك وعلانيتك ، واستحيه فى خلواتك فانه يراك فى عملك ، وقد رأيت تقدمتى لك على من هم اقدم منك سابقة واقدم حرمة ، فكن من عمال الآخرة ، وأرد بعملك وجه الله ، واســـلك طريق ايلياء حتى تنتهى الى فلسطين ، واياك أن تكون دانيا عما ندبتك اليه ، واياك والوهن ، واياك أن تقول جعلنى ابن أبى قحافة فى نحر العدو ولا قوة لى به .

وقال ايضا ...

اعلم يا عمرو أن معك من المهاجرين والانصـــار من أهل بدر ، فأكرمهم واعرف حقهم ، ولا تتطاول عليهم بسلطانك ، ولا تداخلك نخوة الشـــيطان ، فتقـــول انما ولانى أبو بكر لأنى خـــيرهم .. واياك وخدائع النفس ، وكن كأحدهم ، وشاورهم فيما تريد من أمرك .. والصلاة ثم الصلاة أذن بها اذا دخل وقتهـــا .

وقال ايضا ...

واحذر من عدوك ، وأمر أصـــحابك بالحرص ، ولتكن أنت بعـــد ذلك مطلعا عليهم ، واطل الجلوس بالليل مع اصحابك ، وأقم بينهم واجلس معهم ، واتق الله اذا لاقيت العدو ، وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك ، واذا وعظت فأوجز ، وأصـــلح نفســـك تصلح لك رعيتك ، واذا رأيت عدوك فاصـــبر ولا تتأخر ، فيكون فى ذلك فخرا منك .

وقال ايضا ...

والزم أصحابك قراءة القرآن ، وانههم عن ذكر الجاهلية ، وما كان منها فان ذلك يورث العداوة بينهم ، واعرض عن زهوة الدنيا حتى تلتقى بمن مضى

من أســـــلافك ، وكن مع الأئمة الممدوحين فى القرآن ، اذ يقول الله تعالى : « وجعلناهم ائمة يهدون بأمرنا واوحينا اليهم فعل الخيرات واقام الصلاة وايتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » .

وجاء فى نهاية هذه التوجيهات ...

« امض بارك الله فيك وفيهم » ...

هذه هى توجيهات ابى بكر القائد الأعلى للقوات الاســـلامية الى قائد احد جيوشه المتحركة الى بلاد الشام ...

هذه التوجيهات تحمل بين كلماتها معانى جليلة ومفاهيم سديدة ومبادىء خالدة ترتبط بالحرب أعظم وأوثق ارتباط ، ونظرا لأهميتها ، ونظرا لما حوته من مبادىء حربية هامة ، فقد ترجمها عدد كبير من مؤرخى الافرنج ومنهم جبون Gibbon فقد أوردها فى كتابه « تاريخ ســـــقوط الامبراطورية الرومانية »
The history of the Decline and fall of Romane

ومنهـــم ايرفنج Irving فقد اشتمل كتابه « تاريخ خلفاء محمد » على هـــذه الوصية A History of the lives of Successois of Mohamet.

ناشد القائد العام عمرا ان ينجد ابا عبيدة ان اراد منه عونا ومساعدة ، والتعاون بين الجيوش خلال العمليات أمر جوهرى يجب أن يكون موضـــــع الاعتبار ، وهذا التعاون من شأنه أن يوحد العمل فى الجبهة ضد العدو بصورة تجبره على تشتيت قواته لتواجه الضغط من جميع الجهات ، مما يضعف قوة المقاومة عنده ويهيىء الطريق الى النصر .. وجميع القيادات العســـكرية فى الحرب الحديثة تضع فى اعتبارها عند التخطيط المعركة ضرورة توافر التعاون والتنسيق بين جميع الوحدات ، ويأتى فى المقام الأول من هذا التعاون والتنسيق وضع خطة النيران بحيث تكون متداخلة ومعاونة فى تحطيم منشآت العدو أو فى هدم خنادقه أو فى اصابة أهدافه .

- أوصى القائد العام قائد جيشه بأن ينهج نهج رسول الله فى عدم الانفراد برأى ، والرجوع الى أصحابه يستشيرهم فى الأمور ، فالشـــــورى وتبادل الرأى يقودان دائما الى الرأى الســـــليم الصحيح الذى يعود بالفائدة على المجموع ويحقق الأمل فى النصر ..

والشورى من المبادىء الهامة التى دعا اليها الاســـــلام . واذا كانت الشورى لازمة فى أمور الحياة الجارية فهى الزم هذه الأمور فى حالات الحرب

والقتال ، والرأيان دائما أفضل من رأى واحد ، وعلى القائد قبل خوض المعركة ان يعرف كافة الآراء ، وأن يشاور أولى الرأى ومستشاريه فى كل ما يراه قبل أن يتخذ رأيا معينا . . وكان هذا هو أسلوب رسول الله فى كافة غزواته . . وهذا التوجيه يتفق مع مهمة هيئة الأركان التى تشكلها قيادات اليوم لتعطى للقائد النصيحة والمشورة والرأى .

نبه القائد العام الى ضرورة التوجــه الى الله بالقلب والوجدان طلبــا لتأييده ونصرته .. وهذا هو غاية الايمان .. والايمان بنصر الله يمنح المحارب الثقة والقوة والشجاعة والعزم والصبر والجلد ، ويجعله يستهين بالموت فى سبيل رسالته وهدفه .. هذا فوق أن الايمان بنصر الله يولد فى نفس المحارب حب الطاعة ، الطاعة فى المعركة من أهم أسلحة النصر .. ولعلنــا نلحظ فى تشكيل جيوش اليوم وجود عدد كبير من رجال الدين على مختلف مســـتوى التشكيلات ، يؤدون مهمتهم ويثيرون الاحساس الدينى لدى المقاتل ، ويذكرونه بواجبه ويرددون على مسامعه صور البطولات ، ويدعونه الى التقرب الى الله جهادا فى سبيله دفعا لأعدائه ونصرة لدينه .

وفى الوصية عالج القائد العام نفسية قائد الجيش ، فهو يعلم أن القائد مرآة الجند يرون فيها أنفسهم ، فاذا كان القائد على مســـتوى مرتفع من المعنويات كان جنده على شاكلته ، ولهذا رأى القائد العام أن يرفع معنويات قائد الجيش ، وأن يثير احساسه بالمسئولية ، فجعل تحت قيادته من هم أقدم منه مثل أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فهؤلاء لهم سابقة وفضل ومكانة . . وان احساس عمرو بأنه يقود مثل هؤلاء يولد فى نفسه ثقة كاملة تهيئه للعمل الجاد الذى يتناسب مع حسن ظن القائد العام ومع أمله فيه ، ومع تكريمــه له ، وتفضيله على غيره من أصحاب السبق فى الاسلام .

ونصح القائد العــــام قائد جيشــه بأن يكون قدوة ومثلا ، فلا يخاف ولا يتردد ، ولا ينافق ولا يجبن .. يتمســـك بالمبادىء القويمة والأخـلاق الكريمة والمثل العليا ، فيكون صورة واضحة المعالم يرى فيها الجنــد ملامح القائد الحازم الكريم المغوار القوى الحكيم .. لقد طاب القـــائد العـــام من عمرو أن يتصف بالتواضع ، فلا يتطاول على جنده بسلطانه ، ولا ينســـاق وراء عواطفه ومشاعره ، فيخدع نفسه ، وطلب منه ألا يدع نفسه فريســة للغرور والكبرياء ، فكلاهما مرض خطير يقتل القائد اذا تملكه ، ويمتــد أثره فيقتل الجيش كله .. وقد يكون أثره أكثر بعدا واتســـاعا فيصيب الأمــة اصابة قاتلة . . .

والقائد العام — احساسا منه بضرورة المحافظة على الجنــد وضــمان

سلامتهم لأنهم سند الاسلام وحراسة وسياجه — طلب من قائد الجيش أن يأخذ حذره ، وأن يقيم الحراسة اللازمة حتى لا يفاجئه العدو ويأخذه على غرة ... ولا ريب فى أن الحراسة هى المانع القوى المنيع أمام مفاجآت العدو، وما قد يترتب على هذه المفاجآت من خسائر فى العتاد والأرواح ... ولقد اصبحت الحراسة من اهم متطلبات المعركة الحديثة ، تقوم بها دوريات خاصة منتقاة ، ونقط حراسة يقظة تسهر وترقب وتلاحظ ، وتمنع فى الوقت المناسب تدخل العدو دون استعداد لمواجهة هذا التدخل .

وأدرك القائد العام اهمية الاستطلاع كعملية هامة وجوهرية عند اقرار خطة العمليات ، فالاستطلاع يضع بين يدى القائد صورة واضحة عن العدو فتكون لديه المعلومات عن عدده وسلاحه وخططه ومعنوياته وحلفائه . وكلما تجمعت المعلومات الصحيحة السليمة لدى القائد تمكن من وضع خطة المعركة وهو مطمئن الى نجاحها ... وكلما كانت هذه المعلومات ذات قيمة وفائدة كان من السهولة تنفيذ الخطة وضمان النصر ... ولهذا فان القائد العام يوصى قائد الجيش بضرورة الاهتمام بالاستطلاع وارسال العيون .

وجمع المعلومات عن العدو اصبح مهمة ذات شأن كبير فى العصر الحديث ، تقوم بها اجهزة كثيرة منها دوريات الاستكشاف وأجهزة المخابرات والطوابير السرية ورجال الجاسوسية ، وتعطى الدول لهذه الأجهزة كل عناية ورعاية ضمانا لوصول معلومات سليمة صحيحة عن العدو ، وتباشر هذه الأجهزة أعمالها وقت السلم ووقت الحرب ، الا أن عملها وقت الحرب يأتى فى المقام الأول ، حيث أن المعلومات التى توضع أمام القيادة ، تكون عاملا هاما وضروريا وخطيرا فى تقدير الموقف ووضع الخطة ، وان كافة الدول فى العصر الحديث ، تضع كافة امكانياتها فى خدمة هذه الأجهزة تقديرا لخطورة الدور الذى تقوم به وأهميته .

ها هى ذى توجيهات القائد العام ، وهى فى حقيقة الأمر دستور يجب أن يلتزم به القائد ... وهى فى مبناها العام تتفق مع أصول الحرب الحديثة ، وهى بسبقها تكون مفخرة للعقلية الاسلامية العسكرية التى وضعت يدها عليها وطبقتها فى حروبها ، وأكدت صحتها وسلامتها وأهميتها .

ارطبـــون العـــرب

واجه عمرو مائة الف مقاتل من الروم فى غمر العربات وانتصر عليهم ، واسر ستمائة اسير ، ولم يفقد هو فى هذه المواجهة سوى سبعة فقط .

ثم واجه مائة الف آخرين يقودهم بطريق يدعى روبيس ، فقسم جيشه الى ميمنة جعل عليها الضحاك ، وميسرة عليها سعيد بن خالد ، وساقة عليها أبو الدرداء ، وبقى هو مع اهل مكة فى القلب ، ثم هاجم قوات الروم ، وأصاب المسلمون دواب الروم بأسنة الرماح ، ثم حملوا حملة شديدة اصابت الروم وقضت عليهم ، وقال عمرو فى رســـالة بعث بها الى أبى عبيدة « وصلت فلسطين ، ولقينا عساكر الروم مع بطريق يقال له روبيس فى مائة الف فارس ، فمن الله علينا بالنصر ، وقتل من الروم خمســـة عشر الف فارس وقتل من المسلمين مائة وثلاثون ، فان احتجت الى سرت اليك والسلام » (راجع فتوح الشـــام للواقدى) .

وشارك عمرو فى اليرموك ، وكان من رأيه اجتماع الجيوش العربيـة كلها تحت قيادة واحدة وقال للناس « ان الرأى الاجتماع ، وذلك أن مثلنـا اذا اجتمع لم يغلب من قلة ، فأما ان تفرقنا لم تقم كل فرقة لمن استقبلها لكثرة عدونا » ، واتفق رأيه مع رأى أبى بكر « اجتمعوا عسكرا واحدا ، والقـــوا زحف المشركين بزحفـكم ، فأنتم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره » ... واتفق أيضـــا مع رأى خالد « لا تقاتلوا قوما على نظام وتعبئـة وأنتم على تساند وانتشار ، فان ذلك لا يحل ولا ينبغى ... ان الذى انتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم ، وانفع للمشركين من امدادهم ... هلموا فلنتعاور الامارة » ، (سبق الاشارة الى ذلك) .

كان لعمرو موقف بطولى خلال معركة اليرموك ، فقد كان على كراديس الميمنة ومعه شرحبيل بن حسنة ، واشتد القتال بين الطرفين وحمى وطيسه ، واصاب رماة الروم أعين سبعمائة من جند المسلمين ففروا من المعركة والقتال على اشـــده ، ورأى عمرو ان الموقف يتطلب صمودا وصبرا ، فبقى فى مكانه ومعه أصحاب الرايات (أبو عبيدة ويزيد بن أبى ســـفيان وعبد الرحمن بن أبى بكر) وقاتل معهم ببسالة وقوة وكر بهم على العدو حتى تحقق النصر .

وشارك عمرو فى الهجوم على دمشق ، وخصص له باب ينزل فيه هو باب توماء أو الباب الصغير (ذكرت بعض المراجع أن باب الفراديس كان لعمرو .. راجع كتاب تاريخ عمرو بن العاص للدكتور حسن ابراهيم) .

وكان عمرو على احد جنبى المسلمين عندما دار القتال فى فحل .

واسهم مع شرحبيل بن حسنة والحارث بن هشام سهيل بن عمر فى حصار بيسان حتى تم التسليم .

ثم كانت معاركه فى فلسطين .

ولعل معركة اجنادين هى اهم معاركه واشهرها هناك .

ففى هذه المعركة واجه عمرو قوات الروم بقيادة أرطبون الذى كانوا يعدونه اكبر قادتهم وابعدهم غورا ... هذا فوق أنه كان مشهورا بالدهاء ، ومن هنا تأتى أهمية المعركة لأن عمرو بن العاص هو الآخر كان أكثر العرب دهاء ، فعندما احصى العرب دهاتهم عدوهم أربعة كان هو أحدهم ، وجعلوا لكل واحد مزية يتميز بها فى دهائه ، فقالوا « ان معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة للمعضلات ، وزياد لكل صغيرة وكبيرة » .

ولعب الدهاء دورا رئيسيا فى هذه المعركة حتى أن الخليفة عمر قال لأصحابه « قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عم تنفرج » .

واستغل عمرو الدهاء كسلاح جديد فى المعركة ، وحقق به انتصارا كبيرا ...

فقد اراد — فى ضوء وصية أبى بكر له — أن يجمع معلومات كافية عن عدوه ، وأن يقف على أسرار حصونه وخنادقه ، وان يعرف مداخل مواقعه وعوراتها ... تقديرا منه لأهمية اللقاء القادم مع قوات أرطبون .. وارسل عمرو العيون للاستطلاع ، ولكنها لم تقدم له ما كان يصبو اليه من معلومات ، فرأى أن يقوم هو بنفسه بعملية الاستكشاف ، فيذهب الى مواقع عدوه ليحصل بنفسه على ما يريد من معلومات .

وسار أرطبون العرب الى أرطبون الروم ، ودخل معسكره على انه رسول اليه من قبل عمرو ، واستأذن فى مقابلة أرطبون ، فأذن له ، ودخل عليه وحياه ، ودار بين الاثنين حوار طويل حاول فيه كل من الطرفين ان يحصل من الآخر على معلومات تفيده ، وكان الدهاء واضحا فى هذا الحوار .. سأل أرطبون عن عمرو ملك المسلمين فأجابه عمرو .. « عمرو بن العاص قائد من قادة المسلمين يا سيدى وليس ملكا من الملوك ، وليس المسلمين ملك ولكن لهم خليفة لا يبرم أمرا الا اذا استشار أصحابه ، يجلس بينهم كأحدهم يفترش الأرض ويكتفى بالخشن » .

يسأل أرطبون عن دهاء عمرو ، فجاءه الجواب « عمرو يا سيدى سهم من

سهام الله يعرف أين يضع قدمه ، وأين يوجهها ، وما دخل فى شىء الا وخرج منه » .

وتساءل أرطبون عن المقاتلين المسلمين الذين عهدهم أمة بدوية لا تعرف الا مواقع الغيث ومواطن الكلأ ، فرد عليه عمرو « ليس فينا يا سيدى الا فارس أو محارب ، قد ربتنا الصحراء على احتمال المكاره ، وعلمتنا الطعان والضرب ، وأرشدتنا الى مقاتل الأعداء » .

وأراد أرطبون أن يعرف عدد جيش المسلمين ، ولم يعطه عمرو أية معلومات عن العدد ، وانما عرض عليه الاسلام أو الاستسلام مع دفع الجزية أو الحرب وقال محذرا « هل الأرطبون أعز على سيوف المسلمين من هرقل كبير الروم ، ان السيوف الى أصابت أفئدة جيش هرقل ستصيب فؤاد من يقف أمام جيش عمرو » .

وأثار هذا القول أرطبون فعرض أن يوضح له الرسول خطط المسلمين فى الحرب قائلا « قد حدثنا من قاتلوكم أنكم تلبسون وجوها غير وجوهكم وجلودا غير جلودكم وتمسكون سيوفا غير سيوفكم » ، وأوضح له عمرو ذلك فقال « هى وجوه المسلمين غاضبة فى الحرب ... أما السيوف والجلود فهى سيوف المسلمين وجلودهم كساها الاسلام رهبة والبسها جلالا » .

وبمراجعة ما قاله عمرو تتبين ما كان عليه هذا القائد العربى من القوة والعزم والاطمئنان النفسى والروح المعنوية العالية .

وأحس أرطبون بقوة اللفظ وعمق المعنى وضخامة المنطق ، وأدرك أن المتحدث لابد أن يكون عمرا نفسه ، فرتب أمره على أساس أن يقتله عند خروجه من المعسكر ، وحتى يعطيه الأمان ، أمر له بهدية ثم أصدر تعليماته لحراسه بقتله عند خروجه .

وبينما عمرو فى طريقه الى خارج المعسكر سمع من يقول له هامسا « يا عمرو لقد احسنت الدخول فأحسن الخروج » .. وكانت مفاجأة.. انكشف أمره وعرفت شخصيته ، وكان لابد من تصرف عاجل وسريع ، يتسم بالذكاء والدهاء ... وفكر عمرو سريعا ، وجاء الحل ، ووضح أمامه الطريق .

وبينما أرطبون فى مجلسه ينتظر خبر مقتل عمرو ، اذا به يعود اليه ، ويطلب الاذن بالمقابلة ... وكانت لعبة جريئة وخطوة لا يقدم عليها الا شجاع

مقدام ... سأله أرطبون عما يريد ، فجاءه الرد المقنع الذى أضاع من يديه الصيد الثمين الذى كان يرجوه ... « لى أبناء عم وأخوة عشرة على الأقل ، وقد نظرت فى هذه الجائزة ، فرأيت أنها لا تعمهم جميعا ، فعدت اليك لأرجو لهم ، فقد أحببت أن يعم معروفك » ، فأمر أرطبون أن تزاد الجائزة عشرة أضعافها ، فقال له عمرو « وحق تلك الألسنة يا سيدى الا تحب أن تسمع شكرها جميعا ، ان لكل منهم لسانا وجنانا مثل جنانى ، اذا كان قد يسرك هذا اللسان وذلك الجنان ، وسوف تجد منهم أكثر مما رأيت » ، وفهم أرطبون أنه يعرض الحضور بهم لتقديم شكرهم ، فقال له « حسنا أيها الرسول اللبق اذهب ، وأتنى بهم » .

وهكذا ألقى عمرو بالطعم ... ونجح .

نجا عمرو بنفسه ، وعاد الى جنده وقادهم فى أكبر معركة فوق أرض فلسطين ... فى أجنادين ... واشتد القتال فيها حتى قيل أنه كان لا يقل هولا عن القتال فى اليرموك ، وكثر القتل فى صفوف الروم ورجحت كفة النصر ، وانسحب أرطبون بقواته الى بيت المقدس وهو يردد فى ألم كبير عميق « خدعنى الرجل انه أدهى الخلق جميعا » .

وبلغ الخليفة عمر بن الخطاب أخبار النصر فهلل قائلا « غلبه عمرو ... لله عمرو » .

ولم تكن أجنادين هى آخر لقاء بين عمرو وأرطبون ، فقد وقع صدام آخر فى بيت المقدس ... فبعد أجنادين بعث أرطبون بكتاب الى عمرو يقول فيه « أنت فى قومك مثلى فى قومى ، والله لا تفتح من فلسطين شيئا بعد أجنادين ، فارجع ولا تغتر فتلقى ما لقى قبلك من الهزيمة » ، فأجابه عمرو فى رسالة « أنا صاحب فتح هذه البلاد » .

وكتب عمرو الى الخليفة يقول له « انى أعالج حربا كؤودا صدوما ، وبلادا ادخرت لك ، فرأيك » .

وحاصر عمرو بيت المقدس وقاومته ، وطال حصاره ، ويقول الطبرى « ان أهل ايلياء كانوا أشجوا عمرا وأشجاهم ، ولم يقدر عليهم ولا على الرملة ، ولذلك أمده الخليفة بجند عظيم ليتقوى به ويقدر عليهم » .

وطال الحصار أربعة أشهر (١) ، عظمت فيها خسائر الروم ، مما دفع بأرطبون الى تسليم المدينة الى الأسقف صفرنيوس الذى تولى مفاوضة المسلمين وفر هو ببعض جنده الى مصر .

وهكذا تحقق النصر الاسلامى فى فلسطين على يد أرطبون العرب .

وفى ختام الحديث عن واقعة اجنادين ، لابد لنا من أن نوضح أمرا هاما يدل على عبقرية عمرو العسكرية ومدى تفوقه فى الفن الحربى ...

فعندما واجه عمرو جند الروم بقيادة أرطبون فى أجنادين تبين له ـ بعد دراسته لموقف عدوه ـ أن أرطبون وضع قوات له فى الرملة ، وقوات أخرى له فى ايلياء ، كما وضع حاميات فى سبسطية ونابلس ويافا ، وكان يعتمد فى اعداد قواته على ثغر قيسارية .

وأدرك عمرو أن عدوه يفوقه فى العدد ، ولم يكن التفوق فى العدد هو الأمر الذى يشغل باله ، وانما كان ثغر قيسارية هو مركز تفكيره اذ أن هذا الثغر هو الذى يمد الروم بالامدادات التى قد تساعد على استمرارهم فى القتال ... ورأى أن تعطيل هذا الثغر له أهمية بالغة فبعث الى الخليفة عمر يشرح له وجهة نظره . فأيده عمر وأمر معاوية بن أبى سفيان بالتحرك الى قيسارية ، لفتحها ، « أما بعد ، فانى قد وليتك قيسارية ، فسر اليها ، واستنصر الله عليهم ، وأكثر من قول لا حول ولا قوة الا بالله ... الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا ،نعم المولى ونعم النصير » ... ونجح معاوية فى القضاء على هذا الثغر بعد قتال حام خسر فيه الروم ثمانين ألفا . وبسقوط هذا الثغر تحقق هدفان :

- أمن المسلمون جانب هذا الثغر واطمأنوا الى عدم مشاركته فى القتال .
- قطع المسلمون طريق الامداد واضطر أرطبون الى الاعتماد على القوات التى تحت قيادته فقط .

---

(١) ذكر الطبرى أن الذى حاصر بيت المقدس هو أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ، وأيده فى ذلك ابن كثير وابن الأثير ولكن التسلسل التاريخى للمعارك التى دارت فوق أرض الشام يؤكد أن الاثنين كانا وقت حصار بيت المقدس مشغولين بفتح حمص وحلب وأنطاكية ... وعندما فرغ الاثنان من اخضاع الشام كان عمر بن الخطاب قد أرسل بمدد لعمرو الى الجابية فدعاهما معا للتشاور فى أنجح الطرق للقضاء على مقاومة المدينة .

والجيوش الحديثة تهدف دائماً الى القضاء على طريق الامداد حتى يعجز العدو عن استعاضة خسائره وتلقى الامداد .. وأوضح الأمثلة على ذلك استيلاء الألمان على ميناء طبرق الذى كان مصدر الامداد الرئيسى للقوات البريطانية خلال حرب الصحراء الغربية .

محرر مصر

يستحق عمرو بن العاص لقب محرر مصر .

فمصر فى العهد الاسلامى كانت تحت حكم الروم بعد أن قهر هرقل الفرس وطردهم من البلاد ... وكانت مصر تدين بالمسيحية ، وكان الروم مستبدين ظالمين ، فكره الناس دولتهم وتمنوا زوالها .

دعا قيرس الزعيم الرومانى الدينى الى مذهب دينى جديد اسمه المونوثيلى ، وحاول أن يستميل اليه اقباط مصر ، الا أن الناس رفضوا هذا المذهب وعارضوه ، فلجأ الى العسف والاضطهاد والضغط ليجبر القبط على اعتناقه وقبوله ، وتعرض الناس الى أنواع مختلفة من العقاب ووسائل شتى من صنوف العذاب ، واجتاحت البلاد موجة من الاضطهاد والتعذيب والتنكيل استمرت عشر سنوات ، واضطر القبط الى ترك بيوتهم والفرار الى الصحراء والجبال ليتواروا فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه .

وبجانب الاضطهاد الدينى كان أهل البلاد يقاسون من الظلم الاجتماعى ، فقد فرض الحكام الضرائب التى أثقلت كاهلهم وفاقت طاقتهم مما أعجز بعضهم عن أداء ما عليه ، فكان يفقد ممتلكاته ويحل به الخراب .

فى هذه الأثناء سمع المصريون أنباء وردت اليهم عن دين جديد ظهر فى مكة يدعو الى المساواة والعدل والاخاء والحرية والمحبة ، فتحولت عواطفهم الى هذا الدين وتطلعوا اليه بميل ورضا ، وأدركوا أن حكما جديدا يقوم على تعاليم هذا الدين ومبادئه هو أعدل بكثير من حكم الروم ... ولهذا تهيأت نفوسهم للاسلام واستعدت عقولهم وأفكارهم للترحيب بالمسلمين .

ولم يكن يخطر على بال عمر بن الخطاب أن يوجه جيشه الى مصر لأسباب فرضت عليه ذلك ...

منها أن سياسته فى الفتح كانت تهدف فتح الشام والعراق فقط ، وكان

يرى أن ملك العـــرب يجب أن يكون من خليج عـــدن والمحيط الهنـــدى الى أقصى الشمال فقـط .

ومنها أن بلاد الشام لم تكن قد خضـــعت كلها بعـــد ، فقد ظل شمالها يناوىء المسلمين ، وخاصـــة أن قيسارية ظلت فى موقعهـــا الحصين تقاومهم وتهدد مراكزهم فى فلسطين .

ومنها أن الجزيرة العربية تعرضت لمجاعة هددت أهها بالفناء فشغـل عمر بها ، ولم يكن فى الاستطاعة توسيع رقعـــة الحرب والنـــاس فى مجاعة لا يصلحون مددا .

ومنها أن الطاعون انتشر فى عمواس بفلسطين وامتد منها الى بلاد الشام والبصرة ، وخشى عمر انتفاض العراق والشام على المسلمين .

الا أن تحرير مصر كان حلما يراود عمـــرو بن العـــاص ، فظـل يرقب الأحداث ، وكله أمل فى أن يقتنع الخليفة يوما برأيه ... وجاءته الفرصـــة ، فقد تمت سيطرة المسلمين على بلاد الشام كلها ، وانتهت المجاعة فى شـــبه الجزيرة وبرأت فلسطين والشام من الوباء .

وكانت فكرة التحرك الى مصر تخضع لمبررات عدة فى رأى عمرو ...

منها أن استقرار المسلمين فى فلسطين والشام قد يصور من جانب أعدائهم بالضعف ، فيغريهم ذلك على مهاجمتهم .

ومنها أن أرطبون الروم بعـــد أن فر الى مصر أخذ يجمـــع الجمـــوع ويعـــد العدة للخروج الى فلسطين لاستعادتها .

ومنها أن القضاء على أرطبون فى مصر واجب تمليه المصلحة العسكرية وتقره مبادىء السلامة والأمن ، لأن القضـــاء على قوة أرطبون والروم يؤكد أن المسلمين ما زالوا ذوى بأس شديد ، فلا تفكر الروم فى القيام بهجوم مضاد عليهم أملا فى اســـتعادة الأرض المفقودة .

ومنها أن الأفكار والأذهان والقلوب فى مصر ثائرة غاضبة على الروم ، وأن هذه الموجة من الغضب تمهد الطريق وتعين على الفتح .

ومنها فوق ذلك كله وقبله أن مصر بلد ذات غنى واسع وفى دخولها كسب

للعرب وللاسلام ، فقد كانت تتميز بالخصب ووفرة الانتاج ، وكانت بها أرزاق أخرى لا تحصى وثروتها من الأحجار والمعادن كثيرة ، وكانت مركزا للعلم والفن والصناعة والزراعة والتجارة ... كانت تمثل سوقا من أكبر أسواق العالم ، وكانت بها تجارة عظيمة من القمح والكتان والورق ... فوق ما كان يحمل اليها من الذهب والعاج والحديد والفضة .

ولم يشأ عمرو وهو يعرض فكرة التحرك أن يزيد التبعات على الخليفة، نطلب أن يتحرك بالجند الذين هم فعلا تحت قيادته ، وعددهم أربعة آلاف فقط ، واقتنع الخليفة بما ساقه عمرو من مبررات ، ومال الى مشاركته الرأى، وانتهى الى الموافقة ، وخاصة أنه لمس ايمان عمرو وأدرك قدرته على الفتح ، فبعث اليه بكتاب حمله شريك بن عبده يقول فيه « اندب الناس الى المسير معك الى مصر فمن خف معك فسر به » .

سار عمرو الى **العريش** ثم تقدم الى **الفرما** وهى مدينة قديمة بها كنائس وأديرة ، وكان لها شأن كبير اذ هى مفتاح مصر من الشرق وتشرف على الطريق القادم من الصحراء ، فوق أنها تملك ناصية البحر ويجرى اليها فرع من النيل يؤدى الى مصر السفلى .

وذكر ابن الحكم « انه كان بالاسكندرية أسقف القبط يقال له أبو ميامين (أو بنيامين) فلما بلغه قدوم عمرو بن العاص كتب الى القبط يعلمهم أنه لا تكون الروم دولة وأن ملكهم قد انقطع وأمرهم بتلقى عمرو »

وتحصن أهل الفرما فى المدينة فحاصرهم عمرو ، وكان أهل المدينة يهبطون على العرب بين حين وحين لقتالهم ، وكانوا يتوقعون وصول مدد اليهم ، فلما لم تصلهم أية امدادات ، قرروا الخروج لمواجهة العرب ، فلما خرجوا ادركوا أن العرب هم أسد القتال ، فارتدوا الى الحصون للاحتماء بها ، الا أن العرب تعقبوهم خلال ارتدادهم ، وأمعنوا فيهم قتلا ، فساد الاضطراب صفوفهم ، وملك العرب الباب قبل أن يغلق ثم اقتحموا المدينة ، وهزموا الروم ، وهدموا الحصن ، وأحرقوا السفن الراسية فى المرفأ .

وذكر المقريزى أن قبط الفرما أمدوا العرب بالمعونة أثناء الحصار ، وأيده فى ذلك المقريزى ، الا أن حنا النقيوسى عارض هذا الرأى وقال أن القبط لم يساعدوا المسلمين الا بعد أن استولوا على الفيوم ، وعارضه أيضا الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه « الفاروق عمر » اذ ذكر أن شعب مصر

وقف من الفريقين موقف المتفرج فقد أصابه من الروم الكثير مما أفقده كل حماسة لنصرهم ، وهو لم يعرف العـــرب بعـد فلا يوجـــد لديه ما يدعـوه الى الترحيب بهـم .

ولنا هنا ملاحظة هامة

فان الروم فى مصر وقد رأوا تقدم العـرب الى داخـل البلاد لم يحركوا ساكنا ولم يرسلوا جيشا لمواجهة الجيش العربى فى الفرما اكتفاء بالحاميـة الموجودة بها وكان تقديرهم للموقف يقوم على عده عوامل :

- ان الشعور العام فى مصر ضد الروم ، فخشى هؤلاء ارسال قوات الى الفرما فيسهل على القبط الثورة عليهم ، مما يضعف موقف الجيش .

- ان الشعور العام عند الروم أن العرب قوم معركة ، سـبق لهم مواجهتهم فى بلاد الشــام فكان الحرص واجبا عند لقائهم حتى لا يخوضوا مغامرة تنتهى بهزيمتهم .

- رأى الروم أن خير المواقف هو اتخاذ موقف الدفاع وراء حصونهم فى داخل البلاد يحميهم النيل الذى يشـكل مانعا قويا ضـد تقدم المسلمين ... ولهذا كانت خطة الروم هى دعم حصونهم وتقويتها لتكون خطة الدفاع الرئيسى ضد التقدم العربى .

* * *

ثم كانت موقعة **بلبيس** حيث التقى المسلمون بجيش للروم بلغ اثنى عشر الفا كامل العدة ، وفيها دار قتال عنيف وانهزم الروم بقيادة أرطبون ولحقت به خسارة كبيرة بلغت ألف قتيل وثلاثة آلاف أسير .

ووقع قتال آخر فى أم دنين فقد تقدم اليها عمرو ، وحاصرها ، ومنع عنها المدد . وقال المقريزى « أنه قد كان قتال شديد وأن الفتح أبطأ على المسلمين »، وذكر أبو المحاسن « كان قتال شديد ، ولم يدر الناس لمن تكون الغلبـة » ، واســـتقر رأى عمرو على مهاجمة المدينة فنادى فى قومه « تقـــدموا فبكم ينصر الله » . ووضع المسلمون يدهم على المدينة .

* * *

ووصل مدد عربى بقيادة الزبير بن العوام وشارك فى معركة **هليوبوليس**، **وهذه المعركة كانت من أهم المعارك التى دارت فوق أرض مصر ، ومرجـع أهميتها أن عمرو بن العاص استخدم فيها أسلوبا جديدا حقق به نصرا مؤزرا ..**

كان عمرو يدرك قيمة المفاجأة على العـــدو من ناحية ، وكان يؤمن من من ناحية أخرى بمبدأ ادخار القوى ، بمعنى الا يدفع بقواته كلها الى المعركة ، وانما يدخر جزءا منها يدفع به الى المعركة فى الوقت المناسب ، فتكون قـــوة جديدة ليست فى حسبان العدو تدخل المعركة جاهزة مستعدة موفورة القـــوة غير مجهـــدة ...

كان جيش عمرو خمسة عشر ألفا وجاءه مدد من اثنى عشر الفا عليـــــه خيرة رجال الحرب ... الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبـــادة بن الصامت ، وخارجة بن حذافة ، وعبد الله بن عمرو ، وقيس بن أبى العاص، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، ونافع بن قيس ، وخالد بن يزيد ...

وكان الروم أكثر عددا من المسلمين ، حتى أن رجلا من مصر قال لآخـــر « ما أعجب أمر هؤلاء العـــرب ، انهم أتوا الى مصر فى قلة من الناس يريدون لقاء الروم فى كتائبهم العظيمة » ، الا أن المستمع لم يقتنع بكلامه ورد عليـــه قائلا « هؤلاء قوم لا يتوجهون الى أحد الا ظهروا عليه » .

ووضع عمرو خطة المعركة على أساس أن يخصص قوتين من المسلمين كل منهما خمسمائة مقاتل لا تشترك فى القتال الا بعد أن يكون الجهد قد نال من الروم ، ووضع القوة الأولى عند قلعة الجبل (موقع القلعـــة الحالى) ، والقوة الأخرى عند أم دنين (موقع الأزبكية الحالى) ، وأمرهما بالتدخل فى المعركة حين يحمى وطيسها ، ويشتد الضرب ويعنف النزال ، على أن يقوما بالهجوم على مؤخرة جيش الروم وجانبيه .

وتقدم عمرو بباقى القوة حتى بلغ موضع العباسية الآن ، حيث تلاقت القوتان ودار قتال عنيف ، وعلا غبار المعركة ، وحمى وطيسها وقاتل الطرفان قتال المســـــتميت ... وفجأة ظهرت احدى القوتين فهاجمت مؤخـــرة الروم وعصفت بها عصفا ، فسيطر على الروم الذعر والفزع والرعب ، واضطربت صفوفهم وانكسرت حدتهم ، وتقهقروا فى اتجاه أم دنين ، حيث كانت تنتظرهم المفاجأة الأخرى ، فقد خرجت القوة الأخرى وهاجمتهم وأمضت فيهم قتلا .

وظن الروم أن جيوشـــــا عربية ثلاثة تقاتلهم ، وثبت لهم أن لا أمل فى النصر ، فليس لديهم احتياطى يخوض المعركة ليغير سير أحداثها ، وانحـــل نظامهم ، ولاذ أكثرهم بالفـــــرار ، وهـــام كثيرون على وجوههم فى بلاد مصر الســـــفلى .

ولا شك فى ان تكتيك المعركة قد حقق هدفه ، **ولعبت المفـاجاة دورها** بنجاح ، فقد وجد الروم انفسـهم فى موقف يفرض عليهم الاستسلام ، بعد أن اختلفت خططهم ، وفشل تدبيرهم ، وشل تفكيرهم .

كما لعب مبدأ ارجاء القوى دوره بتفوق وتميز ، ذلك انه حشـد أعظم قواته ضد الغرض الرئيسى ثم خصص قوات أقل لعمليات أخرى ثانوية فدخلت فى المعركة فى الوقت المناسب وحققت النجاح المنشود ، وقد اسـتخدم عمرو هذين المبدأين بحكمة وتعقل وذكاء وادراك ..

* * *

وكانت المعركة التالية فى بابليون .

وكان للروم فى بابليون حصن قوى متين تحيط به أسـوار كثيرة بلغ ارتفاعها ستين قدما وسمكها ثمانية عشر قدما ، وذكر النقيوسى أن أصل هذا الحصن قلعة أقامها بختنصر ولما جاء القائد تراجان اقام الحصن على أسـاس القلعة وزاد فى بنائه .

وتولى مهمة الدفاع عن الحصن اثنان من قادة الروم هما أودوقيانوس ، وشقيقه درمنتيانوس ، وكان بداخل الحصن ما بين خمسة آلاف وستة آلاف مقـاتل ، معهم كثير من المؤن والذخائر ، وكانوا يملكون عددا من المجـانيق يضربون بها المسلمين .

أمر عمرو بحصار بابليون ... واستمر الحصار شهرا ...

وجمع قيرس كبار رجال الخرس ودعا معهم أسقف بابليون ، وتشـاور معهم فى الأمر ، وبسط لهم رأيه .. قال أن الدبرة فى الحـرب كانت عليهم ، اذ قضى أعداؤهم على أكبر جيوشهم ثم أتوا لحصارهم ، وقال انه لا يتوقـع وصول مدد اليه قبل اشهر ، وأن الحصن لا يستطيع المقاومة والصبر ، وان النتيجة وبال عليهم ، ثم اقترح أن يدخلوا فى مفاوضـة مع العرب يعرضـون عليهم الأموال ليرحلوا عنهم وتبقى مصر فى أيدى الروم ... واتفق المجتمعون على هذا الرأى ...

وخرج وفد منهم الى حيث عمرو فأدوا رسالتهم .. قالوا (نقـلا عن المقريزى) « انكم قوم قد ولجتم فى بلادنا ، والححتم على قتالنا ، وطال مقامكم

فى أرضنا ، وانما أنتم عصبة يسيرة ، وقد أظلتكم الروم وجهزوا اليكم ومعهم من العدة والسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل ، وانما أنتم اسارى فى ايدينا ، فابعثوا الينا رجالا منكم نسمع من كلامهم ... » .

وبعث عمرو برايه الى قادة الروم « ليس بينى وبينكم الا احدى ثلاث خصال : اما دخلتم فى الاسلام فكنتم اخواننا وكان لكم ما لنا ، واما أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، واما جاهدتكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وبينكم » .

ونقل رسل الروم الى قادتهم فى داخل الحصن صورة واضحة المعالم عن معنويات الجند المسلمين .. هذه المعنويات التى لعبت دورا خطيرا فى هذه المعركة .. **والمعنويات سلاح خطير فى المعارك تؤدى دورها بقوة تفوق قوة الماديات** ، وقد أثر عن نابليون أنه قال « ان نسبة القوى المعنوية الى القوى المادية فى المعركة هى كنسبة ٣ : ١ » ، أى ان جنديا واحدا يتسلح بالمعنويات يستطيع أن يقهر ثلاثة جنود لديهم سلاح وليس لديهم معنويات ... وأثر أيضا عن فيلسوف الحرب الألمانى كلاوزفتز أنه قال « ان القوة المعنوية هى التى تحدد نتيجة المعركة » ، وهذا يعنى أن المقام الأول فى المعركة للقوى المعنوية ... واكد مونتجمرى هذا المعنى فقال « ان المعارك تكسب أولا ، وبصفة رئيسية فى قلوب الرجال ، فعندما يخرج الأمر من أيدينا يتحول نهائيا الى الجنود ، فان النصر يعتمد على تدريبهم وعلى شجاعتهم وعلى رفضهم تقبل الهزيمة وعلى ثباتهم وصلابة كفاحهم وعلى تصميمهم على النصر أو الموت » ... وجاء هذا المعنى على لسان جيفارا فى مذكراته فقد جاء فيها « يجب عدم التهوين من شأن الجندى الأمريكى لقدراته التكتيكية التى تجعل منه عدوا رهيبا ... ان الذى ينقصه هو افتقاره الى أرضية ايديولوجية فى ممارسة القتال ، ولذلك يتوقف انتصارنا على تحطيم معنوياته » .

ولكن ماذا قال رسل الروم ؟

قالوا ...

« رأينا قوما الموت أحب الى أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة ، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة ، وانما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، وما يعرف رفيعهم من وضيعهم ، ولا السيد منهم من العبد ، واذا حضرت الصلاة لم يتخلف منهم أحد » ..

وعلق على ذلك المقوقس فقال :

« والذى يحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها ، وما يقدر على قتالهم أحد ، ولئن لم نغتنم صلحهم اليوم وهم محصورون بهذا النيل ، لم يجيبونا بعد اليوم اذا أمكنتهم الأرض ، وقووا على الخروج من وضعهم » .

وبعث المقوقس الى عمرو يطلب منه وفدا للمفاوضة فبعث عمرو بعشرة نفر جعل المتكلم منهم عبادة بن الصامت ، فلما التقى المقوقس بعبادة — وكان شديد السواد — هابه وقال « نحوا عنى ذلك الأسود ، وقدموا غيره يكلمنى »، فأجابه الوفد كله « ان هذا الأسود أفضلنا رأيا وعلما وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وانما نرجع جميعا الى رأيه » .

واستمع المقوقس الى أقوال توضح مدى معنويات جند المسلمين .. قال له عبادة « ان فيمن خلفت من أصحابى الف رجل أسود كلهم اشد سوادا منى .. وانا ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعا وكذلك أصحابى انما رغبتنا وهمتنا فى الجهاد فى الله واتباع رضوانه وليس غزونا عدونا ممن حارب الله رغبة فى دنيا ولا طلبا للاستكثار منها .. لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه الليله ونهاره وشملة يلتحفها لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم ورخاؤها ليس برخاء وانما النعيم والرخاء فى الآخرة ... » .

قال له المقوقس« توجه لقتالكم جمع من الروم لا يحصى عدده .. قوم معروفون بالشدة والنجدة » .

فقال عبادة ردا على قوله « يا هذا .. لا تغرن نفسك ولا أصحابك ، اما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم ، وانا لا نقوى عليهم ، فلعمرى ما كان هذا بالذى تخوفنا به ، وان كان ما قلتم حقا ، فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم ، لأن ذلك أعذر عند ربنا اذا قدمنا عليه ان قتلنا عن آخرنا ما كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما من شىء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك ،وانا منكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين ، اما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم ، أو غنيمه الآخره ان ظفرتم بنا ، ولأنها أحب الخصلتين الينا بعد الاجتهاد منا » ... ثم قال « ما منا رجل الا وهو يدعو صباحا ومساء ربه أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده الى بلده ولا الى أرضه ولا الى اهله وولده ، وليس لأحد منا هم فيما خلفه ، وقد استودع كل واحد منا ربه أصحابه وولده » .

وحلول المقوقس وقد هزته هذه الروح المعنوية ، وهذا الايمان الراسخ ، وهذه العقيدة الثابتة أن يصل الى حل سلمى ، فعرض عليه المسلمون أن يختار واحدة من ثلاث : الاسلام أو الجزية أو الحرب ... وفشلت محاولاته ، فقد كان حديث المسلمين واضحا وهدفهم صريحا .. واهتزت نفسية المقوقس واصحابه ، وناقشوا مطالب المسلمين ، فرفضوا الاسلام « لن نترك دين المسيح الى دين لا نعرفه » .. ، ثم رفضوا فكرة الجزية « اذا أذعنا للمسلمين ودفعنا الجزية فلم نعد ان نكون عبيدا ، والموت خير من ذلك » ولم يبق أمامهم سوى القتال ...

ولابد لنا من أن نشير الى أن ما عرضه المسلمون كان مستمدا أصلا من الأسلوب الاسلامى الذى أمر به القرآن ، ومن المنهج النبوى الذى قام على الدعوة بالحكمة والموعظة ، فلا تهديد ولا وعيد ، وانما عرض يترك للناس حرية التفكير والاختيار ، ومستمدا أيضا من المسلك الحميد للخليفتين أبى بكر وعمر ، فلم يكن أحدهما يلجأ الى الاجبار أو التهديد ، انما هى دعوة سلمية آمنا بها وأمرا باتباعها .

ولابد لنا من أن نشير ايضا الى خوف الروم من لقاء المسلمين وانهيار معنوياتهم ، بدليل أنهم لجأوا الى المفاوضة أملا فى الوصول الى حل سلمى ، ولا شك فى أن انهيار معنوياتهم كان من العوامل التى عجلت بهزيمتهم فى بابليون فبالمعنويات تشتد الهمة وتقوى العزيمة ويزيد الاصرار ، وبغيرها يكون الضعف والوهن والجبن والانهزام .

طالت مدة الحصار وامتدت سبعة أشهر ، وضاق المسلمون بطول المدة ، وكان الزبير بن العوام اشدهم ضيقا ، وأكثرهم رغبة فى انهاء هذا الحصار ، فقام فى الناس وقال « انى أهب نفسى لله ، وارجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين » ، وتقدم ليلا الى الحصن ووضع سلما على سوره دون أن يفطن اليه أحد وتسلق السور ، فلما أصبح على رأس الحصن كبر وسيفه فى يده ، ووصل اصحابه الى مكانه ، واسقط فى يد الروم فاجتمعوا وقرروا الاستسلام وعرض جورج قائد الحصن الصلح فقبله عمرو ، وأغضب ذلك الزبير وقال له « لو صبرت قليلا انزلت من السور الى داخل الحصن ولكان الأمر على ما نشتهى » واتفق على تسليم الحصن بكافة ذخائره وآلات الحرب .

لقد كانت معركة بابليون معركة المعنويات ...

* * *

وبعد بابليون وقعت معارك أخرى كان النصر فيها كلها للمسلمين .

وتقدم عمرو الى **طرنوطى** ، وتجمع الروم هناك لقتاله وابلوا بلاء حسنا غير أنهم انهزموا .

ونلاحظ أنه تقدم اليها على الضفة الغربية للنهر من ناحية الصحراء حتى يتجنب خلال تقدمه الترع والقنوات التى تمثل مانعا مائيا تعوق التقدم ..

ثم سار الجيش الاسلامى الى **نقيوس** ... وهناك رأى عمرو أن يعبر النهر الى المدينة التى تقع على شـاطئه الشرقى حيث تجهز الروم لقتاله بقيادة دومنتيانوس فى سفن كثيرة يدافعون بها عن المدينة ، الا أن القـائد فقد أعصابه ، وانهارت معنوياته ، وهزم نفسه بنفسه ، اذ ترك الجند وهرب الى الاسكندرية ، وهرب الجند من ورائه الى قراهم ، ودخل المسـلمون المدينة من غير مقاومة .

وتعرض المسلمون لموقف سىء عند **كوم شريك** ، الا أن ثباتهم وقـوة معنوياتهم أخرجتهم من هذا الموف سالمين ، فقد أرسل عمرو قوة بقيـادة شريك لمتابعة بعض الروم الفارين ، فاجتمع لهم عدد كبير من الروم وحملوا عليهـم وكادوا يهزمونهم وأحاطوا بهـم من كل جانب ، فأمر شريك احـد رجاله ويدعى مالك بن ناعمة ، فخرج عى فرس أشـقر واقتحم به صفوف العدو حتى أتى عمرو بن العاص وطلب منه المدد ، فلما عام الروم بدنو المدد فروا هاربين (سمى موضع القتال كوم شريك باسم القائد العربى) .

وقرر الروم مواجهة المسلمين عند حصن **كريون** .. وكان الموقع مناسبا للمواجهة من عدة وجوه ... ففيه حصن منيع يساعد الجند ويشد أزرهم .. والموقع متسع يسمح بالمناورة ... والترعة تحميهم ... والطريق من خلفهم الى الاسكندرية يعطى لهم عمقا ...

وتولى تيودور وهو قائد شجاع مقدام قيـادة الروم ... ودار قتال عنيف والامدادات مستمرة على جبهة الروم .. وحمل المسـلمون مرة بعـد أخرى حملات شديدة ، وأبطأ الفتح عليهم ، وصلى عمرو بالناس صـلاة الخوف ، واستمر القتال عشرة أيام شديدا عنيفا واحرز المسلمون النصر فى النهاية وفتحوا المدينة وهزموا الروم ...

حدث خلال القتال أن جرح عبد الله بن عمرو جرحا شديدا ، فطلب من وردان مولى عمرو — وكان يحمل لواء المسـلمين — أن يرتد قليلا يطلب

الروح ، فقال له وردان « الروح تريد .. الروح امامك وليس خلفك » ... واقبلا معا على القتال .. فلما سمع عمرو قال « انه ابني حقا » .

وتقدم المسلمون الى **الاسكندرية** ...

وكانت المدينـــة مسلحة بقوة تزيد على الخمسين ألفا ، وكانت الأقوات فيها وفيرة .... هذا فوق انها تملك طريقا للامداد عن طريق البحر لا يستطيع العـــرب ايقافه أو تهـــديده ، ذلك أنهـــم كانوا لا يملكون شـــيئا من آلات الحصار ... ولم تضعف هزيمة المسلمين ازاء هذا الموقع الذى رأوه يختلف عن المواقع الأخرى التى واجهتهم ، فهم لا يحاربون عدوهم الا بهذا الايمـــان الذى ملأ قلوبهم وعمرت به جوارحهم .

وقرر عمرو حصار المدينة ... وكان بعيد النظر فقد رأى أن يبقى جنده بعيـــدا عن مرمى المجانيق التى كان الروم يســـتخدمونها من فوق الأســـوار يلقون بها على الجنـــد المسلمين وابلا من الحجارة .. وظـــل المسلمون على حصارهم للمدينة أملا فى خروج الروم لمواجهتهم فى معركة وجها لوجه .. وظل الحصار قائما حتى قرر الروم تســـليم الاسكندرية بمقتضى معاهدة عقدت بين الطرفين حمل شروطها قيرس فرحب به عمرو قائلا « لقد أحسنت فى الشخوص الينا » ورد عليه قيرس « لقد أعطاكم الله هذه الأرض ، فلا تدخلوا فى حرب مع الروم بعد اليوم ... فلم تكن بيننا وبينكم عداوة قبل اليوم » .

الا أن الروم عادوا مرة أخرى الى مصر ، فى عهد عثمان بن عفـــان ، وكان قد عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر ، وولى مكانة عبد الله بن سعد ابن أبى سرح .. وروى ابن الأثير أن بعض أهالى الاسكندرية دعوا قسطنطين امبراطور الروم للعودة الى الاسكندرية ، واســـتجاب الامبراطور لدعوتهم ، واعد جيشا قويا مدعوما بأسطول بحرى تولى قيادته أحد رجاله المغـــاوير ويدعى منويل ... ودخل الأسطول ميناء الاسكندرية ، واســـتولى الروم على المدينة ، ثم تقدموا فى طريقهم الى الفسطاط عاصمة المسلمين .

وتنبه الخليفة عثمان بن عفان ، ورأى أن واليه عبد الله قد أساء الولاية فى مصر فأغضب الأهالى بزيادة الضرائب ، وباهمال تحصين البلاد وحمايتها، حتى أن أهالى القرى كانت تثور على المسلمين وتنضم الى الروم .

وفكر الخليفة فى الأمر ، ثم قرر أن يبعث بعمرو بن العاص لمواجهـــة الهجوم المضاد .. وتحرك عمرو فعلا على رأس خمسة عشر ألفـــا ...

والتقى الجيشان فى نقيوس .. وكان اللقاء عنيفا قاسيا دار فى البر وفى النهر .. وكل من الطرفين يقاتل بحماس وبسالة وشجاعة ، وكثر الترامى بالنشاب ، وأصيب خلال القتال فرس عمرو فظل يقود المعركة راجلا .

وشد المسلمون على الروم وهزموهم فارتدوا الى الاسكندرية ، وطردتهم قوات عمرو الى هناك ثم حاصرتهم .

ولجأ عمرو الى الدهاء — سلاحه الرئيسى وقت المحن — فأعطى رجلا من الاسكندرية يدعى ابن بسامة الأمان على نفسه وأهله وممتلكاته مقابل أن يفتح له أبواب المدينة ... ودخلها عمرو ، وقتل منويل ، ووضع السيف فى رقاب الروم ، وأشعل النار فى المدينة .

وانتهى أمر الروم نهائيا من مصر .

واستقر الأمر للمسلمين .

الشـــئون الادارية

ان أية قوة محاربة قل عددها أو كثر ، تكون دائما فى حاجة الى ترتيبات خاصة تيسر لها عملها وتخفف عنها ظروف المعركة وأحداثها .. هذه الترتيبات يطلق عليها فى الحرب الحديثة اسم **الشئون الادارية** .

وجميع العسكريين يضعون الشئون الادارية فى المقام الأول بالنسبة للمعركة ، فهى متممة لاعداد السلاح ولتوافر الروح المعنوية ، ذلك أنها تتصل اتصالا وثيقا بالمعركة وبالمقاتلين ، وكلما كان مستوى الشئون الادارية على مستوى المسئولية فان الجيش يكون مطمئنا عند مواجهة العدو ، وفساد أو سوء تنظيم الشئون الادارية فى وقت المعركة يفسدها ويؤدى الى عواقب وخيمة .

ورغم أن نشاط الشئون الادارية فى الحرب الحديثة يتم على رقعة واسعة وفى حدود كبيرة ، فانها فى وقت عمرو كان لها وجودها العملى ، وأثبتت كفاءتها ومقدرتها ودورها الكبير فى كسب الحرب

ان وجود الجيش فى أرض غريبة ، وبين أقوام لا تربطه بهم صلة ، أمر شاق تواجهه القيادات ، ولهذا فانها تلجأ غالبا الى الوسائل التى تتفاهم بها مع أهل البلاد وتتعامل بمقتضاها معهم ، وفى مقدمة هذه الوسائل دراسة طبيعة أهل البلاد وأخلاقياتهم وعاداتهم وتقاليدهم حتى تكون تصرفات الجند داخل

هذه البلاد متفقة مع هذه الدراسة ، فلا يصدر عن الجند ما يغضب الناس منهم ويثيرهم عليهم ، فينصرفون عنهم ، وفي ذلك خسارة كبيرة على الجيش الذى يحرص قادته على أن يجد العون من أهل البلاد ، حتى لا يثيروا من المشاكل ما يؤثر على حالة الاستقرار الذى تنشده القيادة .

ومن اجل الأمثلة واسطعها ما فعله نابليون حين جاء الى مصر ، فقد درس طبيعة الشعب المصرى وحاول أن يتقرب اليه فى محاولة يزيل بها الجمود بينه وبين قواته ، فكان يحضر احتفالات المصريين ويرتدى ملابسهم ، ويشاركهم فى مجالسهم ، ويسعى الى أن يندمج جنوده مع كافة افراد الشعب .

وكذلك فعل عمرو بن العاص فى مصر ... وقد سبق أن أشرنا الى أنه حضر اليها زائرا قبل أن يأتيها فاتحا ، وعاش فيها فترة ، فدرس أحوالها وعرف طباع أهلها وعاداتهم ، وشاهد آثارها ولمس كثرة خيراتها ، وذكر الكندى أنه عرف مسالك البلاد وطرق القدوم اليها ، وأفادته هذه الزيارة كثيرا حين عاد الى مصر فاتحا .

أول عمل قام به عمرو هو **منحه الأمان للبطريق بنيامين** ، فقد احس بتعلق القبط به وبمحبتهم له ، وكان بنيامين رئيس الأساقفة ويتولى السلطة الدينية فى مصر ، وكان لولايته هوى فى قلوب الناس لحكمته وحسن رأيه ، حتى أنه كان حبيبا اليهم عزيزا عليهم ، لم يتساهل فى أمر الدين ، ولم يغمض عن رذيلة فى الخلق ، وكان يأخذ القساوسة بالشدة اذا هم جاوزوا الحد فى حياتهم .. كان يسعى الى أن يطهر الكنيسة ، ويجزى المسىء من أهلها ، وكان يهدف الى اعادة وحدة الكنيسة القبطية وأن يعيد اليها اطمئنانها واستقرارها ... وكان قد اضطر الى الهرب من الاسكندرية عقب ظهور دعوة قيرس كما أوصى الأساقفة بالهجرة الى الجبال والصحارى ليتواروا فيها حتى يرفع الله عنهم غضبه .

أصدر عمرو أمرا بمنح البطريق الأمان ودعاه الى العودة آمنا على نفسه وقال فى ذلك « فليأت البطريق الشيخ آمنا على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين فى سواها ، لا ينالهم أذى ولا تخفر لهم ذمة » .

وبلغ الأمان بنيامين فخرج من مخبئه فى الصحراء وسافر الى الاسكندرية حيث رحب به عمرو وقال له « اننى لم أر يوما فى بلد من البلاد التى فتحها الله علينا رجلا مثل هذا بين رجال الدين » ، وسعد بنيامين بكلماته فقال لقومه

وأتباعه «عدت الى بلدى الاسكندرية فوجدت بها أمنا بعد خوف ، واطمئنانا بعد البلاء ، وقد صرف الله عنا اضطهاد الكفرة وبأسهم » .

وكانت عودة بنيامين فرصة لتقبل أهل مصر وجود الجند المسلمين بينهم وتعاونهم معهم وتسهيل أمورهم ومهمتهم .

* * *

ومن هذه الوسائل أيضا دراسة البلاد وتفهمها . ذلك أن دراسة لغة البلاد وتفهمها من شأنه أن ييسر التعامل مع الناس ، فاذا تعذر دراستها وجب الاستعانة ببعض أبناء البلد يصاحبون الجيش ويكونون حلقة الاتصال بينه وبين الأهالى ، ولقد أثر عن نابليون أنه حفظ بعض الكلمات العربية خلال وجوده فى مصر وكان يتكلم بها مع الناس تقربا اليهم ودفعا بالطمأنينة الى نفوسهم ... أما عمرو بن العاص فقد تعذر عليه وعلى جنده التحدث بغير العربية ، وكان الأهالى فى مصر — القبط والروم — يتحدثون بلغتهم ، ومن هنا أصبح التفاهم متعذرا بين الجيش والأهالى ، ولم ييأس عمرو ... بل لجأ الى بعض رؤساء القبط وقربهم اليه واصطفاهم وأحسن معاملتهم وجعل منهم أداة اتصال بينه وبين أهل البلاد ، مما يسر التعامل بين الطرفين ، وسهل التفاهم بينهما .

* * *

ان التحرك فى داخل البلاد التى تدور فيها المعارك عملية شاقة لأنها تتطلب طرقا ميسورة ومأمونة يمكن التحرك عليها والانتقال بواسطتها حتى تصل القوات الى مواقع القتال وهى محتفظة بقوتها وحيويتها ، دون أن يصيبها جهد أو تعب ، أو يؤثر على امكانياتها فى القتال وقدرتها على ممارسته ، ولم يجد عمرو صعوبة فى حل هذه المشكلة الادارية ، فبعد أن احتل حصن بابليون ، وتحرك بقواته فى اتجاه الاسكندرية صحب معه عددا من القبط الذين دخلوا فى سلطانه ، واستعان بهم فى اصلاح الطرق واقامة الجسور .

كما أنه أراد اقامة جسر فوق النيل بجانب بابليون يسهل التحرك وييسر الانتقال ، وكانت اقامته تتطلب توفر مواد البناء ، وهى مواد لم تكن متوفرة عند المسلمين ، ولهذا انتهز فرصة جلاء كثير من المنازل والقصور المحيطة بالاسكندرية وهجرة أهلها الى داخل المدينة ، فأمر بأن تنزع أخشابها وحديدها ، وأن يرسل الى بابليون حيث أقام الجسر .

* * *

ومن اهم المشاكل الادارية مشكلة وجود اتصال مباشر بين القائد ايثمـا كان وبين جنـــده .

فالاتصال الجيد يسهل وصول المعلومات وتلقى الأوامر حتى تسير الأعمال الحربية فى الخط المحدد لها وبالأسلوب المطلوب ، ولقد بذلت القيادات الحديثة قصارى جهدها لتوفير وسائل الاتصال ، ولهذا فاننا نجد فى التشكيلات الحديثة سلاح الاشارة وهو سلاح يشرف على وسائل الاتصال ، ويجعلها على مستوى خدمة القوات بصورة ناجحة وفعالة ، ولا يفوتنا أن نوضح أن القيادات المختلفة تبذل جهـــدا كبيرا — تقديرا منها لأهمية وسائل الاتصال — لتعطيـــل وسائل اتصال العدو لضمان وصـــول التعليمات والأوامر مما يؤثر تأثيرا مباشرا على تحرك القـــوات وتصرفها .

ولقد أعطى عمرو لهذه المشكلة كل اهتمامه وعنايته .

فقـــد حـــدث فى موقعـــة كوم شريك أن أحاط الروم بالمســـلمين من كل جانب ، وهاجموهم هجوما شديدا قاسيا ، وانقطع الاتصال بين القوة الاسلامية وقيادتها ، وكان المسلمون فى أشد الحاجة الى مدد يشد من أزرهم ويعينهم على عدوهم ، فأمر شريك قائد المســـلمين فى المعركة مالك بن نعـــامة باقتحام قوات الروم على فرسه والاسراع الى مركز الرئاسة حيث يوجـــد عمرو واخطـــاره بالموقف وطلب العون ، وفعل مالك ما أمر به ، وأدرك الروم الهدف الذى كان ينشده مالك فأسرعت قوة منهم وراءه لتمنعـــه من الاتصال برئاســـته ، ولكنه أفلت ووصل الى حيث يقيم عمرو ، ونقل اليه صورة الموقف ، فأسرع باعداد المدد اللازم ، الذى وصـــل الى أرض المعركة فى الوقت المناسب ، واسهم فى تحويل الهزيمـــة الى نصر .

وحرص عمرو على أن يكون الاتصال بينه وبين القيادة العامة فى المدينة قائما حتى تكون لدى الخليفة صورة واضحة المعالم عما يجرى فى مصر ، وحتى يكون الخليفة على استعداد لتقديم ما يطلب منه من المدد سلاحا أو مقاتلين ، وبقى الاتصال قائما رغم بدائية الوسيلة ، وهى استخدام الخيل فى قطع المسافة بين مصر والمدينة وعلى ظهورها رســـل يحملون المعلومات والأوامر ، فلم يكن من المتيسر ايجاد وسيلة أخرى أسرع وأجدى ، وعموما فان هذه الوسيلة كانت ايجابيـــة لأنها حققت الهدف منها .

* * *

ومن المشاكل الادارية التى تعترض الجيش مشكلة أيواء الجنود وسكنهم

ولقد أبدى عمرو اهتماما لحل هذه المشكلة ، فأمر باقامة مدينة الفسطاط، وسمح لجنده بامتلاك الأرض واقامة المنازل ، وفرض على المصريين فريضة الضيافة لمدة ثلاثة أيام

وروى البلاذرى ان الزبير اختط المدينة واتخذ لنفسه فيها دارا ، وجعل فيها السلم الذى صعد به الى سور الحصن ، وابتدأت المدينة صغيرة المساحة، ثم نمت نماء سريعا بعد سنة من انشائها ، وصارت عاصمة مصر بعد أن رفض الخليفة عمر أن تكون الاسكندرية هى العاصمة ، وكانت أكثر منازلها من اللبن ، وعلت المبانى بها الى اربع طبقات وخمس .

واقام عمرو فى الموضع الذى كان فيه لواؤه مسجدا سمى مسجد اهل الراية ، كانت له ستة أبواب وفيه منبر يقوم عليه فى خطبته ، وبنى قبلته كما ذكر ياقوت ثمانية من أصحاب النبى منهم الزبير والمقداد وعبادة بن الصامت .

وبنى عمرو مقبرة للمسلمين .

وبنى أيضا حمامات يستخدمها الجنود حفاظا على صحتهم وضمانا لنظافتهم .

القائد والجند

القيادة هى فن معاملة الطبيعة البشرية .

والجند فى الحرب يحملون السلاح ، ويخوضون غمار المعارك ، ويتعرضون كل لحظة للموت ، ولا شك أن هناك دوافع كثيرة تدفع الجند الى خوض المعركة بروح وقوة وعزم واصرار ، دون أن يفكر لحظة فى الموت الذى يواجهه ، وانما يكون كل تفكيره فى شىء واحد فقط ، هو انتزاع النصر بأية وسيلة وبكل الجهد وبأغلى ثمن ، ولو كان ذلك على حساب روحه وحياته .

وفى مقدمة هذه الدوافع تأتى العلاقة التى تربط بين القائد والجند ، هذه العلاقة تتولد عنها ثقة القائد إلى جنده ، ثم ثقة الجند فى قادتهم .

ومن أهم هذه العلاقة اهتمام القائد بشئون جنده وعنايته بأمورهم وحرصه على سلامتهم ومعاملتهم معاملة طيبة .

واذا أحس الجند باهتمامات القائد كان ذلك موضع تقديرهم ، فيبادلونه مشاعرهم واحاسيسهم ، ويبذلون من ذات أنفسهم فى سبيل تحقيق النصر الذى يسعى اليه .

يقول ستراط فى هذا المعنى « يجب أن يعرف القائد كيف يعطى جنـوده تعييناتهم ، وأى مؤن أخرى لازمة للحرب » .

وروى عن أحد القادة العظام أنه خاطب ضباطه يوما فقال لهم : « انى أناشدكم بصفتكم ضباطا الا تأكلوا أو تدخنوا أو تجلسوا أو حتى تستندوا على شجرة ، حتى تتأكدوا شخصيا أن جنودكم قد هيأت لهم الظروف أن يفعلـوا ذلك قبلـكم » .

وكان نابليون يمـر على الجنود يجلس معهم ويتحدث اليهم ، ويحـل مشاكلهم بنفسه ، ويناقشهم فى كل الأمور ، ويهيىء لهم وسائل الراحة والترفيه.

وأثر عن مونتجمرى قوله لضباطه : « اذا أهملت العامل الانسـانى فلن تكون أبدا قائدا ناجحا » .

واذا أراد محقق منصف أن يقيم عمرو بن العاص من هذا الجانب لوضعه فى مصاف القادة العظام الذين حفل بهم تاريخ الحرب .

فمنذ تولى عمرو قيادة جيوش المسلمين .. فى الجزيرة .. فى فلسطين .. فى الشام .. فى مصر .. فى برقة .. فى طرابلس .. وهو يسعى بصدق واخلاص الى زيادة صلته بجنده وتوثيق علاقته بهم ... وكان ذلك من أهـم أسباب انتصاراته فى هذه الأرجاء كلها .

بعد أن استتب الأمر لعمرو فى مصر ، واستقرت الأحوال بها ، قـرر أن يمنح جنده حق امتلاك الأرض ، مكافأة لهم على جهـادهم الكبير وصبرهم الطويل واعترافا بفضلهم وتقديرا لبطولاتهم ، وكانت تعليمات الخليفـة تقضى بغير ذلك حتى يتفرغ الجند للقتال دون ارتباط بالأرض ، ولكنه اسـتطاع أن يقنع الخليفة برأيه ، فأجازه وسمح للجند بامتلاك الأرض ، على أن يعاملوا كسائر الناس ، فيدفعون عنها الخراج .

وأعطى عمرو للجند نصيبهم من الجزية ولم يحرمهم وسـمح لهم باقامة دور للاقامة ، وبنى لهم مسجدا يقيمون فيه شعائر الدين .

ومن أبرز ما اتصفت به قيادة عمرو فوق رعايته لمصالح جنده ومحافظته على سلامتهم ، اعتماده على القادة الأصاغر ... قادة الصف الثانى .

فكما اهتم عمرو بالجند اهتم بالقادة الأصاغر ، وارتبط بهم برباط الأخوة

والاحترام والتقدير ، ايمانا منه بأن القائد لا يعمل وحده فى الميدان ولا يتحمل وحده عبء المعركة ومسئولية القتال ، فهناك قادة أصغر يعملون تحت قيادته ، هم حلقة الاتصال بينه وبين الجند ... وهم عادة يكونون على مستوى يسمح لهم بتفهم الأوامر وتنفيذها على الوجه الذى يرجوه منهم ، ولهذا فان العلاقة بين الطرفين يجب أن تقوم على الحب والود والتقدير والاحترام، ومن هنا تتولد الثقة ... ولا شك فى أن احجام القائد عن منح معاونيه من القادة الأصاغر سلطاتهم عمل لا يتلاءم مع طبيعة الحرب ، ويعتبر تخلفا وجمودا فى تفكير القائد .

ومن واجب القائد أن يبث فى القادة الأصاغر الصفات اللازمة التى تؤهلهم مستقبلا ليكونوا قادة لهم مكانتهم فى التاريخ العسكرى ، يحملون الرسالة ويكملونها ... يجب أن يبث فيهم اليقظة وحسن المظهر ، والشجاعة ، والحزم، والثقة ، وقوة التحمل ، والقدرة على التصرف ، والحماس ، والتواضع ، والروح المرحة ، والنزاهة ، والذكاء ، والحكمة ، والعدل ، والولاء ، وقوة الشخصية ، والمشاركة الوجدانية للجنود .

وكان اهتمام عمرو بالقادة الأصاغر جزءا من سياسته العامة فى الاهتمام بكل من ينخرط تحت قيادته ، ولقد نال القادة نصيبا وافرا من اهتمامه وتوجيهاته وارشاداته .

وكان القادة الأصاغر يدركون عظم المسئولية الملقاة على عاتق القائد ولهذا تجمعوا حوله فى رباط قوى يبادلونه الرأى ويناقشونه فى لين ، ويقدمون المشورة وينفذون الأوامر ، وكانوا خير معاونين ، اعتمد عليهم اعتمادا كبيرا فى كل معاركه وكانوا جميعا يتميزون بصفات القائد وسماته ... فيهم ايمان عميق ، وفكر ثاقب ، وعقل ناضج ، وعقيدة راسخة ، ووجدان حى ، وشجاعة موفورة واقدام جرىء ...

ولقد وصف الخليفة عمر بعضهم فى رسالة بعث بها الى عمرو قال فيها « انى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل على كل ألف منهم رجل بمقام ألف » ... من هؤلاء : الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، وخارجة بن حذافة ، وآخرون ... ولقد أسند عمرو الى كل منهم عمليات مستقلة ، فقاموا بها على خير وجه وأدوها أحسن ما يكون الأداء .

روى البلاذرى أن عمرا وجه خارجة بعد فتح الاسكندرية الى الفيوم والأشمونين وأخميم وقرى الصعيد ، فنجح فى مهمته وصالح أهل هذه البلاد .

وكان عبادة سفيره الى المقوقس .

والزبير بن العوام كان له فضل فى فتح حصن بابليون .

ويسر بن ارطاة فتح مدينة دوان آخر فتوحات شمال أفريقيا .

وعبد الله بن الزبير فتح صبراته .

وعقبة بن نافع فتح برقة وزويلة .

وعبد الله بن حذافة كان بطل معركة عين شمس .

وعمير بن وهب فتح تنيس ودمياط ودميرة .

وغيرهم كثيرون ... كل منهم أدى واجبه بذمة وضمير وشرف .

السياسة والحرب

ان القائد العسكرى يجب أن يتصف بالسياسة والكياسة .

أى أن يكون انسانا اجتماعيا ، يعرف كيف يستغل الظروف لصالح القضية التى يجاهد فى سبيلها ، وكيف يكتسب الشعور العام وعطف الناس واحترامهم وتقديرهم .

ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى المثل فى هذا المجال يوم الفتح العظيم ، حين دخل مكة ، واستسلمت قريش كلها ، وانتظرت حكمه فيها ... لقد عفا رسول الله عن أعدائه ، ولم يشأ أن يذيقهم ذات الكأس التى أجبروه يوما على أن يشرب منها ... لقد سمت نفس رسول الله كل السمو ، وارتفعت فوق الأحقاد وفوق الانتقام ، .. ها هم أولاء أهل قريش كبيرهم ووضيعهم فى قبضة رسول الله ، أمره فيهم نافذ ، وحياتهم معلقة بكلمة تفوه بها شفتاه ، ... وها هو ذا رسول الله وقد أمكنه الله من عدوه ، وجعل معه رجال ينفذون رغبته ويحققون كلمته يستطيعون أن يبيدوا قريشا بأكملها فهم مع رسول الله فى موقف المنتصر القادر الذى لا ترد له ارادة ولا يخيب له أمر ... سأل رسول الله قومه « ما ترون أنى فاعل بكم ؟ » فقالوا : « أخ كريم وابن أخ كريم » .. فعفا رسول الله عنهم قائلا : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ... وكان عفوه عليه السلام عملا سياسيا حكيما كانت له آثار نفسية بعيدة المدى لدى جميع العرب الذين كانوا يتوقعون منه الثأر ، فلما وجدوه سمحا كريما جاءوا اليه يؤيدونه ويبايعونه ، وأسلمت قريش رجالا ونساء ، وبايعت .

وقائدنا عمرو كان يجيد الجمع بين الحرب والسياسة ، وعرفت قريش عنه ذلك فى جاهليته ، فجعلته سفيرها لدى النجاشى ، وعرف عنه ذلك رسول الله بعد اسلامه فجعله سفيره الى عمان .

لقد ساس عمرو البلاد التى فتحها — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة له وأسوة فى كل عمل قام به — بأسلوب سياسى حكيم استمده من روح الاسلام الكريمة وأصوله العظيمة ومبادئه الانسانية ، فكانت مكاسبه كثيرة ، وأقبل عليه الناس فى مصر وفى شمال أفريقيا يرحبون به وبالاسلام .

فى مصر كانت لعمرو جولات سياسية ناجحة بجانب جولاته العسكرية المظفرة ... **وكان التسامح الدينى أول خطوة سياسية موفقة له ، فقد أباح حرية العقيدة والدين** ، وسار فى هذا الاتجاه على نهج الاعتدال والتسامح ، ولم يكن له هوى مع أحد المذهبين الدينيين السائدين فى مصر ، وقف منهما موقفا أرضى الطرفين ... وجعل صلته برجال الدين من الطرفين متساوية تقوم على أساس الاحترام والتقدير وحرية العبادة ، مع الزام الطرفين بالسياسة العامة التى تقرها القيادة السياسية الاسلامية فى حكم البلاد .

طلب المقوقس من عمرو أن يلتقيا ليتباحثا فى أمر الصلح ، فلما التقى به رحب به ترحيبا أشعر الرجل بالسعادة والغبطة ، وأكرمه وأحسن وفادته ، وقال له : « لقد أحسنت فى الشخوص الينا » فسعد الرجل وقال له : « ان الله قد أعطاكم هذه الأرض » .

وأعظم عمل سياسى قام به هو اطلاق سراح بنيامين ، فقد أحس بمدى تعلق الناس به فأمر « أينما كان البطريق نعده بالحماية والأمان وعهد الله ، فلبأت الى هاهنا فى أمان واطمئنان ، ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته »، وجاء فى رواية أخرى أنه قال : « فليأت الشيخ والبطريق آمنا على نفسه وعلى القبط الذين بأرض مصر والذين فى سواها لا ينالهم أذى ولا تخفر لهم ذمة ».. وهو فى هذا القول يمنح الأمان لكافة الأقباط فى مصر وفى غيرها وتحققت بذلك الحرية الدينية ، وعاد بنيامين فقوبل بما يليق به من الترحاب والتكريم بعد غياب ثلاثة عشر عاما عشرة منها فى حكم هرقل على حد ما ذكره ساويرس .

وعفا عمرو أيضا عن جميع رجال الدين ودعاهم الى العودة من مخابئهم ليباشروا عملهم الدينى فى حرية كاملة مطلقة ، وصور ساويرس اثر هذا العمل السياسى الجليل عند عامة المصريين فقال : « فرحوا كما تفرح الأسخال اذا حلت قيودها ، واطلقت لترتشف من لبان أمهاتها » ، وهكذا خرج القبط من عهد ظلم وعسف تطاول بهم الى عهد فيه سلام وأمان واطمئنان ..،

والخطة السياسية الأخرى كانت فى أسلوب عمرو فى التعامل مع بنيامين ، فقد كان يلتقى به دائما ويستشيره فى أمور البلاد ويعمل بمشورته ورأيه ... لقد استماله الى جانبه فاستمال معه الشعب كله .

ومن الأعمال السياسية الهامة اطلاق الحريات ... كل الحريات ... وكان من نتائج ذلك أن أقبل عقلاء الروم والمصريين على دراسة المذاهب المختلفة ، ودخل كثير منهم فى الاسلام بعد اقتناع ودراسة .

لم يفرض عمرو خلال حكمه نظاما سياسيا خاصا ، وأبقى الحكم المدنى على ما هو عليه ، لم يغير فيه شىء ... ولما كان العرب رجال حرب وسيف فانه رأى أن يبقى أكابر حكام الروم فى أعمالهم يديرونها كما كانت سائرة عليه من قبل ، وسارت طائفة كبيرة من عامة الروم على هذا المنهج ، الا أن البعض منهم لم يرض أن يبقى تحت حكم الاسلام فجعل العرب مكانهم عمالا من القبط.. **ترك المسلمون أعباء الحكم وسياسته لأهل البلاد ، وتفرغوا لشئون الدين وأموره .**

وكان نظام الضرائب الذى وضعه عمرو جزءا من خطته السياسية لاصلاح المجتمع المصرى والنهوض به ، لقد خفف من الضرائب وجعلها تتناسب مع الدخول حتى لا يرهق الناس ... وأعفى عمرو القرى التى أصابها الخراب من الجباية ، وجعل فى كل بلدة قطعة أرض يخصص ريعها للمنافع العامة .

* * *

وأخيرا مات عمرو ... ودفن بسفح المقطم .

مات بعد حياة طويلة حافلة بالعمل الجاد والجهاد العظيم .

عندما جاءته الوفاة استقبل القبلة وقال مناجيا ربه : « اللهم انك أمرتنا فعصينا ، ونهيتنا فارتكبنا ، وهذا مقـام العـائذ بك ، فان تعف فأنت أهل ، وان تعاقب فبما قدمت يداى ، اللهـم لا قوى فانتصر ، ولا برىء فاعتـذر ، ولا مستكبر بل مستغفر أستغفرك وأتوب اليك ، ولكن لا اله الا الله » .

وقال لابنه يصف لحظاته الأخيرة « والله كأن السـمـاء قد أطبقت على الأرض ، وكأنى أتنفس من سم ابرة ، وكأن غصن شـوك يجذب من قدمى الى هامتى » .

* * *

الشخصيّة الخامسة

المثنى بن حارثة

« رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد »
قيس بن عاصم

غير مجهول النسب

شخصية عربية أصيلة ممتازة ، كان لها دور كبير فى حياة العرب والاسلام ... دور ملىء بالبطولات عامر بالأمجاد ، زاخر بالقومية أصيل فى أحداثه ووقائعه .

قائد عربى له تاريخ عسكرى مجيد لم تسلط عليه الأضواء ، رغم أن بطولاته كانت حديثا على كل لسان ، وعبقريته لم يختلف فيها مؤرخان .

اول مسلم هاجم امبراطورية الفرس فى عقر دارها ، فحمل عن المسلمين مسئولية لم يحملها غيره ، وجرأ العرب على محاربة الفرس فرفع بذلك معنوياتهم .

كان نشاطه العسكرى فوق أرض العراق بداية لفتحه فيما بعد .. وكانت معركة البويب ايذانا بانهيار الدولة الساسانية وانتشار الاسلام فى ربوع العراق .. تماما كما كانت معركة اليرموك ايذانا بانهيار دولة الروم وانتشار الاسلام فى ربوع الشام .

بدأ حياته العسكرية فى بداية عهد أبى بكر ، وانهاها شهيدا متأثرا بجراحه التى أصيب بها فى معركة الجسر فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ... وبين البداية والنهاية كتبت وسجلت قصة حياة بطل لا يبارى كانت مشرقة حافلة بالأمجاد والبطولات .

هذا هو المثنى بن حارثة الشيبانى ...

« رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد » ، على حد وصف قيس بن عاصم ، حين سأله الخليفة أبو بكر : « من هذا الذى تأتى أخبار وقائعه قبل معرفة نسبه ؟ » .

والمثنى ينتمى الى بنى شيبان ، أحد فروع بكر بن وائل ، الذى ينتهى نسبه فى ربيعة ، كانت لغتهم العربية ، وعبادتهم الأوثان ، وموطنهم فى اليمامة فيما بين البحرين الى أطراف سواد العراق ، وحدد الهمدانى ديارهم فقال : « انها تبدأ من اليمامة الى البحرين ، الى سيف كاظمة ، الى البحر ، فأطراف سواد العراق ، فالأبلة ، فهيث » ، وذكر البلاذرى أن أرض البحرين كانت مملكة للفرس ، وكان بها كثير من العرب من عبد قيس وبكر بن وائل وتميم ، وكانوا مقيمين فى باديتها .

كان لبنى شيبان أمجاد كبيرة وأيام جليلة فى تاريخ العـــرب ، ظهر منهم هانىء بن قبيصة صاحب واقعة ذى قار .. وبسطام بن قيس صاحب القــول المشهور : « قد علمت العرب أنا بناة بيتها الذى لا يزول ، ومغرس عزها الذى لا يحول ، لأنا أدركهم للثار ، واضربهم للملك الجبار ، واقولهم للحق ، والدهم للخصم » ... ومنهم مرة بن ذهل وابنه جساس الذى كان قتله كليبا السـبب المباشر لحرب بين بكر وتغلب دامت سجالا أربعين عاما .

ذكر ابن الأثير أن الاسلام جاء : « وليس فى العرب أعز دارا ولا أمنــع جارا ولا أكثر حليفا من شيبان » .

وسجل لهم التاريخ موقفا بطوليا فى موقعة ذى قار التى دارت رحـاها ضد الفرس ، فقد زلزلت ســيوف بنى شــيبان ورماحها تاج كسرى ، فقضى رجال بنى شيبان وأبطالهم على جموع الفرس حتى أن رسول الله قال لأصحابه عن يوم ذى قار : « هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبى نصروا » .

فى هذه البيئة التى تميزت بالبطولة والكفاح والرجولة نشأ المثنى وترعرع، وكان لها دون شك أثر كبير فى انماء روحه ونشوئه على الايمان بالمبدأ والتصلب بالعقيدة والجود بالنفس والصدق والعزيمة والصبر والجلد والتحمل والشجاعة والاقدام والقوة والتفنن فى ضروب الفروسية والاستماتة فى الحرب .

ولقد اختلفت الروايات فى اسلام بنى شيبان ، جاء فى بعضها أن المثنى وفد على النبى سنة تسع مع وفد قومه فأسلم وأسلموا ، وبعث رسول الله إليهــم العلاء بن الحضرمى ليتولى شئون الدين عندهم ، ويعلمهم مبادىء القــرآن وأصوله ، ويفقههم فيه ويؤمهم فى صلاتهم ويقضى بينهم بما يقضى به الدين ... وجاء فى البعض الآخر أن الرسول بعث العلاء بن الحضرمى فى العــام الثامن الهجرى الى أهل البحرين يدعوهم الى الاسلام ، وذكر البلاذرى أن رســول الله بعث معه كتابا للمنذر بن ساوى جاء فيه : « سلام على من اتبع الهدى ، فانى أدعوك الى الاسلام .. أسلم تسلم يجعل الله لك ما تحب ، واعلم أن دينى سيظهر الى منتهى الخف والحافر » .

واســـلم كثيرون من بينهم بنو شــيبان ، وبقى من بقى على دينــه وادى الجزية .

ومع اختلاف الروايات ، فان هناك اتفاقا فى الرأى على أن بنى شــيبان دخلوا فى الاسلام عن ايمان واقتناع ، وكان المثنى بن حارثة من أوائل المؤمنين ، وكذلك كانت زوجه ســلمى ؟

ولا شك فى ان اسلام قوم كبنى شيبان كان نصرا للاسلام وفتحا مبينا فى منطقة البحرين ... وليس ادل على ذلك من موقفهم من فتنة الردة فقد ابوا ان يستجيبوا لداعى الردة وبقوا على اسلامهم ، وظل المثنى مؤمنا راسخ العقيدة ، ابى أن يعود ادراجه الى عبادة الجاهلية ، واتخذ من المرتدين موقفا ايجابيا ؛ فقاوم الحطم بن ضبيعة — زعيم المرتدين — الذى دعا قومه الى قتال ابى بكر والى منع الزكاة ، ثم جمعهم وسار بهم الى قطيف وهجر ، وانضم المثنى الى جيش المسلمين بقيادة العلاء بن الحضرمى الذى حركه ابو بكر الى البحرين لمواجهة المرتدين ، وشارك فى بقاء راية الاسلام خفاقة عالية فى هذه المنطقة التى يزيد من حساسيتها جوارها لبلاد الفرس حيث كانت النار تعبد .

ان الايمان القوى الراسخ فى قلب وذهن ووجدان المثنى هو الذى حدد موقفه من الردة والمرتدين ، فقد كان هذا الايمان سياجا حفظه وصانه فأصم أذنيه عن دعوة الردة ، ثم كان دافعا أثاره وحمسه فاتخذ موقفا ايجابيا وجمع الجموع وانضم الى جيش العلاء وابلى بلاء حسنا خلال القتال ، ثم تولى عملية مطاردة المنهزمين منهم على طول ساحل البحر واستولى على القطيف وتقدم حتى جاور حدود بلاد الفرس ..

كان للمثنى اخوان : المعنى ومسعود ...

كان المعنى ساعده الأيمن فى القتال ، لمس شجاعته وبسالته فجعل منه قائد الخيالة ، وكانوا يطلقون عليها اسم المجردة (اى الكتيبة من الخيالة التى لا مشاة معها) .. شهد معه جميع معاركه ، وخاضها الى جانبه ، ومن اشهر عملياته العسكرية استيلاؤه على حصن المراة ، وهو حصن قريب من البصرة كان لامراة تدعى كامورازاد ..

وكذلك كان الأخ الثانى مسعود ؛ فجعله المثنى قائدا للمشاة ، فأسهم فى معظم المعارك ، وابلى بلاء حسنا فى واقعة الجسر ، واستمات فى القتال وجرح ، ولم تمنعه اصابته من المشاركة الجادة فى موقعة البويب حيث نال شرف الاستشهاد .

وكان خاله عمران بن مرة احد زعماء قومه وموضع فخرهم لبطولته وشهامته وبسالته ، كان له اسمه وأمجاده وعلو مكانته ورفيع منزلته ، حتى أن الشاعر العربى اعشى همدان قال عنه انه : « ساد فى الجاهلية وساد فى الاسلام » ، رأى فيه المثنى مثلا وقدوة فاحتذى به واقتدى ببطولته وسار على منهجه ونسج على منواله ،

وشاركته زوجه سلمى بنت حفصة حياته ، ورافقته الى رســـول الله فاعلنت اسلامها ، وعاشت معه حياة جهاده كلها ، وشـــهدت معه المعارك فوق أرض الفرس ، ذاقت مرها وأهوالها ، وســـعدت بالانتصارات العظيمة التى حققها زوجها ، وبقيت الى جانبه حتى أسلم الروح متأثرا بجراحه ... ولم تنس واجبها تجاه دينها كامرأة مسلمة لها دور ومهمة ، فظلت فى الميـــدان بعد أن تزوجت من سعد بن أبى وقاص الذى تولى القيادة الاسلامية فى جبهـــة فارس بعد وفاة المثنى ، وشهدت المعارك العظمى تحت رايته حتى تم النصر الكامل ودانت دولة الفرس بالاسلام ...

وظلت تعيش بعد وفاته بطولاته فى ميادين القتال ، وتتخيله فى كل معركة يخوضها المسلمون بطلها ورجلها ، حتى أنه عندما هاجمت كتائب الفرس احدى وحدات المسلمين يوم أرمات (معركة القادسية) صاحت هلعة متذكرة بطـــولة المثنى « وامثناه ! ولا مثنى للخيل اليوم » ، وأغضبت صيحتها ســـعد بن أبى وقاص فلطمها قائلا : « وأين المثنى من هذه الكتيبة التى تدور عليها الرحى » فقالت له : « أغيرة وجبنا » .

وارتبط اسم المثنى بيوم مجيد من أيام العرب هو يوم الفرات ، اذ امتطى صهوة فرسه الدليكة ، وتولى قيادة أهله وعشيرته فى قتال ضد بنى تغلب قرب الفرات ... لقد أحرز انتصارا رائعا عليهم وقتل رجالهم وأغرق كثيرين منهم فى الفرات ، وساق انعامهم وأخذ أموالهم ، وكان انتصاره أحدوثة زمانه ، حتى أصبح يوم الفرات حدثا تاريخيا يذكر به العرب أهم أحداثهم وتواريخهم وقد تغنى به شاعر من بنى شيبان فقال :

ومنا الذى غشى الدليـــكة ســـــــيفه
على حـــين أن أعيـــا الفرات كتائبه

الـــكم والـــكيف

ان المتعمق فى دراسة تاريخ الحرب والمتتبع لظروفها وتطورها ، يدرك أن هناك نظريتين سادتا ميدان الحرب منذ عرف الانسان الحرب حتى يومنـــا هـــذا ...

النظرية الأولى هى الكم أى العدد .. ويقصـــد به عدد المقـــاتلين الذين يشتركون فى القتال ويواجهون العدو ، وكمية الســـــلاح التى يستخدمونها ، سادت هذه النظرية ميدان القتال خلال القرون الطويلة التى سبقت الاسلام ، فقد كان النصر فى المعركة دائما للجانب الأكثر عددا والأوفر سلاحا ، ولهـــذا

كان القادة يسعون دائما الى ان يتوافر تحت لوائهم العدد الكبير من المقاتلين، والعدة الكثيفة من السلاح ، وكان مجرد اجتماع هذا العدد يدخل الطمانينة الى قلب القائد فيضمن الى حد كبير النصر فى لقائه المنتظر مع عدوه .

وسعيا وراء العدد الكبير وجدت فئة الجنود المرتزقة ، وعرفت هذه الفئة فى التاريخ ، وجاء ذكرهم فى مواقع كثيرة ، واتخذ هؤلاء الحرب مهنة للكسب والرزق ، وكانت القيادات ترحب بهم وتدفع لهم أجورهم ، لأنهم كانوا يمثلون زيادة فى عدد القوات مما يزيد الفرصة فى كسب المعركة .

ولما جاء الاسلام واذن للمسلمين بحمل السلاح ومواجهة اعدائهم دفاعا عن عقيدتهم ووجودهم ، اهمل الرســـــول نظرية الكم الى حـــد ما ، واهتم اهتماما بالغا بالكيف .. أعنى أنه عليه السلام اهتم بالفرد المحـــارب ذاته ، بقدراته وامكانياته ومشاعره ومعنوياته ... اى اهتم باليد القوية التى تحمـــل السلاح ، والقلب المؤمن الذى يخفق من خلف السلاح ، والعقل المفـــكر الذى يدبر وسائل استخدام السلاح ... وبذلك اقام الاسلام النظرية الثانية التى سادت ميدان المعركة على انقاض النظرية الأولى .. اى أن الاسلام دعا الى الاهتمام بالكيف دون الكم ذلك أن الحرب تعتمد اساسا والى حد كبير علـــى نفسية المقاتل ومعنوياته ويأتى الاهتمام بالسلاح فى المرتبة الثانية ..

وهذه النظرية اخذت بها القيادات العسكرية التى جاءت بعد الاســـــلام وآمنت بها واعتمدت عليها فى كافة خططها استعدادا لأية معركة ادراكا منهـــا لأهمية الروح المعنوية التى هى — من وجهة نظر المشـــتغلين بعلم النفس — القدرة على العمل والصمود بتصميم وعزم مهما كان العمل قاسيا مرهقا .

ويؤيد ما نذهب اليه قول المارشال بودينى : « ان الفوز فى الحرب يكسبه الطرف الذى يتمتع بروح معنوية أسمى من غريمه ، فالروح المعنوية غالبـــــا ما تعاون الجيش على النصر حتى ولو كانت الظروف كلها مجتمعة ضده » ... وتســــاءل بودينى : « ما قيمة قوة الجيش فى عدده وعدته ان كانت روحـــــه المعنوية على درجة من الضعف ؟ » ، واجاب فقال : « انه لا شك يفقد معداته فى الدور الأول من القتال ، ومن ثم يلقى الهزيمة » .

لقد انتصر المسلمون فى بدر رغم قلة عددهم وكثرة عدوهم ذلك أنهم كانوا يتميزون بروح معنوية تفوق معنويات عدوهم .. وكادوا أن ينهزموا فى حنين يوم أعجبتهم كثرتهم .. ومن أمثلة التاريخ الحديث أن الجندي الفرنسى حارب عام ١٨٠٠ تحت قيادة نابليون وانتصر ، ثم حارب عام ١٩٤٠ تحت قيادة

فيجان وهزم ... ومرجع النصر والهزيمة هو التفاوت الكبير فى المعنويات ..

عاش المثنى فترة حياته قبل اسلامه يشهد معارك المسلمين ضد أعدائهم ، وأدرك أن الاسلام ينتصر بالكيف دون الكم ، وأن جنده المسلمين كتبوا أروع وأشرف صفحات التاريخ العسكرى رغم قلة عددهم ، وأن النصر الذى حالفهم فى مختلف معاركهم كان عامله الاول والاكبر يتمثل فى معنويات المقاتلين التى خاضوا بها المعارك سعيا الى نصر عظيم او استشهاد كريم ..

وآمن المثنى بهذه النظرية التى وضع أساسها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجعل الكيف هو ركيزة معاركه ، فلم يهتم بالكم قدر اهتمامه بالكيف .. واعتمد فى حروبه على معنويات رجاله دون كثرتهم ، وايمانا منه أن الكثرة العددية لا تضمن النصر ، وأن السلاح فى يد ضعيفة لا قيمة له ،وأن القلب الخالى من الايمان لا يصمد فى معركة ، وأن النفس الضعيفة الخائفة التى تشترى الحياة وتحرص عليها لا تجسر على طول المقام فى الميدان ، وأن القدرة على القتال ومواجهة العدو تتوقف أساسا على ما فى الرجال من بسالة وحماس وجلد ومثابرة وعزم ، وهمة وارادة ، وتضحية وانكار للذات ، ودراية ومعرفة، وخبرة وكفاءة .

فى ضوء هذه المعانى كلها ، ومن خلال ما آمن به المثنى ، اهتم القائد العظيم اهتماما كبيرا بنفسية رجاله ، حتى أصبحوا قادرين على مواجهة الأحداث بما فيها من مخاطر ، قادرين على خوض المعارك وتحمل أهوالها دون أن تهتز أيديهم وهى تحمل السيوف والرماح ، أو ترتعد قلوبهم وهم يواجهون عدوا يفوقهم عددا وتسليحا ، أو تفلت أعصابهم وهم يتعرضون لمفاجآت المعارك وما أكثرها .

وخاض المثنى معاركه كلها وقواته على درجة عالية من المعنويات .. روح متوثبة راغبة فى القتال مشتاقة اليه مقدمة عليه لا تخشى الموت ولكنها تتمناه سعيا الى الجنة التى وعد الله بها المقاتلين من عباده ... وكان هذا هو سر النجاح الكبير والفوز العظيم الذى أحرزته قواته فى غالبية معاركه ... سمع المثنى بعض رجاله فى احدى معاركه يرددون فى خوف وقلق واضطراب : « ما أسرع القوم فى طلبنا » فقال لهم : « لو أدركوكم لقاتلتهم لاثنتين .. التماس الأجر ورجاء النصر » .

يقول المثنى للمسلمين : « لا يعظمن عليكم هذا الوجه (يقصد الفرس) ، فقد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على شقى السواد واجترأ من قبلنا ولها

ان شاء الله ما بعدها » .. وتثير كلماته مشاعر الناس فيقوم أحدهم وقد هزته كلمات القائد فيقول : « انما كان قعودنا عن غزو هؤلاء الفرس الى يومنا هذا تمقشقة من شقاشق الشيطان ، وانى قد وهبت نفسى لله » .. وتلتهب حماسة الناس وترتفـــع روحهـــم فيتقدمون للخــــروج حتى بلغ عدد الخارجين عدة آلاف .

وفى معركة البويب رأى المثنى خللا فى صفوف بنى عجـــل فبعث اليهم يقول : « ان الأمير يقرئكم الســـلام ، ويقول لا تفضحوا المســلمين اليوم » ، فتثور حميتهم ، ويزداد حماسهم ، ويرددون فى صوت كالرعد « نعم » ... تماما كما فعل مونتجمرى حين تولى قيادة الجيش الثامن فى العلمين ، فقـــد خاطب جنده مثيرا حماســـــهم وأبلغهم أنهـــم يقاتلون دفاعا عن شرف الامبراطورية وأمجادها ، وأن انتصـــارهم يزيد أمجـــادهم مجـــدا ، وأن هزيمتهم تصـــيب الامبراطورية فى شرفها وتاريخها ، وأدرك جنــــوده ما يعنيه وتفهموا كلماته وأدركوا خطورة دورهم وأهميته فسعوا الى تحقيق النصر وحققوه .

وعندما اشتد القتال فى البويب جرح مسعود — أخو المثنى — فتضعضع من معه ، وخاطبهم مسعود وهو يتلوى من ألم الجرح : « يا معشر بكر بن وائل ارفعوا راياتكم رفعكم الله ، ولا يهولنكم مصرعى » .. ومات مســـعود متأثرا بجراحه ، وبلغ المثنى النبأ فلم يجزع ولم يحزن لأن قتل أخيه — وهو يجاهد — شرف يتمناه كثيرون ، وخشى أن يؤثر مقتل أخيـــه فى الناس فخاطبهم قائلا : « يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخى فان مصـــارع خياركم هكذا » ... ما أبلغ هذه الكلمة فى موقف حرب عصيب ، وما أعظم أثرها فى قلوب المقاتلين ، لا شك فى أنها أشـــعلت معنويات الجند فدفعتهم الى مواصلة القتال والمداومة عليه بصلابة وصدق وعزم وايمان .

وكان المثنى لا يترك فرصة يتحدث فيها الى الجند تمـــر دون أن يحدثهم بغية اثارة معنوياتهم وحماسهم ، حتى تكون قدراتهم مكفولة وامكانياتهم محفوظة ومشاعرهم ملتهبة ... كان دائما يشجعهم على القتال ويدعوهم الى الصـــمود وكان يردد عليهم دائما : « عاداتكم فى أمثالكم .. انصروا الله ينصركم » .

وفى مواقف الحرج والشدة — وما أكثرها خـــلال المعركة — كانت عادة المثنى أن يتجه بقلبه وحسه الى ربه يناشـــده العون والتأييد والنصر ، ويذكر جنده بوعد الله ويخاطب ايمانهم ... وهو فى ذلك يتشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم حين اتجه الى ربه يوم بدر يناشده النصح والتأييد ... « اللهـــم فنصرك الذى وعدتنى » .

وبينما تتقدم قواته من سوق بغداد الى الانبار ، تنبه بحس القائد العالم القدير ، الى أن وهنا أصاب جنده ، وأن قلقا قد تسرب الى قلوبهم ، فخشى أن تتزعزع ثقتهم ويهن عزمهم ويضعف حماسهم ، فجمع الجند وخاطبهم بكلام هو أروع ما يتوجه به قائد الى جنده ، ولهذا سنتناوله بالتعليق لأهميته ..

قال المثنى :

« أيها الناس ، احمدوا الله ، وتناجوا بالبر والتقوى ، ولا تناجوا بالاثم والعدوان ، انظروا فى الأمور وقدروها ثم تكلموا ، انه لم يبلغ النذير مدينتهم بعد ، ولو بلغهم لحال الرعب بينهم وبين طلبكم » .

وقال :

« ان للغارات روعات تنتشر عليها يوما الى الليل ، ولو طلبكم عـدوكم أدرككم وأنتم على الجياد العراب وهم على المقاريف (جمع مقرف اى الخيـل غير الأصيلة) البطاء ، حتى تنتهوا الى عسـكركم وجماعتكم ، ولو أدركوكم لقاتلتهم لاثنتين .. التماس الأجر ورجاء النصر » .

وقال :

« فثقوا بالله وأحسنوا الظن ، فقد نصركم الله عليهم فى مواطن كثيرة وهم أكثر منـكم وأعز » .

فى هذه الخطبة على قصرها نرى ...

● **أن المثنى قد اتجه بمشاعره واحساساته الى الله أولا ...** هذا الاتجاه يصور لنا ايمانه العميق بالله ، وهو ينقل هذا الايمان الى جنده ، فيدعوهم الى ذكر الله وحده ، كما يدعوهم الى الثقة الكاملة فى الله ، لأنه تعالى أيدهم بنصره فى معارك كثيرة كانوا هم فيها أقل عدة وعددا .

ولا يختلف اثنان فى أن الايمان القـوى العميق بالله من أهم العـوامل النفسية والمعنوية ، فهو يعطى الفرد المقاتل شجاعة وحماسـة وقوة وعزما وتصميما واندفاعا ، وهو يزيل من نفسـية الفرد وتفكيره الخوف ... ذلك السلاح القاتل الذى يهزم الفرد فى داخله قبل مواجهة عدوه .. فان الفرد المؤمن لا يخاف أبدا أن يدركه الموت ، اقتناعا بأن الموت حق على كل نفس ، وانه أمر مكتوب يأتى فى موعد محدد دون تقديم أو تأخير ، وهناك مثل شـائع يقول : « لا يسـكن الخوف مع الايمان » ، والشـخص المؤمن بعقيدته نادرا

ما يتطرق الخوف الى قلبه ، ولقد أكدت التفسيرات العلمية السيكلوجية أنه متى تملك الخوف الفرد أفقده قدرته على التصرف الصحيح ، وأفقده كفاءة القتال ، ان لم يؤد به الى حالات الشلل العقلية والانهيارات النفسية .

● **أن المثنى قد دعا جنده الى عدم الاندفاع وراء الشائعات** ، ويطلب منهم أن يتريثوا ويتبينوا ويقدروا الأمور تقديرا سليما حتى لا يكون تسرعهم من عوامل فشلهم ، كما ينصحهم بعدم الانصات الى الشائعات ، ويصور لهم خطورتها ، وخطورة الحديث الخافت الذى يرمى الى الهدم لا الى البناء .

فالشائعات سلاح خبيث بتار سريع المفعول قوى الأثر سهل الاستخدام ، يثير الدعر والرعب والخوف ، ويقضى على كل أثر للروح المعنوية ، ونضعف بفضله القدره على حمل السلاح ، ويتملك المقاتل شعوره بالخوف والرهبة ، ويصبح ضعيفا متشتت الفكر زائغ البصر مضطرب الأعصاب ... وقيل فيها انها الحرب التى تثمر بغير حاجة الى سلاح يقذف أو دمعه تذرف ، وبغير حاجة الى نقطة دم تبذل أو رجل يقتل ، وفى ذلك قال المسيو رينو رئيس وزراء فرنسا فى ٢١ مايو ١٩٤١ : ان فرنسا جثت على ركبتيها أمام الجيوش الألمانية تطلب الصلح لحسن استغلال الألمان للشائعات التى هدت نفسية الفرنسيين .

● **أن المثنى قد وضع أمام جنده صورة واضحة المعالم لحالة عدوهم** الذى تملكه الذعر فأقعده وشله ،فلم يعد قادرا على السعى فى طلبهم ، وهو بذلك يصور معنويات العدو التىأصبحت فى حالة من الانحطاط ، تضعف عنده الرغبة فى القتال ، وتقلل من عزمه وحماسه وقواه نتيجة للانتصارات العديدة عليه فى عمليات الاغارات المتعددة ، وهو بذلك يرفع بطريق غير مباشر معنويات جنده .

● **أن المثنى فى خطابه قد أثار فى الجند الثقة بالنفس والسلاح** ، فهو يقول لهم ان خيلهم تفوق خيل العدو ، لانها خيل أصيلة تعودت أمور الحرب منذ زمن بعيد ، تكر وتفر فى براعة وفن ، تفوق خيل العدو التى وصفها بالضعف والبطء وعدم القدرة على الحركة السريعة التى تحتاجها المعركه وتتطلبها احداثها المتغيرة .

● **أن المثنى قد أثار فى جنده الهمة والحماس والشجاعة وهى مقومات الروح المعنوية** ، مؤكدا لهم أن لقاء العدو لن يؤثر فى مبادئهم وشجاعتهم وقدرتهم ، لأنهم يقاتلون فى سبيل أحد أمرين نصر عظيم أو استشهاد كريم ، والمسلم حين يسمع حديث النصر أو حديث الشهادة ينسى كل شىء الا القتال

ويطرد عن نفسه الخوف واليأس ، ويظل قوى النفس عظيم الهمة ، مؤمنا بأن الله معه ، يصدق وعده ، وينصر جنده ، ويعز عبده .

هذه المعانى التى وردت فى خطاب المثنى لا تغيب أبدا عن قيادات اليوم التى تهتم اهتماما بالغا باثارة روح الجهاد وكذلك الحماس الدينى لدى الجند ، ولا عجب فى هذا فان جيوشهم اليوم تحرص على أن يكون بينهـا رجال دين يذكرون المقاتلين بواجبهم ويحدثونهم حديث الجهـاد الدينى ، ويؤكدون لهـم أن الله يبارك اعمالهم ويحيى جهادهم ويبارك خطواتهم .

كما أن قيادات اليوم تعطى جانب الشائعات غاية اهتمامها ، وتسعى بكل جهد الى محاربتها ، ومقاومة آثارها عند المقاتلين ، ولهـذا فهى تحرص على تشكيل جهـاز خاص يتتبع الشائعات ويقضى عليهـا خوفا من أن تتسرب الى نفوس الجند ومعنوياتهم فتصيبهم فى أعز أسلحة القتال .

كما أن قيادات اليوم تحاول جاهدة أن تضع أمام الجند صورة مهزوزة غير صحيحة عن العـدو ، بهدف اثارة حماسـهم واحساسهم بأنهم يقاتلون عدوا ضعيفا هينا لا حول له ولا قوة ، وأنه لا يصل الى مستوى حماسهم وقدراتهم ، وأنهم سيهزمونه لا محالة لأنهم أكثر منه حماسة وقدرة وجلدا .

وتحاول قيادات اليوم أن تولد نوعا من الصداقة بين الجند والسلاح الذى يستخدمونه حتى تقوم الثقة بين الطرفين ، لأن ثقة الجندى فى سـلاحه تجعله أكثر ايمانا به وتدفعه الى الحرص عليه حرصه على الحياة .

وهكذا يـكون المثنى صاحب الفضـل فى اثارة أمور أسـاسـية لابد من معالجتها مع الجند خلال المعـركة ... وهو بذلك يكون قد سـبق القيادات الحديثة فى ادراك هذه الأمور ومعالجتها بالصورة الواقعية وبالأسلوب العلمى، والدليل الواضح على ذلك أن الهدوء والثبات قد عادا الى جنده بعد أن استمعوا الى كلماته وفهموا معناها ، فلفظوا الأفكار السـيئة التى سـيطرت عليهم ، وأخذوا يفكرون بجدية فى مهمتهم الجليلة ، ويعيشـون ذكرى انتصاراتهم ، وكل الأمل عنـدهم هو سـحق الفرس وازالة دولتهم ، ورفع راية الاسلام فوق ربوع بلادهم .

القـــائد والقيـــــادة

يدير دفة الحرب دائما العنصر البشرى .

والجيش الذى يحرز النصر يكون متميزا فى عنصر القيادة .

والقائد الذى يتولى قيادة وادارة المعركة يجب أن يكون مدركا لمسئولية القيادة ، مقدرا لتبعاتها ، فاهما لأبعادها .

وتاريخ الحروب يؤكد أن القـــائد الجيد الممتـــاز هو الذى يحرز النصر ، وفى ذلك يقول المارشـال فوش « ان الجيش الذى يريد أن يفوز بالنصر لابد أن تتوافر لديه عوامل من الدرجة الأولى أهمها عامل القيادة ، والرجل الذى يتولى ادارة المعركة لابد أن يكون ذا موهبة خاصة هى القدرة على القيادة » .

والقيـــادة فن لا يمكن مشاهدته ولكن يمكن التعرف عليه بآثاره ونتائجه ، وان تعبئـــة آلاف الجنود ليست بالمهمة الرئيســـية فى تجهيز الجيوش ، ولكن المهم هو وجود القـــائد الكفء ، فعلى قدر كفاءته تكون كفاءة رجاله ، فنابليون تولى قيادة جيش مهلهل قليل السلاح والعتاد قليل المؤن أكثره من الحفـــاة ، واستطاع — رغم ذلك — بكفاءته أن يقود هذا الجيش الى أعظم الانتصارات فى تاريخ فرنسا حين دخل بهذا الجيش سهول لمبارديا وغزا به ايطاليا .

والمقصود بكفاءة القائد ما تكون عليه روحه ومشاعره وتجاربه وصـــلاته بالجند ، والقوات عادة تتأثر الى حد كبير بالقـــائد ، فكيفما يكون القائد يكون جنده ، وقد قال أحد فلاسفة اليونان « ان أول عمـــل القائد هو ارضاء جنوده وما بقى بعـــد ذلك فهو سهل ميسور » .

والمثنى بن حارثة واحد من القادة الذين يحكم لهم التاريخ بالكفاءة والقدرة، ويضعه فى مصاف القادة العظـــام ، فقد تولى قيادة جيش من أهله وعشـــيرته حارب به بلاد الفرس وكانت فى هذا الوقت أعظم البلاد وأقواها ، ثم وجـــه اليها أنظار الحكومة الاسلامية فى المدينة ، ومهد أمام هذه الحكومة سبيل اعداد الجيوش وبعثها حتى تم الفتح الاسلامى لبلاد العراق .

ولقـــد أثبتت الأحداث التاريخية نجـــاح المثنى كقائد اســـتطاع بكفاءته وقدرته أن يحتل مكانة مرموقة فى تاريخ عصره ، وأن يحتـــل مثل هذه المكانة فى التاريخ عامة ، ومرجع ذلك ما كان يتوافر لديه من صفات القيادة ومواهب القائد وعناصر الشخصية العسكرية التى تتطلبها ظروف المعارك .

ولكن ما هى صفات القيادة التى تتوافر فى القائد الكفء ؟

ان هناك شبه اجماع على صفات محددة منها الايمان والثقة والارادة والمثابرة والعلاقة بالجند ومواجهة الحقائق والقدرة على التصرف وقوة الشخصية والشجاعة وسعة الحيلة وانكار الذات وبعد النظر ... هذا بالاضافة الى المعرفة التامة بشئون الحرب وكيفية معالجتها وتقدير مواقفها واعداد الخطط اللازمة .

وبدراسة تاريخ المثنى ومتابعة حياته يمكن بسهولة أن نقرر أنه كان رجلا شجاعا مقداما ، اتصف بكل صفات القائد الكفء ، وأن أحداث المعارك التى خاض غمارها وأحرز فيها النصر تلو النصر تؤيد هذا الرأى وتؤكده .

ونحن سنعرض لهذه الصفات لنعزز هذا الرأى .

ان الباحث عن سر النجاح الكبير الذى أحرزه المثنى يجده كامنا فى ايمانه العميق .

فمما لا شك فيه أن قوة الايمان هى التى تدفع الى النصر ، ولقد دخل الايمان قلب المثنى وملأ نفسه نورا منذ سمع عن الدين الجديد حين خرج الرسول ومعه أبو بكر وعلى ليعرض بنفسه على القبائل دعوته ، فقد نزل عليه السلام وصاحباه بمجلس عليه السكينة والوقار ، يضم كبار رجال بنى شيبان ومن بينهم المثنى ، وتحدث اليهم الرسول الكريم فقال « أدعوكم الى شهادة أن لا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، وأنى رسول الله ، وأن تؤوونى وتنصرونى حتى أؤدى عن الله الذى أمرنى به ، فان قريشا قد تظاهرت على الله ، وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغنى الحميد» ، وتلا رسول الله عليهم بعض الآيات من الذكر الحكيم ، واستمع اليها القوم ومعهم المثنى ، الذى تجاوبت نفسه مع الدين الجديد ، ووقع القرآن فى قلبه موقعا حسنا ، ودوت فى جوارحه كلمة الحق ، واتجه بكل عواطفه ومشاعره واحاسيسه الى الرسول تلتقط أذناه كل كلمة ، حتى اذا ما انتهى عليه السلام قال له المثنى « قد سمعت مقالتك واستحسنت قولك يا أخا قريش ، وأعجبنى ما تكلمت به » . وظل المثنى يتابع أخبار الدعوة حتى أيقن تماما صدقها فدخل فى الاسلام عن عقيدة راسخة وفكر متيقظ واقتناع كامل .

ولما تعرضت الأمة الاسلامية لفتنة الردة رفض أن يرتد عن دينه الذى اختاره قلبه وفكره ، بل ظل على هذا الدين ولم يقف منها موقفا سلبيا ، وانما انضم الى قوات العلاء بن الحضرمى وعاونه معاونة صادقة فى القضاء على

المرتدين .. وعندما فر عدد منهم على طول ساحل البحر ، جمع جيشا وطاردهم به وفتك بهم ، ووصل بقواته الى القطيف ثم دلتــا الفرات ، حيث واجه دولة الفرس التى كانت تساند قوات المرتدين بقيادة الحطم بن ضبيعة .

ودفعه ايمانه العميق الى عرض رسالة الاسلام على أهل السواد .. ثم اتجه بتفكيره الى دولة ساسان ، فلجأ الى أبى بكر الصديق حين ولى الخلافة يعرض عليه فتح هذه الدولة واخضاعها ، فلما استجاب أبو بكر وعين خالد بن الوليد قائدا للجيش الاسلامى ، لم يغضب بل رضخ — تحت ضغط ايمانه — لأوامر أبى بكر وعمل تحت امرة خالد كجندى بسيط يتلقى الأوامر وينفذها .

ورغم قلة جنده بعــد أن عاد الى مركز القيادة فانه خاطب كسرى قائلا « انما أنت أحد رجلين ، اما باغ فذلك شر لك وخير لنا ، واما كاذب فأعظــم الكاذبين عقوبة وفضيحة — عند الله وفى الناس — الملوك » .

بهذا الايمان القوى العميق الراسخ قاتل المثنى قوات الفرس التى تفوقه **عددا** وعدة فى معارك كثيرة ، وانتصر عليها انتصارات ساحقة نقــل بها آيات المجد من أبطال الفيل الى أبطال الخيل والابل .

ان هذا الايمان سما به عن الحياة ، فما كان يكترث لشىء فيها أو ييأس على فائت منها ، عاش حيــاته بهذا الايمان متجها الى الله خاصـــة فى أوقات الشدة ، يستمد منه العون والقوة ، وكان مبدؤه الذى عاش عليه حياته هو كلماته التى قالهـــا لجنده « ثقوا بالله وأحســنوا به الظن » ، و « انصروا الله ينصركم » و «احمدوا الله ، وتناجوا بالبر والتقوى ولا تناجوا بالاثم والعدوان».

قلنـــا ان الثقـــة بالنفس والاعتماد عليهـــا من أهم صفات القائد الناجح

فالثقة بالنفس عماد كل عمل ناجح ، وهى تتولد نتيجة للادراك والفهــم والمعرفة ، ولا شك فى أن المثنى حين قرر أن يحمــل عبء العمــل العسكرى فى أرض السواد ، كان واثقا بنفسه مقتنعا بأنه يستطيع أن يتحمل العبء وأن يؤديه .. ولكن من أين أتته هذه الثقة وهو مقبل على عمل خطير جسيم اذ يواجه دولة عظمى فى زمانه ؟ .

لعل هـــذه الثقة كانت للدراسات الكثيرة التى قام بهـــا المثنى عن أهل الســـواد ، فقد تتبع أحوال العجم ، وتنسم أخبار العرب القاطنين فى أرض الســـواد ، وانتهى الى أن العجم يســـومون العرب الأذى والظلم ، وأنهـــم

يستضعفونهم ، فشنوا عليهم الغارات مستغلين فى ذلك ملوك الحيرة الذين كانوا يخضعون لسلطانهم ، وعرف أن العرب يقاسون الظلم ، وأنهم لا يشعرون بالأمن والسلام والطمأنينة فى وسط العجم .

ولم تقتصر دراسته على العرب وحدهم وانما امتدت الى العجم أنفسهم ، فتبين له أن الاضطراب يسود بلادهم ، وأن الناس هناك حاقدون على الولاة ، وأن فروع البيت المالك فى نزاع مستمر ، وأن البلاد مزعزعة الأركان مهلهلة الجوانب ، لا ضابط فيها ولا رابط ولا منظم للشئون، تعمها الفوضى والاضطراب، أهلها مختلفون شيعا وأحزابا ، وأمراؤها نافرون متباعدون .

واحس المثنى من هذه الدراسات والمعلومات أنه يستطيع أن يفعل شيئا له قيمته يخدم به الاسلام والمسلمين ، فقرر أن يقتحم أرض السواد بمن تبعه من بنى شيبان .. وتجمع لديه فعلا ثمانية آلاف خرج بهم الى هناك بهدف أن يعين العرب ، وأن يصد عنهم الأذى ، وأن يرفع عنهم الظلم ، وأن يرد اليهم اعتبارهم ، وأن يرتفع بهم الى مستوى الكرامة الانسانية ، وأن ينشر بينهم مبادىء الاسلام الخالدة ، وأن يأخذ بأيديهم الى حياة أفضل .

وكان المثنى واثقا بأنه سينجح فى مهمته لأن الله تبارك وتعالى وعد بفتح بلاد الفرس وبلاد الروم ، فقد روى على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه قد لاحت له عليه السلام أنوار قصور الحيرة ومدائن كسرى وقصور الروم بشارة من الله تبارك وتعالى بأنها ستفتح على يد رجاله .

وكما كان المثنى واثقا فى قدراته ، كان جنوده ورجاله يثقون به ثقة كبيرة ، حتى أنهم حاربوا تحت قيادته وبجانبه ولازموه فى كل معاركه وغاراته ، وشاركوه متاعب المعركة وجهدها ، وقاسموه انتصاراته ، وقضوا تحت أمرته فترة طويلة يأتمرون بأمره وينفذون تعاليمه ... وقد قال مارشال فوش « ان القائد الذى يكتسب ثقة رجاله يمكنه توجيههم الى أى عمل يريده ، مهما كانت خطورته ونتائجه ، وهو مطمئن تماما الى انهم سوف يؤدونه على أحسن ما يكون الأداء ، باذلين أرواحهم رخيصة فى سبيل تحقيق غرضه » .

ان قوة الارادة والتصميم من العوامل الهامة التى تحقق النصر فى المعركة والقائد صاحب الارادة القوية هو الذى يستطيع أن يدير أمور المعركة ويحركها حسب رغبته ، وهو الذى يستطيع أن يخوض المعركة بثقة وأمل وعزم وتصميم، وهو الذى يستطيع أن يخرج منها منتصرا قويا .

وحياة المثنى العسكرية تؤكد أنه كان يتميز بقوة الارادة التى دفعته الى الاستمرار فى الاهتمام بشئون أرض السواد ، وفى التصميم على الاطاحة بدولة ساسان الفارسية ... وضح هذا الاستمرار فى غاراته الكثيرة المتعددة التى قام بها وحده فى أرض السواد مبتدئا بالاغارة على مدينة فارسية قوية منيعة تسمى دهشتا باذ اردشير التى دخلها عنوة وخربها وغنم أموال قاطنيها وسماها العرب لكثرة ما أصابها من الخراب « الخريبة » ، ثم تقدم بعدها الى مدينة الأبلة (فى موقع البصرة حاليا) ، وكانت بها قوة فارسية كبيرة فانتصر عليها وأسر منها كثيرين ، ثم عطف على الحيرة ووقعت مناوشات كثيرة بينه وبين سكانها ، وكان اصراره فى مقدمة عوامل نجاحه فيها ، حتى أنه اثار روح النفور والتمرد فى القبائل العربية ضد الحكم الفارسى ، فحملت بعض هذه القبائل السلاح فى وجه حكامها .

وقد وضح تصميمه على الاطاحة بدولة ساسان حين انتقل الى المدينة ليلتقى بالخليفة أبى بكر ، ولينقل اليه صورة واضحة المعالم عن أرض السواد ، ويضع بين يديه تقريرا عن نشاطه هناك وعن حالة البلاد الداخلية ، ويدعوه الى أن تتدخل الحكومة ، ويهون عليه أمر العراق ويغريه بأرض فارس التى كانوا يطلقون عليها اسم جنة الأرض لكثرة غلاتها ووفرة خيراتها .. عرض على الخليفة أن يتولى هو أمر الحملة هناك ، وقال له « أمرنى على من قبلى من قومى أقاتل من يلينى من أهل فارس وأكفك ناحيتى » ، واقتنع ابو بكر برايه ، وقرر أن يوجه جيشا الى هناك بقيادة خالد بن الوليد بعد أن تشاور مع أصحابه وأهل الرأى ، وعرض عليهم ما أوضحه المثنى ، فوافقوه وأشاروا عليه بأن يجيبه الى طلبه ، فأصدر أبو بكر أمره بتأميره وباستمراره فى عملياته حتى يصل خالد .

ووضح تصميمه أيضا حين ترك قواته فى العراق بعد انتصاره فى بابل تحت قيادة بشير بن الخصاصية ، واتجه الى المدينة يطلب المدد والعون ، وما أن وصل المدينة حتى وجد أبا بكر طريح الفراش يقاسى من مرضه الأخير ، فلما عرض عليه حاجته الى المدد استدعى ابو بكر عمر بن الخطاب رغم سوء حالته الصحية وقال له « اسمع يا عمر ما اقول لك ، ثم اعمل به ، وانى لأرجو أن اموت فى يومى هذا ، فان أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثنى ، وان تأخرت الى الليل فلا تصبحن حتى تندب الناس مع المثنى ، ولا تشغلنكم مصيبة وان عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم ، وقد رأيتنى متوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله ، وبالله لو أنى انى (بكسر النون المخففة) عن امر الله وأمر رسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة نارا ..

وان فتح الله على أمراء الشام فاردد أصحاب خالد الى العراق فانهم أهله وولاة أمره وحده » .

وهكذا رسم ابو بكر فى أواخر ايامه سياسة الفتح العربى فى العراق ، ولا شك فى أن ما أمر به الخليفة كان مصدره الأول المثنى بن حارثة الذى كان يصر ويصمم على ضرورة اتمام هذا الفتح ، فقد كان يرجو ذلك ويراه املا واجب التنفيذ ...

ولم ينته هذا التصميم وهذه الارادة عند وصية ابى بكر ، وانما بقى المثنى بالمدينة يرقب تنفيذ هذه الوصية ، ففى صبيحة اليوم التالى لدفن أبى بكر ، اجتمع الناس بناء على دعوة عمر بن الخطاب الذى تحدث اليهم فى أمر الخروج الى فارس ، فلم يستجب اليه أحد ، فظل يستنفرهم ثلاثة أيام ، ورأى المثنى أن الناس تخشى الخروج الى فارس ، وترحب به الى الشام ، لأن فارس أثقل البلاد عليهم ، لشدة سلطانهم ، وقوة شوكتهم ، ولكثرة قهرهم الأمم ، فوقف فى الناس خطيبا مهونا الأمر داعيا الى الخروج ، قال : « أيها الناس ، لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فقد تبجبجنا ريف فارس (أى تمكنا من المقام فيه) وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم ، واجترأ من قبلنا عليهم ، ولها ان شاء الله ما بعدها » ... وبعد مقالته استجاب الناس وكان اولهم أبو عبيد بن مسعود الثقفى .

وكان المثنى قدوة طيبة لجنده ... وقد أشرنا الى أن الجند ينظرون الى القائد ويتمثلون به ويعملون كما يعمل ويعيشون حياتهم كما يعيش ، فهو مثلهم ورائدهم فى كل عمل وفى كل تصرف ، والجند عادة يصوغون أنفسهم فى القالب الذى يصوغه لهم القائد اذا نال احترامهم وتقديرهم واعجابهم ... ولقد كان المثنى مثلا وأسوه للجند ، ودليل ذلك أنهم قدروا فيه رجولته وخلقه وشخصيته ومظهره ومقدرته ، وأنهم كانوا يعتزون به ويفخرون بقيادته ، الى حد الزهو ، فقد شاطروه مجده فى ميادين القتال ، وقاسموه انتصاراته ، وحملوا معه عبء الهزيمة حين هزم المسلمون فى الجسر .

كان المثنى يضع خطط المعارك بنفسه وكان يشارك فى تنفيذها شأنه فى ذلك شأن اقل جندى فى جيشه .. فما من معركة خاضها الا وهو فى المقدمة وعلى رأس الجيش .. لم يكن يبعد عن احداث المعركة بل كان دائما فى مركز قيادته يرقب المعركة عن كثب .. كان جنده يرونه عن قرب ينظم ويرتب ويقاتل مثلهم تماما ، فأكسبه ذلك حبهم واحترامهم وتقديرهم .. بعث مرة بقوة من

رجاله بقيادة فرات بن حيان وعتبة بن النهاس للاغارة على أحيــاء من تغلب والنمر فى صفين .. وعندما علم أهل صفين عبروا الفرات وتحصنوا فى الجزيرة .. وأحس المثنى بالضيق لأنه لم يخرج مع الخارجين ولم يشارك جنده احدى معاركهم ، فقرر أن يلحق بهم وليسهم معهم ، وليكون بينهم عند لقاء العــدو فامتطى صهوة فرسه ، ولحق بهم بعد أن خلف على الناس عمر بن أبى سلمى الهجينى .

وكان المثنى يوزع المغانم والمكاسب على جنده ولا يحتفظ لنفســه بشىء حتى لا يحرم أحد الجند من حقه .

وكان تقديرا منــه لرجاله يمنحهم الفرصة لاظهــار مواهبهم وقدراتهم ، وكان يسند اليهم عمليات لها أهميتها حتى ترتبط نتائجها بأســمائهم .... حدث أثناء مطاردته جيش هرمز بعد الانتصار عليه فى كاظمة وفرار عدد من رجــاله فى اتجاه المدائن ، أن فر بحصن تقيم فيه أميرة فارسية يسمى « حصن المرأة »، فأسند أمر حصاره الى أخيه المعنى حتى لا يعطله الحصار عن هدفه الأساسى ، وتقدم هو الى هدفه ... وحدث فى موقعة البويب أن اســـتعان باثنين من المسلمين هما بشر بن أبى رهم والنسير ، كما استعان بمذعور فى موقف آخر ..

كان جنده يرون فيه بطلا شجاعا لا يهاب شيئا حتى الموت ، ولهذا كانوا يخوضون المعارك واثقين فى مقدرتهم ومقدرة قائدهم ، ومن هنا كانوا لا يعباون كثيرا بعدوهم ... بعدده مهما كان كثيفا أو بعدده وآلاته مهما كانت ضخامتها .

فى بابل كان جيش أعدائه يستعين بفيل كبير لم يكن العرب قد شاهدوه من قبل ، وكان وجود هذا الفيل يسبب اضطرابا فى صفوف المسلمين ، كما أدى هذا السلاح الجديد الذى لم يعتادوه الى خوفهم ، فقد كان ظهوره مفاجأة ، وكان المثنى لا يحجم أبدا فى الوقت الذى يكون فيه التقدم واجبا ، ولهذا قــرر أن يقتل الفيل بنفسه ، ولكن كيف يقتله وهو حيوان ضخم يثير منظره الرعب فى نفوس العرب ؟ ، ان قتله مهمة خطيرة ، ومع هذا قرر أن يتقدم هو وحده لأداء هذه المهمة دون أن يسندها الى احد من رجاله ليكون قدوة لهم فى الاقدام والشجاعة ، وتقدم فعلا نحو الفيل ، وأخذ يحاوره وينهال عليه طعنا بالرمح ، حتى أصابه فى مقتل ، وأنقذ المسلمين من عدو كان يخيفهم ويفرق جموعهم .

وفى الجسر تعرض المسلمون لموقف خطير نتيجة لقطــع الجسر ، ورأى المثنى ما هم عليه من غم وكرب ، فأسرع الى عروة بن مسعود وأمره بأن يشد

الجسر ، وأن يمنع ما بينه وبين العجم « انطلق الى الجسر ، فوقف عليه ، وحال بين العجم وبينه » ، ثم تولى هو بنفسه مهمة مهاجمة الفرس ومعه جماعة من الفرسان ، وظل يصيح فى الناس « يا معشر العرب انا دونكم فاعبروا على هيئتكم ، لا تدهشوا ولا تفرقوا » .

ومن اهم الأسباب التي جعلت من المثنى قدوة لرجاله ، انه كان يتميز بصفة انسانية كبيرة ، فقد كان يعمل فى صمت ايمانا منه بأن العمل فى صمت هو سبيل النجاح ، ومن هنا ظهرت حقيقته للناس ، فقدروا كفاءته واعترفوا بقدرته واحترموا شخصيته .

ولقد تعلق به جنده لأنه رغم انتصاراته المتعددة لم تمتلىء نفسه بالغرور ، ولم يتظاهر بالتكلف أو التصنع ، ولم يتعال عليهم ، وانما عاش معهم كواحد منهم ، فأحسوا به رجلا صادق الحس حسن البصيرة جيد التقدير ، يحكم على الأمور بفهم ، لا يأخذ بالظاهر والقشور ، يضبط نفسه ، لا تثيره الصغائر ، ولا تفقده الكبائر الصواب .

كان المثنى محرر النفس من التعاظم والكبرياء والغطرسة والمظاهر الكاذبة ، وكان يبدو أمام الناس على حقيقته ، فلا يلبس غير ثوبه ، ولا يبدو فى مظهر ليس له ، ولا يدعى القول ، ولا يعطى لنفسه ما لا يستحق ... تجمع رجاله بعد النصر العظيم فى البويب يتجاذبون الحديث ويتسامرون وهم مغتبطون بالانتصار ، وتذكر المثنى وهو بينهم المسلمين الذين قتلوا عند الجسر ، حين أمر بمنع الفرس المرتدين من اجتياز النهر ، فأدرك هؤلاء أنهم سائرون الى نهايتهم فأخذوا يقاتلون المسلمين بشدة ويستميتون ، ويقتلون كل مسلم يلقونه حتى قتل كثير من المسلمين ... تذكر المثنى هذا العدد من المسلمين الذى قتل وأسف لذلك ، وقال لرجاله « لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتى اياهم الى الجسر حتى أحرضهم » ثم أردف « فانى غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بى فانها كانت منى زلة » ... هكذا بمثل هذه الصراحة يعترف القائد لجنده بخطئه ثم يدعوهم الى عدم الاقتداء به والوقوع فى مثل هذا الخطأ ، ويعدهم الا يعود الى مثله مرة أخرى ... انه بهذا التصرف يؤكد تواضعه ومعرفته قدر نفسه ، ووصوله الى مرتبة من التواضع لا يدانيه فيها احد ... انه يعلن أمام جنده ندمه على خطأ وقع فيه حتى لا يقعوا هم فيه بعد ذلك .

وانظر الى تواضعه الذى تتجلى فيه روح المساواة بأجلى مظاهرها وهو

يمر بين الصفوف أثناء موقعة البويب ، فيقول لجنده وهو يحدثهم ويشجعهم ويحثهم على القتال « والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء الا وهو يسرنى لعامتكم » .

تميز المثنى بحسن تقديره للموقف ، ولقد اتفق المؤرخون جميعا على أن اية معركة تستلزم من القائد قبل خوضها تقديرا لموقفه وموقف أعدائه ، اذ بناء على هذا التقدير يضع القائد الخطة التى يواجه بها عدوه .. وتقدير الموقف من العمليات الشاقة التى تحتاج الى ذهن متوقد ومقدرة على الفهم والبحث والدرس والاستقصاء ، والقائد الكفء القدير هو الذى يستطيع أن يقدر الموقف تقديرا سليما صائبا ، لأن هذا التقدير هو الذى يقرر نتيجة المعركة الى حد بعيد .

كان المثنى دائما يقدر الموقف العسكرى تقديرا سليما صائبا ، ولهذا كان يدخل المعركة مطمئنا على نتيجتها ... فهو فى موقعة بابل مثلا رأى أن وجود الفيل خطر على قواته ، فقدر الموقف بسرعة وقرر قتله لأن فى قتله رفعا لمعنويات المسلمين وفيه هدم لقوة الفرس الذين كانوا يعتمدون أساسا عليه ويرون فيه سلاحا يحقق مفاجأة تكتيكية ويسبب للمسلمين ذعرا واضطرابا.. وهو فى موقعة الجسر وجد أن قطع الجسر فيه هلاك لجنده فقرر أن يشده ليسمح للمسلمين المتقهقرين بالعبور سالمين .. وفى الحالتين نفذ ما استقر عليه رأيه ونجح نجاحا كبيرا أحس المسلمون بنتائجه وآثاره .

كما أنه حين وصلته أخبار عن تجمع القائد نرسى فى كسكر انتظارا لوصول مدد آخر اليه بقيادة الجالينوس ، قدر الموقف بسرعة ، ورأى أنه من الأوفق أن يسرع الى لقاء نرسى قبل وصول المدد ، وخاصة أن المعلومات التى تجمعت لديه كانت تفيد بأن قوة نرسى قليلة فى العدد والسلاح ، وانتصر المسلمون على نرسى فى السقاطية ... وما أن وصل الجالينوس الى قرية باوسما حتى أمر المثنى قواته بمهاجمته فأنزلت به خسارة كبيرة فانسحب الى المدائن .

وفى الجسر عرض الفرس أن يعبر المسلمون النهر اليهم ، وقبل العرض أبو عبيد بن مسعود — وكان قائد الجيش — الا أن المثنى بعد أن قدر موقفه رفض فكرة أبى عبيد ، وأشار عليه أن يبقى فى مكانه وأن يترك الفرس يعبرون الا أن أبا عبيد لم يأخذ برأيه ، فكانت الهزيمة المرة التى لحقت بالمسلمين فى هذه الموقعة ، خسر فيها المسلمون كثيرا ، اذ تعرضوا لغدر الفرس الذين هاجموهم أثناء عملية العبور وأصابوهم اصابات بالغة .

وعندما أحس المثنى بدنو أجله بعث الى سعد بن أبى وقاص برسالة — بعد أن كان قد قدر الموقف — أوضح له فيها وجهة نظره ، ونصحه بأن يلازم بجنده مراكزهم على حدود الصحراء ، حتى تحمى الصحراء ظهورهم فى حالة انتصار العدو فتكون عمقا استراتيجيا لهم ، ولتكون نقطة ارتكاز يهاجمون منها عدوهم . . ووجهة نظر المثنى فى ذلك أن الفرس لا يجيدون حرب الصحراء ، وان العرب لا يجيدون القتال فى داخل المدن ، وهو بهذا الرأى يهيىء المسلمين الميدان المناسب للمعركة حيث تستطيع طبيعتهم أن تنتصر .

والنقطة المشرقة فى حياة المثنى كقائد أنه كان قائدا قوميا آمن بالقومية العربية ويتفانى فى سبيلها ، كان يؤمن ايمانا راسخا بضرورة اتحاد العرب مع اختلاف مواقعهم ومشاربهم ودياناتهم ضد عدوهم المشترك ، وكان يرى فى هذا الاتحاد نصرا وعزة ، ذلك أنهم يمثلون قوة غالبة تحمى الكيان العربى وتذود عن وجوده وتدافع عن شرفه ، ولهذا كان المثنى أول الدعاة الى قومية المعركة ، وكانت قوميته من أكبر معنوياته ، مهدت له سبيل الحصول على الزعامة بين قومه ، فغدا زعيما عظيما احتل مكانة مرموقة فى تاريخ العرب ...

دعا المثنى القبائل النصرانية التى يجرى فى عروقها الدم العربى لتنضم اليه وتحارب معه تحقيقا لمبدأ القومية العربية ، واستجابت له هذه القبائل بصدق واخلاص اقتناعا بوجهة نظره وايمانا بأن العرب تجمعهم قومية تحتم عليهم أن يتعاونوا جميعا صفا واحدا ضد عدوهم المشترك .

ففى موقعة الجسر دعا حوصلة بن المنذر الطائى المكنى بأبى زيد — وهو شاعر نصرانى عمر طويلا ومات فى خلافة عثمان بن عفان وهو على نصرانيته — لينضم الى العرب فاستجاب له وحارب الفرس أعداء العرب ، وانتصر للعرب الذين يتفقون معه لغة وتاريخا ومسكنا ودما ... ودعا أنس بن هلال النمرى « يا أنس انك امرؤ عربى وان لم تكن على ديننا ، فاذا رأيتنى قد حملت على مهران فاحمل معى » ، وخاطب ابن مردى الفهد ونصارى بنى تغلب ليجمعهم بصفتهم العربية معه فى معركته ضد الفرس ، وانضم هؤلاء له وعاونوه بصدق فى موقعة البويب .

* * *

وفوق ذلك كله فقد عرف عن المثنى أنه كان ذا همة ، وعزيمة ماضية ، وارادة صلبة ، ونشاط مستمر ، ورباطة جأش ، وثبات قلب ، وبعد نظر ،

وحسن مظهر ... وكان ذكيا يقظا ، شجاعا حازما غيورا على عملة ، قوى التأثير فى جنده ، مرحا ، نزيها ، حكيما ، عادلا ، منكرا لذاته ... كان يؤمن بالولاء ... يشارك جنده مشاعرهم وأحاسيسهم وأفراحهم وأتراحهم ، كان يتجنب العناية بمصالحه وراحته على حساب عملة ... كان متفائلا يفكر فى النجاح ، وينظر الى الأشياء بعين الأمل لا بعين اليأس والقنوط ، ويفكر فى النصر دون الهزيمة ، وفى المباداة والهجوم دون الدفاع ، لم تؤثر عاطفته فى تصرفاته أو أفعاله ، كان يزن الأمور ويقدر الأشياء ، يؤمن بالعدل والمساواة ، لم يأخذ الأمور بالمظاهر ، وانما كان يتعمق فى حقائقها ويبحث عن أصولها .

هذه هى صفات القيادة وسمات القائد ، برزت فى شخصية المثنى بصورة جلية واضحة ، فلم يعد هناك شك فى أنه كان قائدا ممتازا ، ومحاربا من الطراز الذى تبحث عنه الأمم فى تاريخها ، لتجعله منارة ومثالا ، ولتفخر به بين نظائره من قادة الحرب وأعلام الفكر العسكرى .

المستشار العسكرى

تحرص القيادات العسكرية الحديثة على أن توجد بجانب قائد القوات هيئة استشارية يطلق عليها اسم « الأركان العامة » ويتولى رئاسة هذه الهيئة ضابط له وزنه وثقله يسمى « رئيس الأركان » ... ووظيفة هذه الهيئة أنها تدرس ظروف المعركة من مختلف الزوايا والنواحى ، ثم تقدم للقائد المشورة والرأى فى كل ما يتعلق بشئون الحرب وظروف المعركة ، وتهتم الدول والقيادات بأن تكون هذه الهيئة على مستوى المسئولية فنا وعلما وقدرة وخبرة ، لأن ما تقدمه هذه الهيئة للقائد من دراسات وآراء يكون الأساس الأول فى التخطيط للمعركة ثم فى سير أحداثها ، وبقدر سلامة ما تتقدم به هذه الهيئة يكون النصر فى المعركة .

ولقد تولى المثنى بن حارثة هذه الوظيفة حين قاد أبو عبيد بن مسعود الثقفى قوات المسلمين فى العراق فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ومارس المثنى هذه الوظيفة لأول مرة فى موقعة الجسر ، وكان صادقا فى مهمته ، لم يحبس مشورة ، ولم يحجب رأيا ، وانما كان يقدم الرأى فى كل مراحل المعركة بأمانة وصدق واخلاص بدافع من احساسه الدينى العميق وادراكه الواعى لمسئوليته كمسلم فرض عليه الجهاد ...

فعلى اثر تولى عمر بن الخطاب الخلافة بدأ يعد الامدادات ليبعث بها الى العراق ، تنفيذا لتعليمات أبى بكر بألا تشغله وفاته عن امداد جيش

العراق ، وجمع الناس لهذا الغرض فى فناء مسـجد الرسـول ، ورفع راية الجهاد ، وتحدث الى الناس فى الخروج عونا للمسلمين فى أرض فارس ، والناس تخشى الخروج الى هنك وترى الخروج الى بلاد الشام ، وخاطبهم عمر فقال « أيها الناس ، أن الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعـة (طلب الكلأ فى موضعه) ، ولا يقوى عليه أهله الا بذلك ، أين الطراء المهاجرون عن موعود الله ؟ ، سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها ، فانه قال « ليظهره على الدين كله » والله مظهر دينه معز ناصره ، مول أهله مواريث الأمم ... أين عباد الله الصالحون ؟ » .

وشعر الناس بما فى تثاقلهم من سبة لهم بعد أن تكلم الخليفة ، وتقدم أبو عبيد بن مسعود الثقفى وقال : « يا أمير المؤمنين ، أنا سمعناك وأطعناك ، وأنا أول من أجاب هذه الدعوة ، أنا وقومى وعشيرتى » ، وكان أبو عبيـد أول منتدب لهذا الأمر ، ووقف من بعده كثيرون وأعلنوا استجابتهم ، منهـم سليط بن قيس وهو أنصارى خزرجى من بنى النجار شهد بدرا وما بعدها ، وقتل يوم الجسر ، وسعد بن عبيد وهو أنصارى أوسى شهد بدرا ومات فى القادسية شـهيدا ، وتتابع الناس وخاطب أحدهم الخليفة فقال « يا أمير المؤمنين ، انما كان قعودنا عن غزو هؤلاء الفرس الى يومنا هذا شقشـقة من شقاشق الشيطان ، وانى قد وهبت نفسى لله ، ومن أجابنى من بنى عمى ومن اتبعنى » .

وعندما تجهز الجيش وأصبح على وشك التحرك ، دعا عمر أبا عبيـد وولاه قيادة الجيش ، فلما اعترض أهل المدينة قائلين : « أمر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين أو الأنصار » ، قال عمر : « لا والله لا أفعل ، ان الله رفعكم بسـبقكم وسرعتكم الى العدو ، فاذا جبنتم وكرهتم اللقاء ، فأولى بالرياسة منكم من سبق الى الدفع ، وأجاب بالدعاء ، والله لا أؤمر الا أولهم انتدابا » .

وزود عمر أبا عبيد بالنصح ، وطلب منه أول ما طلب أن يستشـير أصحابه ، وألا ينفرد برأى ، وألا يتعجل الأمور فى الحرب ، وأن يحسن معاملة جنده « استمع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسـلم وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ، فانها الحرب لا يصلح لها الا الرجل المكيث (الرزين العاقل) الذى يعرف الفرصة والكف » .

وسمح الخليفة لأهل الردة الذين اظهروا التوبة بالاسهام فى المعارك وفى الخروج مع الخارجين ، بعد أن طال حرمانهم من شرف الجهاد منذ عهـد أبى بكر .

رسم اذن الخليفة للقائد أسلوب العمل ، وهو ذات الأسلوب الذى تتخذه القيادات فى العصر الحديث .. أمده بمستشارين كسليط بن قيس ، وأمره بأن يستشير أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار وأن يسمع منهم ، وأن يشركهم فى الأمر .... وهؤلاء يمثلون هيئة الأركان فى الجيوش الحديثة .

وخرج أبو عبيد من المدينة والناس يخرجون معه ، وينضمون اليه أثناء مسيره ، حتى بلغ عدد من أصبح تحت امرته عشرة آلاف مقاتل .

وما أن وصل الى حدود العراق حتى جاءه المثنى فسلمه القياده ، وعاد الى الصفوف جنديا ، ولكن أبا عبيد الذى يعرف جيدا صفاته وسماته ونبوغه وقدره وحقه ، جعله قريبا منه يعرض عليه المواقف ويتلقى منه النصح والرأى والتوجيه ، ومن هنا أصبح المثنى على رأس هيئة الأركان ، مستشارا عسكريا يدرس ويفحص ، ثم يقدم الرأى ، وما من شك فى أن رأيه الذى يبديه كان له وزنه وأهميته ، ذلك أنه صادر من شخصية مارست الحرب على أرض العراق ، وخاضت المعارك ضد الفرس ، فأصبح لديها رصيد من الخبرة والمعرفة ، وبذلك كان اختياره لهذا العمل اختيارا صاحبه التوفيق ، ولقد أثر عن مونتجمرى أنه قال فى حديث لبعض المراسلين الحربيين بعد انتصاره فى العلمين أن من عوامل انتصاره اختياره لرئيس أركان حرب (مستشار عسكرى) حازم وثق فيه وابتعد هو عن التفاصيل وتركها له يدرسها ويقدم الرأى والمشورة .

وعلى الجانب الآخر كان الفرس يعدون أنفسهم لمعركة فاصلة ينهون بها الأعمال العسكرية ويقضون بها على قوة المسلمين ، كانوا قد تناسوا مشكلاتهم الداخلية وسعت بوران ابنة كسرى الى توحيد الصفوف ، فدعت القائد رستم وأطلقت يده فى أمور الدولة ، وولته قيادة الجند وأمرت له بالسمع والطاعة ، ورسمت معه خطة مواجهة المسلمين على أساسين : اعداد جيشين كبيرين قويين بقيادة جابان ونرسى ، ودعوة دهاقين السواد ليثوروا ضد المسلمين ... وأستدعى القائدان وتولى كل منهما قيادة جيش كثيف ... وتحرك جابان الى الحيرة .. وتحرك نرسى الى ذى قار .

ومما يجب الاشارة اليه أن رستم الذى ألقيت عليه مسئولية محاربة المسلمين ، كان يؤمن بأن النصر النهائى سيكون للمسلمين ، فقد قيل عنه أنه كان عالما بالنجوم وأنه رأى فيها نهاية فارس ، ولما صرح بذلك لبعض خلصائه

سئل كيف يتولى اذن أمر فارس وهو يعلم نهايتهـا فأجاب : « الطمع وحب الشرف » .

تقدمت قوات المسلمين الى النمارق ، وكان المثنى قائد الخيـالة حيث قاتل قوات جابان قتالا عنيفا مريرا حتى هزمه ، وأسره عربى يدعى مطر بن فضة ، ولكنه نجح بدهائه فى اجبار المسلمين على فك أسره ... فقد كان مطر يجهل شخصيته ، فوعده بمال وغلامين وقال له : « انكم معشر العـرب أهل وفاء ، فهـل لك أن تؤمننى وأعطيك غلامين أمردين خفيفين فى عملك وأعطيك كذا ... وكذا ... » وأجزل الوعـد ثم قال له : « أدخلنى علـى أميركم حتى يكون ذلك بمشهد منه » ، ودخلا معا على أبى عبيد الذى لم يعرفه هو الآخر وأمنه ، فشـهد على ما تم بينهما وأطلق سراحه ، وذكرت بعض المراجع ان بعض المسلمين عرفوا شخصيته فقادوه الى أبى عبيـد وقالوا : « انه الملك ، وهو الذى غدر بنا وحاربنا » ، وطالبوا بقتله ، فرفض قائلا : « انى أخاف الله أن أقتله ، وقد أمنه رجل مسلم ... وان كان قد غدر فأنا لا أغدر » وأطلق سراحه .

ثم هاجم المسلمون نرسى فى السقاطية ، وانهزم الفرس ، وفر نرسى .

وفى باروسـما التقى المسـلمون بالجالينوس الذى كان متقـدما لاغاثة نرسى ، وانتصر المسلمون أيضا وفر الجالينوس الى المدائن ..

وكان للمثنى حتى هذه اللحظة دور هام فى المعارك التى دارت ، فهـو الذى أشار على أبى عبيد أن ينحرك بسرعة الى لقاء نرسى فى كسكر قبل أن يصله مدد الجالينوس فيدعم مركزه ويعزز موقفه ويشـد من أزره ، وبذلك وضع المثنى مبدأ عسكريا هاما هو عدم القتال فى جبهتين فى وقت واحد ، فقد انتصر المسلمون على جيش نرسى ثم جيش الجالينوس كل على حدة ، وفى معركتين متتاليتين ، ولا شك فى أن النصر كان ميسورا على هذه الصورة ، لأنه فى حالة تجمع الجيشين قد يصعب مواجهتهما معا والانتصار عليهما ، هذا فوق أن المسلمين لم يكن فى استطاعتهم وقتها تقسيم أنفسهم الى جيشين لمواجهة الفرس فى السقاطية وباروسما فى وقت واحد لخطورة ذلك ..

ولعل القارىء يذكر أن قيادة جيوش الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية كانت تسعى الى فتح ميدان جديد حتى تضطر قوات المحور الى القتال فى أكثر من جبهة مما يضعف لديها القدرة على المواجهة والامداد السليم لكل جبهة ... وعندما نجحت فى ذلك « النزول على شواطىء أفريقيا الفرنسـية الشـمالية

ثم غزو صقلية واقتحام القارة الأوروبية) ، كان هذا النجاح بداية الفشل والانهيار فى جبهة المحور (٥)

كان للمثنى بجانب هذه المشورة موقف آخر ، فقد تولى مطاردة الفارين، فلاحقهم وأنزل بهم خسائر فادحة واستسلم له قائدان من كبار قادة الفرس هما فروخ وفروانداذ ، فبعث بهما الى أبى عبيد .

❋ ❋ ❋

وأزعجت هذه الانتصارات رستم ، فدعا بأشد العجم على العرب وهو القائد ذو الحاجب بهمن جاذويه ، وعينه قائدا لجيش كبير العدد يعاونه الجالينوس ودفع اليه براية كسرى وهى راية من جلود النمر تسمى درفش كابيان وكانت لا ترفع أمام الجيش الا لأمر عظيم (١٠) وكان تحت قيادة بهمن ثمانون ألفا من المقاتلين وعشرون فيلا (٥)

وبدأ الاستعداد للقاء جديد .

وتقدم بهمن بقواته حتى نزل قس الناطف ، وهى موضع على شاطىء الفرات الشرقى قرب الكوفة (٥)

ونزل أبو عبيد والجيش على الضفة الأخرى لنهر الفرات عند المروحة ، فى مواجهة جيش الفرس .

وكان واضحا أن هناك اختلافا كبيرا فى كثافة وعدة كل من الجيشين (٥)، فثمانون ألف مقاتل من الفرس ومعهم عشرون فيلا ، يواجهون عشرة آلاف فقط من المسلمين (٥)

وبعث بهمن الى أبى عبيد يعرض عليه : « اما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور ، واما أن تدعونا نعبر اليكم » (٥)، فقد كان لابد من أن يعبر أحد الجيشين النهر الى حيث الجيش الآخر حتى تتم المعركة .

وجمع أبو عبيد مستشاريه وهيئة الأركان ، وكان المثنى فى مقدمتهم ، وعرض عليهم رسالة بهمن ، فأشار عليه المثنى بعدم العبور « لا تعبر يا أبا عبيد اننا ننهاك عن العبور » ، واقتنع سليط برأى المثنى وأيده ، ودعا الى عدم العبور ، ولكن أبا عبيد عارضهم ، وصمم على العبور ، فالحا عليه أن يستجيب لهما وأن يتبع رأيهما ، ولكنه ظل على رأيه وازداد تمسكا به ، وقرر أن تعبر قواته وأقسم فى مواجهة المعارضين ليقطعن الفرات اليهم قائلا :

« لا يكونوا أجرأ على الموت منا بل نعبر اليهم » ، فزادا فى الالحاح وناشداه :
« ان العرب لم تلق مثل جنـــود فارس مذ كانوا ، وانهم قد حفلوا لنا (أى اجتمعوا) واستقبلونا من الزهاء (أى العدد الكبير) والعدة بما لم يلقنـــا به أحد ، وقد نزلت منزلا فيه مجال وملجأ ومرجع من فرة الى كرة » .

ولم يستمع اليهما أبو عبيد ، وأصر على رأيه قائلا : « لا أفعل » ، ثم وجه حديثه الى سليط « جبنت والله يا سليط » فغضب سليط ورد عليه قائلا :
« انا والله أجرأ منك نفسا ، وقد أشرنا عليكَ بالرأى ، فستعلم » .

وازاء هذا الاصرار الغريب من جانب أبى عبيد ، أشار عليه المثنى أن يتم العبور مفاجأة أملا فى أن تصل القوات الى مواقعها دون تدخل من جانب العدو ، ورفض أبو عبيد هذا الرأى أيضا وأصر على أن يكون العبـــور على مرأى ومشهد من العدو !!

لابد لنا هنا من وقفة نحلل فيها تصرف أبى عبيد .. فان اصراره ومخالفته لرأى مستشاريه كان دون شك خطأ كبير ، ولهذا الخطأ جوانب ثلاثة ما كان يجب أن يقع فيها قائد كأبى عبيد ..

لقد تجاهل أبو عبيد آراء أصحابه ومستشاريه .. وهذا خطأ ، لأن رأى الجماعة يكون دائما أرجح من رأى الفرد ، فالجماعة ترى بعيون كثيرة ، وتفكر بعقول متعددة ، وتبحث الأمر من مختلف زواياه .

هذا فوق أن الشورى مبدأ اسلامى أصيل ، فالاسلام قام على الشورى ، وهى تعنى الاستماع الى رأى أصحاب الرأى والاهتمام به ، لأن الاســـــلام حرص على روح الجماعة « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ، « عليكم بالجماعة واياكم والفرقة » ، « يد الله مع الجماعة » ..

وحرص الاسلام يعنى الرغبة فى تقويم النزعة الفردية ، واشاعة عادة تبادل الرأى ، والتشاور فى الأمر ، والتناصح فى كل موطن يتبل التناصح ... ويعنى كذلك استعراض وجهات النظر وتمحيص الآراء والأفكار ، ولا عجب فى ذلك فان « الدين النصيحة » واذا كانت النصيحة والشورى وتبادل الرأى ضرورية بالنسبة لأوجه الحياة كلها ، فهى من أهم الضروريات فى شـــئون الحرب ومن ألزمها ، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى رسوله وهو المعصوم المؤيد بالوحى أن يشاور ويأخذ رأى غيره ، ويستمع الى النصح ، ويستعين بأهل الخبرة والتجربة « وشاورهم فى الأمر » ، وأصبحت الشـــورى « وأمرهم

شورى بينهم » ركيزة قوية من ركائز الدولة ومظهرا من مظاهر ديمقراطيتها ..

ولقد آمن رسول الله بأهمية الشورى ، فكان يتنازل فى مواقف كثيرة عن رأيه ، ويأخذ برأى أصحابه ، ولم يتمسك عليه السلام برأيه فى موقف قتال ....

حدث ذلك فى بدر مرتين ، الأولى : حين أراد أن يقف على رأى المهاجرين والأنصار فى مواجهة قريش ، فجمعهم وقال لهم : « أشيروا أيها الناس » فلما أشاروا بالخروج للقتال خرج ... والثانية : حين نزل عليه السلام والمسلمون أدنى ماء من بدر فجاءه الحباب بن المنذر وهو عليم بالمكان وسأله « يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، أمنزلا أنزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ » فأجاب الرسول : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » ، فأشار عليه الحباب بتغيير موقع المسلمين ، واستجاب الرسول له وسمع منه ..

وحدث مثل ذلك فى أحد ... فقد كان هناك رأى يرى الخروج لملاقاة جيش قريش ، وكان هناك رأى آخر يخالفه ويدعو الى البقاء فى المدينة والدفاع عنها ، وكان الرأى بالخروج هو الغالب ، فخرج المسلمون رغم أن رسول الله كان يرى الدفاع دون الخروج ، ولكنه عليه السلام استجاب لرأى الغالبية .....

وحدث مثل ذلك أيضا فى الخندق ، فقد جمع الرسول المسلمين للتشاور فلما عرض سلمان فكرة الخندق وافقوا عليها وأسرعوا جميعا وفى مقدمتهم رسول الله الى حفره .

وبهذا الأسلوب عالج أبو بكر وعمر أمور المسلمين ، لم يكن أحدهما ينفرد برأى ، وانما كانا دائما يميلان الى رأى الجماعة ، ولم يتمسك أحدهما برأيه فى موقف أبدا ... كانا — كما كان رسول الله — يستخلصان الرأى السديد من أصحاب الآراء الطيبة ، والأفكار الصحيحة ، والخبرة المفيدة ، والنظرة الصائبة ...

ولقد كانت تعليمات عمر لأبى عبيد حين ولاه قيادة الجيش أن يستشير أصحابه ، وأن يناقشهم الأمور ، وأن يسمع منهم .. لقد قال له فى صراحة ووضوح « اسمع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، وأشركهم فى الأمر ، ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين » (٥)

بعد هذا كله يتعجب المرء لموقف أبى عبيد !!

لماذا انفرد بالرأى ؟؟. ولماذا لم يستجب لرأى الصحابة ؟؟. ولماذا لم يسلك سبيل رسول الله وهو أسوة حسنة ؟؟. ولماذا لم يفعل كما فعل أبو بكر ومن بعده فعل عمر ؟؟ لماذا لم يحترم رأى عمر له ونصحه اياه قبل مسيره ؟؟. لماذا ضرب بآراء الآخرين عرض الحائط ؟؟

لعله كان يؤمن بقوة المسلمين ، ويرى أن لا عائق يقف أمام هذه القوة ، ولعله كان يرى فى عدم العبور مظهرا من مظاهر الخوف أو الوهن أو الضعف ، ولعله أراد أن يستعرض عضلاته أمام جيش أعدائه ...

ولكن مهما كان رأيه ، ومهما كانت مبررات هذا الرأى ، فان العبور كان مخاطرة ، والحرب خدعة ، والمسلمون حتى هذا الوقت لم يكونوا قد تعاملوا مع البحار والأنهار ، هذا فوق أنهم كانوا يحاربون فوق أرض غير أرضهم ، بل هى أرض عدوهم ، وهو أدرى بطبيعة الأرض ومسالكها ، فوق أنه يستطيع أن يستعيض ما يفقده من الرجال أو العتاد أو مستلزمات الحرب ، ولقد أثبتت أحداث المعركة — كما سنذكر فيما بعد — صدق وجهة نظر المثنى ، ومن نادى برأيه وآمن بفكره .

ومن جانب آخر فان أصعب العمليات الحربية هى عمليات العبور للموانع المائية ، فالأنهار والبحار تعتبر موانع طبيعية يستغلها المدافع استغلالا كبيرا بعرقلة تقدم عدوه المهاجم .. لقد اثبت التاريخ الحربى صعوبة اجتياز هذه الموانع ، وخاصة أن عملية العبور تتطلب اعدادا دقيقا وتدريبا شاقا وجموعا كثيفة وسرية مطلقة وهمة عالية وروحا وثابة ... هذا فوق أن المدافع الذى يقف خلف هذا المانع المائى تكون لديه فرصة اصابة المهاجم خلال عبوره ، والتمكن منه ، ذلك أن مرحلة العبور تعتبر مرحلة فقدان التوازن للجيوش مما يجعلها فريسة سائغة لأسلحة العدو ، ولهذا يفكر المهاجم مرة ومرات قبل أن يقرر العبور أو يقدم عليه ، ومن هنا كان خطأ أبى عبيد ... لقد كان فى امكانه أن يدعو عدوه للعبور فيحمل دونه مشقة هذه العملية بكل صعوبتها .

ومن جانب آخر فقد عرض المثنى على أبى عبيد — وقد رأى شدة تمسكه بفكرة العبور — أن يتم العبور مفاجأة ... والمفاجأة عنصر هام من عناصر النصر فى المعركة ، يأتى دائما فى مقدمة أصول الحرب ومبادئها ... ولقد أدركت القيادات فى مختلف العصور اهمية المفاجأة ، فكانت تجعلها أساس خطتها ... والمفاجأة فى المعركة تعنى مفاجأة فى العدد ، أو فى السلاح

المستخدم ، أو فى محور الهجوم ، أو فى وقت الهجوم، ولقد استخدم الرسول المفاجأة فى أكثر من موقف .. والمثنى حين دعا الى أن يكون العبوز مفاجأة انما كان يفكر بعقلية حربية متطورة فاهمة للمزايا الكثيرة التى تترتب على حدوث المفاجأة ... فقواته أولا ستعبر النهر فى وقت لا يعرفه العدو ، ومن مكان يجهله ، فتصل الى مواقعها على الجانب الآخر للنهر دون أن يصيبها اجهاد نتيجة لتدخل العدو خلال العبور ، ودون أن تفقد عددا من رجالها أو سلاحها .. هذا فوق أن الظهور المفاجىء فوق أرض العمليات يزلزل كيان العدو ويفقده توازنه ويضعف معنوياته ، فيصبح غير قادر على المقاومة أو الصمود ، كما يصبح مجبرا على القتال فى ظروف لم يعمل حسابها ولم يضعها موضع الدراسة أو التفكير .

نخرج من هذا التحليل الى حقيقة لعلها أصبحت واضحة تماما أمام القارىء ، وهى أن أبا عبيد قد أخطأ وجانبه الصواب فيما اتخذ من قرار خالف به رأى أصحابه ومستشاريه ، وأحداث المعركة تؤكد ذلك تماما .

أمر أبو عبيد الجيش بالعبور ... وكان بهمن قد أخلى منطقة ضيقة صغيرة للمسلمين على الجانب الآخر للنهر لا تسمح لهم بالحركة والمناورة والكر والفر .. وعندما بدأ المسلمون اجتياز النهر لم يمهلهم حتى يتموا العبور، بل أصدر أوامره لجيشه فحملوا على المسلمين وهاجموهم فى عنف فأنزلوا بهم خسائر فادحة ، حتى هؤلاء الذين وصلوا الى الشاطىء قابلتهم فيلة ضخمة مدربة على القتال عليها جلاجل تحدث رنينا أخاف الخيل ، ففرت فزعة لا تلوى على شىء ، ولم يلبث منها الا القليل ، وقتل من المسلمين كثيرون ، واشتد الأمر بهم ، فأمر أبو عبيد الناس أن تترجل ، ومشى بهم الى مواقع الفرس ، واشتبك معهم بالسيوف ، الا أن الفيلة كانت تتقدم الى المسلمين وتدفعهم فيضطربون ويفزعون ثم يفرون .

وأحس أبو عبيد بخطورة هذا السلاح الجديد الذى واجهه أول مرة ، ورأى فيلا أبيض يضرب الناس بخرطومه يمنة ويسرة ، فقرر أن يتقدم اليه ليقتله ، وقال له أصحابه : « انا نخاف عليك » ، فقال : « ان ربى ينصرنى ، ولكن أخبرونى هل لهذا الفيل من مقتل ؟ » ، قالوا : « اذا قطع خرطومه فهو يموت » ، فقال : « انى حامل على هذا الفيل ومن حوله من الفرس » ، فقالوا له : « دع عنك هذا الفيل » ، ولكنه رفض وقال : « انى لحامل على هذا المخلوق ، فانظروا ان قتلته وهزمت من حوله فأنا أميركم ، وان قتلت فأخى الحكم أميركم ، فان قتل فولدى وهب ، فان قتل فولدى مالك ، فان قتل

فولدى جبر ، فأبو محجن ، فالمثنى » .... ثم تقدم الى الفيل وحاوره وداوره وضرب خرطومه بسيفه فقطعه وهو يرتجز :

يا لك من ذى أربـــع ما اكبـــرك

يا لك فى يوم الوغى ما أنكـــرك

انى لعال بالحســـام مشـــفرك

وهالك وفى الهـــلاك لى دركَ

وهاجم الفيل أبا عبيد ، وضربه برجله ، فالقاه على الأرض ، ثم وقف فوقه حتى مات ...

واستمرت المعركة والقادة الذين عينهم أبو عبيد وسماهم ، يقتلون واحدا وراء آخر ... كما قتل عدد كبير من بنى ثقيف ... وأحس عبد الله بن مرثد الثقفى بخطورة الموقف وبأن المســـــلمين منهزمون لا محالة ، فأراد أن يوقف اندفاع المسلمين ناحية جسر مقام على النهر ليهربوا ويعودوا الى مواقعهم فى المروحة ، وأراد فى ذات الوقت أن يعيد ثقتهم بأنفســـهم ، فبادر الى الجسر وقطعه وهو يصيح فى الناس « أيها الناس موتوا على ما مات عليه أمراؤكم ، أو تظفروا » ، وجزع الناس لقطع الجسر فوثبوا فى النهر فغرق منهم كثيرون.

وشاهد الفرس ما أصبح عليه المسلمون فشدوا عليهم ، واضطروهم الى الانسحاب تجاه الجسر المقطوع ، وهنا زاد الأمر تعقيدا ، وارتفعت خسائر المسلمين ، وقتل ابطالهم وفى مقدمتهم سليط وأبو مخنف أبو زيد الأنصـــارى وهو أحد جامعى القرآن على عهد رسول الله .

وأصبح الموقف شائكا خطيرا حرجا عصـــيبا ... وكان لابد من اجراء سريع يحمى المســـلمين ويحفظهم ويصـــد عنهم طعنات الفرس ، ولم يكن بين المسلمين منَ يقدر على مواجهة هذا الموقف سوى المثنى ... فلما راى ما لحق بالمسلمين من نكبات ، تناول اللواء ، وتولى القيـــادة ، وفكر بسرعة ، وقدر الموقف ، وقرر ضرورة الانسحاب ، على أن يتم بسرعة كبيرة ودون خسارة فى القوات ... أمر على الفور عروة بن مســـعود « انطلق الى الجسر فقف عليه وحل بين العجم وبينه » ، ثم أمر بتشكيل جماعة من الفرسان ، وضعها تحت قيادته مباشرة ، تقوم بحماية المســـلمين ومهاجمة الفرس وتعطيلهم عن متابعة المسلمين ، وهاجم بقواته الفرس وهو يثير الناس : « يا معشر العرب انا دونكم فاعبروا على هيئتكم ولا تدهشوا، ولا تفرقوا أنفسكم فانا لن نزايل حتي نراكم على الجانب الآخر » .

وجعل المثنى يقاتل ، ويحمى ظهور المســــلمين أثناء العبور ويحول بين الفرس وبينه ... وأصابته وهو فى موقفه طعنة رمح غاصت لها حلقات درعه فى جنبه ، وظل رغم الاصابة يناضل فى شجاعة ، ويقاوم هجمات الفرس فى بطولة ، حتى عبر المسلمون جميعا الجسر ، ثم عبر هو ورجاله فى النهاية ..

ولم تنته مهمته عند هذا الحــد ، وانما بقى مع الرجــال على الضــفة الأخرى ، يمنع الفرس من العبور خلف المسلمين ، وظل يصدهم حتى زهدوا فى العبور والمطاردة ...

وهكذا نجح المثنى فى انقاذ الجيش الاسلامى من مخالب الفرس ، ومنع الدم العربى من أن يسفك على أرض فارس .

وما ان نجح الجيش الاسلامى فى عبور النهر حتى أمر المثنى بالانسحاب فورا الى الحيرة ، ثم تابع انحداره الى الجنوب حتى اليس ، فقــد خشى أن يعبر بهمن جاذويه النهر اليهم وهم على هذه الحالة من التفكك والاجهــاد والارهاق فيتمكن منهم ويهزمهم ، وتكثر بذلك خسائرهم ويفقدون بالتالى ميدانا هاما من ميادين القتال .

وانسحاب المثنى بالقوات الاسلامية كان خطة عسكرية لها قيمتها ... فالانسحاب أمر تقره جميع القيــادات .. وهو فى لغة الحرب لا يعنى فى كل الحالات هزيمة ، ولا يدل على انكسار أو ضعف ، وانمــا قد يكون جزءا من خطة عامة تستلزمها ظروف المعركة .

وهنا يبرز تساؤل هام يفرض نفسه فى هذا الموقف ، وهو : لماذا انسحب المثنى حتى وصل الى حدود الصحراء ؟

والاجابة على هذا التســاؤل تلقى الضوء على عبقرية المثنى الحربيــة وكفاءته وقدرته فى مواجهة الأحداث وتقدير الموقف .

ان المثنى جندى عربى .. وجنده عرب .. وهؤلاء عاشــوا حياتهم فى الصحراء ، وقضوا عمرهم بين رمالها ، وخاضوا غمار معارك كثيرة فى جاهليتهم أو فى بداية الاسلام فوق أرضها ، ومن هنــا فهم جنــد مدربون على قتــال الصحراء ، يجيدون الكر والفر والهجوم والادبار ، وهم بهذا يفوقون عدوهم فى حرب الصحراء ، لأنه يعيش فى بيئة مختلفة فيها مبان وحقول ونخيل وجداول وأنهار ، وهو فى ذات الوقت مدرب على حرب المدن ، وهــذه تختلف تماما فى جوهرها وأصولها عن حرب الصحراء التى يجيدها العرب اجادة تامة فائقة .

ومن جانب آخر لو أن معركة نشبت بين الفريقين وانتصر فيها الفرس فان الصحراء تمنح الجند المسلمين عمقا استراتيجيا يمكن استغلاله لصالحهم فى الانسحاب الى الوراء دون أن يستطيع الفرس ملاحقتهم ومطاردتهم ، فتقل بذلك خسائرهم ، ويستطيعوا أن يعيدوا تنظيم قواتهم ، واعداد صفوفهم ، وجمع شملهم ، استعدادا لهجوم مضاد ، أو لشن غارات ضد العدو ، تفقده الاستقرار الذى ينشده .

ومن جانب ثالث فان وجودهم على حافة الصحراء يجعل الطريق مفتوحا الى رئاسة القوات فى المدينة بحيث يمكن الاتصال بهذه الرئاسة لتدبير المؤن والامدادات التى تشد من أزرهم فى مرحلة اعادة الاستعداد لشن هجوم مضاد .

* * *

لقد تغير الموقف بعض الشيء بعد أن وصل المثنى الى أليس ، فقد اختلف أهل فارس ، واضطر ذو الحاجب الى العودة بجيشه الى العاصمة ، وترك قوة يقودها جابان ومردانشاه ، سارت لمطاردة المثنى وتعقبه ، فخرج اليها المثنى وأسر القائدين ثم قتلهما وضرب أعناق القوة كلها .

وبانتهاء موقعة الجسر بدأت مرحلة جديدة فى الصراع القائم فوق أرض العراق ، وعاد المثنى ليتولى من جديد قيادة المسلمين فى معاركهم التالية ضد الفرس ، والذى يثير الاهتمام هنا أن المثنى قد استفاد كثيرا من هذه المعركة ، واتخذ من أسباب الهزيمة دافعا الى النصر .

لقد كان للمثنى فى موقعة الجسر صفتان .. صفته كمستشار عسكرى لأبى عبيد ، وصفته كمحارب ضمن الجيش الاسلامى .. ولقد أدى المثنى واجبه تماما اذ قدم النصح والارشاد والتوجيه بصدق واخلاص ... وأدى واجبه كمقاتل فشارك فى المعركة بكل مشاعره وأحاسيسه ، ولم تقعده الاصابة عن اتمام رسالته ... وأدى للجيش كل ما يمكن أن يؤديه الرجل الشريف لقواته المسلحة ... وتفانى فى أداء واجبه وأخلص لمهمته ، وأدى الأمانة الملقاة على عاتقه خير أداء .

لهذا ما أن انتهت معركة الجسر حتى ألقت القيادة مقاليدها اليه ووضعته على رأس الجيش الاسلامى فى معاركه القادمة ضد الفرس .

الجـولة الأخـيرة

ألقت المقادير على عاتق المثنى مسـئولية مواصلة العمل العسكرى فوق أرض العراق ، وتقبل هو هذه المسئولية باحساس المسلم المؤمن الذى يقدر واجبه ويعرف مهمته ، ويدرك أن رسالة الاسلام يجب أن تواصل مسيرتها فى طريق الكفاح الانسانى الشريف .

قدر المثنى موقفـه ، ودرس أمور المسلمين الذين معـه ، ورأى أن أية معركة قادمة تتطلب مددا وعونا حتى يستطيع أن يعيد تنظيم القوات وترتيبها، فبعث الى الخليفة عمر يطلب المدد .

ولم ينتظر حتى يبت الخليفة فى طلبه ، وحتى تصل اليه الامدادات عبر الصحراء ، فقد يستغرق ذلك وقتا طويلا ، بل باشر عمله كقائد لهذا القطاع الحيوى ، فبعث برسله الى من يليه من قبائل عربيـة يدعوها الى الانضـمام اليه والاتحاد معه ، واستجابت له القبائل ، وجاءته وفود عظيمة ، وتوافدت عليه جموع ضخمة منهم نصارى بنى النمر وعلى رأسهم انس بن هلال النمرى، ومنهم عدد غفير من نصارى بى تغلب وعلى رأسهم عبد الله بن كليب الثعلبى، ولا شك فى أن انضمام النصارى الى المسلمين قد أضفى على المعـارك التى وقعت بعد ذلك ضوءا وشرفا ومجدا ، لأن هؤلاء النصارى عرب فى أصلهم رأوا أن ينحازوا الى جانب اخوانهم المسلمين العرب ، وقالوا فى ذلك « نقاتل مع قومنا » ويرجع الفضل فى ذلك الى شاعر نصرانى هو حوصلة بن المنذر الطائى وكان يعرف باسم أبى زيد الطائى ، فقد كان قادما من الحيرة فى بعض شئونه فرأى ما أصاب العرب المسلمين فتحركت فيه دماؤه العربية ومشاعره القومية وعز عليه أن ينهزم قومه وأن ينتصر عليهم قوم يختلفون عنهم لغة وتاريخـا وقوميـة وسكنا ودما ، فانحاز الى جانب المسلمين ، وشـجع هـذا الموقف باقى القبائل النصرانية فسلكت مسلكه واتخذت موقف المحالفـة مع اخوانهم العرب المسلمين .

وفى المدينة كان عمر مشغولا بأمر الحملة وكان يهمـه أن يحرز الجيش الاسلامى نصرا ينسيه هزيمة الجسر حتى ترتفع معنوياته وتعود اليه ثقته فى نفسه ، ولهذا بعث يطلب الناس للخروج ، وتوافد العرب على المدينة ملبين نداءه مستجيبين اليه .

ولما كان عمر قد رفع الحظر عن أهل الردة ، فقد كتب الى جموعهم من

بنى عبد القيس أن يخرجوا الى العراق ، ففرحوا بهـذه الدعوة التى جاءتهم بعد وقت منعوا فيه من المشاركة فى المسيرة المحمدية ، وقرروا الخروج .

وكان بنو بجيلة متفرقين مشتتين فى القبائل ، وطلب جرير بن عبـد الله البجلى من عمر أن يجمعهم فوافق وبعث الى عماله « انه من كان ينسب الى بجيلة فى الجاهلية ، وثبت عليه فى الاسلام ،فأخرجوه الى جرير » ، ثم أصدر أمره الى جرير « اخرج حتى تلحق المثنى » ، الا أنه اعترض على ذلك وفضل الخروج الى الشام ، وما زال عمر به ، وعرض عليه الربع من خمس ما يفىء الله على المسلمين بالاضافة الى نصيبهم من الفىء ، فقبل وتولى قيادة سبعمائة فارس من رجاله وسار بهم الى بلاد فارس .

وقدم غالب بن عبد الله وعرفجة بن هرثمة الى الخليفة على رأس قومهما ووافقوا على التحرك الى العراق ، بعد أن قال غالب لقومه « يا عشـيرتاه أجيبوا أمير المؤمنين الى ما يرى وأمعنوا له » .

خرج مع الخارجين بنو الأزد وعليهم عرفجة بن هرثمة ، وبنو كنـانة وعليهم غالب بن عبد الله ، وبنـو حنظلة وعليهم ربعى ، وبنـو ضبة وعليهم عصمة بن عبد الله الضبى ، وصحب الخارجون نساءهم وأبناءهم .

وتلقى جرير وهو على رأس الخارجين جميعا رسالة من المثنى يقـول فيها : « انا قد جاءنا أمر لم نستطع معه المقام حتى تقدموا علينا ، فعجلوا اللحاق بنا ، وموعدكم البويب » .

وفى الوقت الذى كان المثنى يعد جيشه وينظم أموره وينتظر المدد ، كان الفرس أيضا يرتبون للقاء جديد ... واستطاع رستم والفيرزان أن يصلا الى اتفاق يضع حدا لحالة القلق والاضطراب التى كانت تسود البلاد ، واتفقـا على تقسيم السلطة بينهما ، ثم اتفقا على توحيد الجهد للقضاء على الجيش الاسلامى ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف جمعا جيشا كثيفا قويا ، وجعلا عليه القائد مهران بن مهربنداد الهمذانى ، وأمداه بعدد كبير من الفيلة ، وكلفـاه بالتقدم الى مواقع المسلمين ..

ونود أن نشير الى أن مهران كان من قادة الفرس الأمجاد ، كان طموحا له آمال عريضة ، ورأى أن أهل فارس ما زالوا يعيشـون أياما مجيدة منذ انتصر ذو الحاجب فى الجسر ، ولهذا قرر أن يفوق انتصاره على المسـلمين

انتصار ذى الحاجب ، فيضمن بذلك التفاف الناس حوله وارتفاع رصيده مما يدفع به الى مكان الصدارة بين قومه .....

وتقدم مهران بقواته التى بلغ عددها اثنى عشر الفـــا ، ونزل فى ارض تدعى بسوس — قرب الكوفة — فى مواجهة قوات المثنى .

وعلم المثنى بنزول قوات الفرس واســتعدادها فى منطقة بســـــوس ، فاستبشر بذلك ، واعتبر نزولهم فى هذه المنطقة فالا طيبا ، وقال فى ذلك لرجاله « اكد مهران وهلك ، ونزل منزلا هو البسوس » .

وكان لابد لكى يتم اللقاء بين الطرفين ان يلتقيا معا على احدى ضفتى النهر ، وهذا يعنى أن يعبر احد الجيشـــين الى حيث الجانب الآخر ، وبعث مهران الى المثنى يقول : « اما أن تعبروا الينا ، واما أن نعبر اليكم » .

وتنبه المثنى فى هذه المرة الى خطورة العبور ، وتذكر ما جرى قبل موقعة الجسر من مشاورات ، وعادت به ذاكرته الى أيام الجسر حين اصر ابو عبيدة على العبور مخالفا بذلك راى اصحابه وما نتج عن ذلك من هزيمة قاسية .

وكان من الطبيعى أن يثبت المثنى على رايه الذى نادى به قبل موقعـــة الجسر ، ولهذا بعث الى مهران يقول له « اعبروا الينا » .

وعبر الفرس النهر الى البويب ، فى ثلاثة صفوف ، مع كل صف فيل ، وكان للفيلة خلال عبورها صـــوت وضوضاء ، فقال المثنى لجنده « ان الذى تسمعون فشل ، فالزموا الصمت واتمروا همسا » .. وهذا التوجيه للجند له أهميته ، فالفيلة أحدثت أثناء التحرك صوتا وصل الى مســـامع المســـلمين ، فأدركوا أن الجيش يضم عددا من الفيلة ، وكانوا قد قاسوا كثيرا منها فى موقعة الجسر ، ولهذا فقد كان من الضرورى أن يعدوا أنفسهم لمواجهة هذا السلاح الذى يستخدمه أعداؤهم ...

وبهذا الصـــوت الذى وضـــح أثناء التحرك يكون الفرس قد فضـــحوا أنفسهم ، وأضاعوا ميزة ظهور هذا السلاح كمفاجأة فى المعركة لما للمفاجأة من أثرعلى نفسية المقاتلين ، ولقد صور المثنى ذلك فى قوله : « ان الذى تسمعون فشل » ، ولم يشأ المثني أن يقع جنده في هذا الخطأ ، فنصحهم بالتزام الصمت

وبالتكلم بهمس حتى لا يعرف العدو عنهم شيئا ... **وهو بذلك يكون قد التزم بمبدأين هامين من مبادىء الحرب وهما السرية وسلامة القوات .**

وبفكر رجل الحرب المحنك الفاهم الواعى أعد خطة اللقاء ، فقسم جيشه الى فرق ، تولى أمرها رجال ميامين من رجاله ... فعلى مجنبتيه جعل بشير بن الخصاصية ويسر بن ابى رهم ، وعلى مجردته (الخيل) اخاه المعنى ، وعلى الرجل (المشاة) أخاه مسعود ، وعلى الطلائع (المقدمة) النسير ، وعلى الردء (الاحتياط) مذعورا ، وجعل مركز القيادة فى القلب .

وبفكر رجل الحرب المحنك الفاهم الواعى اهتم - بعد اعداد قواته ماديا — بالجانب المعنوى للجند ، ايمانا منه بأن معنويات الجند هى السلاح الرئيسى فى المعركة ، وبأن النصر عند اللقاء يتوقف أساسا على القوة المعنوية ، وبأن الجانب الذى يتميز بمعنويات عالية هو الجانب الذى يحرز النصر ، فكان يتعهد الصفوف ويمر بين الجند على فرسه الشموس (سمى الشموس للين عريكته وطهارته ، وكان المثنى لا يركبه الا اذا قاتل ، فاذا فرغ من القتال ، ودعه وتركه) ، يحضهم ويردد على أسماعهم « انى لأرجو الا تؤتى العرب اليوم قبلكم ، والله ما يسرنى اليوم لنفسى شىء الا وهو يسرنى لعامتكم » ... وكان يذكرهم بالحروب والوقائع الماضية والغزوات السالفة ، ويعرفهم بمواقع الشجعان ومصارع الفرسان ، ويضع أمامهم ما وعد الله به الشهداء من ثواب فى دار النعيم ... ظل المثنى يخاطب مشاعر جنده وينشط الهمم ويقوى العزائم ويجذب النفوس الى الحرب ويحمس الناس للقتال ويحرض المؤمنين عليه .. وكان الوقت رمضان ، ورأى المثنى ان المعركة تتطلب كل الجهد من المقاتل ، وخشى ان يؤثر الصوم على قدرة الرجال ، فأمرهم بالافطار « ايها الناس ، انكم صوام ، والصوم مرقة ومضعفة ، وانى ارى من الراى ان تفطروا ، فتقووا بالطعام على عدوكم » .

ولم يشأ المثنى أن ينفرد بهذا الراى ، وخاصة انه يمس جانبا دينيا هاما ، ويتصل باحدى ركائز الدين وهو الصوم ، فعرض الأمر على الناس حتى يقولوا رأيهم فى صراحة دون حرج ، ورأى الناس رأيه وافطروا ، **ومن هنا يكون المثنى قد جعل الالتقاء الفكرى أساسا العمل العسكرى ، وبذلك يكون قد وصل الى مستوى الامتياز فى القيادة الناجحة .**

وبدأ المثنى فى تدبير خطة اللقاء ، **وكان يؤمن بان الهجوم هو خير وسائل الدفاع ،** وهذا الذى آمن به راى حديث فى الحرب تلتزم به القيادات ، وطبقا لما جاء فى كتاب « التمرين على الحروب » فانه يعمل على كسب السيطرة

الأولية وحرية العمل والزام العدو اتخاذ خطة التدافع وانعاش روح القوات المعنوية ، واضعاف روح قوات العدو ...

لقد عرف المثنى ذلك كله وادركه منذ زمن بعيد ، وسبق به القيادات الحديثة مما يؤكد أصالته العسكرية وامتيازه الحربى ...

وحدد المثنى ساعة الصفر ، واتفق أن يكون موعدها عندما يكبر للمرة الرابعة ، وكان التكبير عند المسلمين هو الاذن بالهجوم ، وبه كانت دائما تتحدد ساعة الصفر اى ساعة بدء العمليات ... قال لهم المثنى « انى مكبر ثلاثا ، فتهيئوا ، ثم احملوا مع الرابعة » .

ولكن ميدان المعركة هو ميدان المفاجآت ...

وهذا يتطلب من القائد ان يكون يقظا متفتحا مستعدا لأية مفاجآت يجد نفسه امامها ، والقائد الناجح هو الذى يستطيع اذا ما واجهه موقف غير متوقع ، أن يضبط أعصابه ، وأن يحكم عقله ، وأن يفكر بسرعة حتى يجد المخرج .. أما اذا سيطرت المفاجأة عليه فانها تشل تفكيره ويصبح غير قادر على الرؤية الصحيحة ، ويكون الأثر المترتب على ذلك خطيرا للغاية ، ذلك ان الجيش بكامل عدته وعدده يكون صيدا ثمينا .

ترى اية مفاجأة تعرض لها المثنى ؟

وكيف كان تصرفه حيالها ؟

كان المثنى قد أعد خطته على أساس أن يبدأ هو بالهجوم ، ولكن قبل أن يبدأ المسلمون هجومهم بدأه الفرس ... وكانت لهم المبادأة ... هاجموا بعنف وخالطوا المسلمين ، والتحم القتال .

كان للمفاجأة — كما هى العادة — اثر على المسلمين ، فقد اختلت صفوفهم وخاصة فى جبهة بنى عجل ، ولكن المثنى القائد اليقظ لم يدع الفرصة تضيع من يده ، فبعث اليهم يقول : « ان الأمير يقرئكم السلام ويقول لكم لا تفضحوا المسلمين اليوم » .. فاعتدل بنو عجل ، وشدوا مع سائر الجند ، وعادت صفوفهم الى الأنتظام وتمكنوا من السيطرة على الموقف ، وواجهوا عدوهم بصبر وثقة وأمل ، وبذلك فقدت المفاجأة التى تعرضوا لها قيمتها وأثرها ، وتغلبوا عليها .

ودام القتال ساعات طويلة واشتد اللقـاء وعنف الصـدام ، وخاض المسلمون المعركة بايمان راسخ وعزم شديد ودفع قوى وجراة هائلة واستبسل نموذجى وصمود بطولى .. وكان اكثرهم استبسـالا هؤلاء الذين فروا يوم الجسر كأنهم يريدون أن يكفروا عن هزيمة الأمس .

ولم ينس المثنى واجبه كقائد يقود معركة مصيرية تحدد مستقبل الاسلام فى أرض العراق ، فظل خلال الاشتباك يرقب الجند ويدير المعركة ويعـدل الصفوف ، ويشرف على سير القتال ، ويباشر مهامه ، فيمر بين المقاتلين يثير حماسـهم ويشـجعهم ...

وأراد المثنى أن يوجه الى الفرس ضربة قاصمة ، فدعا انس بن هلال النمرى وقال له : « يا أنس انك امرؤ عربى ، وان لم تكن على ديننا ، فاذا رأيتنى قد حملت على مهران ، فأحمل معى » ، ثم دعا أبا مردى الفهـرى (عبد الله بن كليب الثعلبى) وقال له ما قاله لأنس .

اذن فالمثنى كان يستهدف قتل مهران ذاته ، وفكرة القضـاء على قائد الجيش المعادى فكرة صائبة ، لأن القائد هو راس الجيش وعقله المفكر وقلبه النابض وحماسه المستمر ، فاذا فقد الجيش قائده فقد عنصرا هاما من عناصر المعركة ، وبالتالى فقد القدرة على مواصلة القتال ، لأنه لا يسـتطيعه دون الرأس المفكر المدبر الذى يحرك ويرتب وينظم سير العمليات .

وهاجم الرجال الثلاثة مهران ، ونجح غلام تغلبى فى قتله ، واسـتولى على فرسه ، وظل ينشد مزهوا « أنا قتلت مهران ... أنا قتلت المرزبان » .. وما أن أعلن قتله حتى تضعضع قومه وتراجعـوا فى اتجاه النهر يعبرون ويبتغون النجـاة ...

واحس المثنى بمشاعر القوم فصاح فى رجاله وهو يشـد على الفرس « عاداتكم من أمثالكم ، أنصروا الله ينصركم » ... ثم أسرع الى الجسر يقطع على الفرس خط الرجعة ويردهم عنه ، ليحصرهم بينه وبين رجاله المقاتلين وهم يحيطون بهم من كل جانب وسيوفهم تأخذهم من كل ناحية ، تقتلهم شر قتله حتى قيل ان الجندى المسلم كان يقتل وحـده عددا من عدوه وهم غير قادرين عليه ، وقد احصى المؤرخون مائة رجل من العرب قتل كل منهم عشرة من الفرس ، وقيل أن ما أزهق من الأرواح فى البويب فاق ما زهق فى أية معركة أخـرى ، اذ قـدر عدد القتلى من الفرس بمائة الف ، وبقيت جثثهم صرعى طريحة فى الميدان حتى بليت وصارت عظاما ، ولم تدفن الا بعد بناء الكوفة ،

وروى أن أهل تلك الناحية كانوا يأتون البويب ، فيرون فيما بين موضع أسكون وبنى سليم « عظاما بيضا تلولا ، تاوح من هامهم وأوصالهم يعثر بها » .

وأطلق على يوم البويب يوم الاعشار ، ووصف المثنى الفرس فقال : « قاتلت العرب والعجم فى الجاهلية وفى الاسلام ، والله لمائة من العجم فى الجاهلية كانوا أشد على من ألف من العرب ، ولمائة من العرب اليوم لأشد على من الف من العجم ، ان الله أذهب بأسهم ، ووهن كيدهم ، فلا يروعنكم زهاء ترونه ، ولا سواد ولا قسى فج و لانبال طوال ، فانهم اذا أعجلوا عنها أو فقدوها كالبهائم أينما وجهتموها اتجهت » .

واستشهد عدد كبير من بنى النمر وبنى تغلب ، وكثيرون من عرب العراق كان منهم خالد بن هلال ، ومسعود بن حارثة ، وأنس بن هلال النمرى النصرانى ، وقال المثنى فى رثائهم « والله ليهون على وجدى أن شهدوا البويب ... وأقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا وفى الشهادة كفارة » .

وغنم المسلمون مغانم كثيرة .

ووصف عروة بن زيد الخيل انتصار المثنى فى البويب فقال :

هاجت لعروة دار الحى أحزانا
واستبدلت بعد عبد القيس همدانا

وقد أرانا بها والشمل مجتمع
اذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا

أيام سار المثنى بالجنود لهم
فقتل القوم من رجل وركبانا

سما لأجناد مهران وشيعته
حتى أبادهم مثنى ووحدانا

ما أن رأينا أميرا بالعراق مضى
مثل المثنى الذى من آل شيبانا

ان المثنى الأمير القرم لا كذب
فى الحرب أشجع من ليث بخفانا

* * *

وبعد البويب قاد المثنى المسلمين فى عدة غارات بقصد الاستطلاع وجمع الأخبار عن الفرس .. وهاجم ســـوق الخنافس والأنبار وبادوريا وقطربل وسوق بغداد وصفين ، ونجحت هذه الغارات ، وغنم المسلمون كثيرا .

وكان لهذه الغارات أهداف عسكرية فى المقام الأول ..

منها ... اثارة الرعب والفزع فى نفوس اهل فارس عامة وجندها خاصة، فتظل معنوياتهم منحطة ونفسياتهم محطمة وافكارهم مشتتة ، فلا يقوون على لقاء ، بل يجبنون عنده .. وفى ذات الوقت فانها تعطى المسلمين ثقة فى أنفسهم، واطمئنانا الى كفاءتهم ، وايمانا بالنصر الذى يسعون اليه ... هذا بالاضافة الى اخضاع بعض القبائل العربيـــة التى تقطن أرض الســـواد وتدين بالولاء للفرس وتشكل خطرا على الوجود الاسلامى .

ومنها .. زيادة خبرة ومعرفة الجند المسلمين بطبيعة ارض اعدائهم .. ودراسة طبيعة أرض القتال تأتى دائما فى الصدارة .. وهذه الدراسة تجعلهم يتطبعون بنوعيـــة القتـــال فوق هـــذه الأرض ، حيث أن بيئتهم أساسا هى الصحراء ، وحرب الصحراء التى تعودوها تختلف عن الحرب فى أرض فارس، حيث الأنهار والحقول والوديان والمدن ، والحرب فى هـــذه المناطق لها طابع خاص يستلزم معرفته ، وأسلوب معين يجب اتباعه .

ومنها .. تعزيز موقف الجيش الاسلامى ، فيحس الجند أنهم يقفون على أرض صلبة ، واشعار الفرس بما صار عليه الجند المسلمون من قوة ، وما أصبحوا عليه من شدة وبأس .. وهذا من شأنه أن يرفع من الروح المعنوية عنـــد المسلمين ، ويشـــعرهم بقوتهم ، ويزيدهم اقبـــالا على التأهب النفسى والاستعداد القتالى .

ومنها .. منع العدو من محاولات جمع الصفوف وحشد الحشود واعادة ترتيب القوات وتنظيمها ، استعدادا للقـــاء آخر أو مواجهة جديدة ، فهـــذه الغارات تأخـــذ عليهم وقتهم وتشل تفكيرهم ، فهم لا يعرفون من أين تأتيهـــم الضربة التالية ، فيظلون فى حيرة من أمرهم وبالتالى لا يفـــكرون فى القيـــام بعمـــل هجومى .

ومنها .. التدريب العسكرى العملى على مواجهة العدو .. ولا شك فى أن هذه الغارات كانت نوعا من التدريب الذى يعد الجند نفســـيا وعمليـــا لخوض غمار أية معركة ، اذ أن هذا النوع من التدريب العملى يصقل نفوسهم

وبعدها اعدادا فنيا سليما .. وهذا النوع من التدريب هو أعظم معلم للجيوش ولهذا فان القيادات الحديثة تبذل قصارى جهدها فى أن يكون التدريب قريبا لواقع المعركة وظروفها ، حتى يتعود الجند ، ويصبحوا قادرين على تحمل أعبائها وقت وقوعها .

ومنها .. القضاء على قوة الفرس الاقتصادية التى هى أساس قوتها العسكرية ، فلا شك فى انه حيث يوجد اقتصاد قوى توجد جيوش حديثة وقوية ، وذلك أن اعداد الجيوش يتطلب اقتصادا وطنيا سليما وراسخا ، ولقد كانت اقتصاديات فارس تكمن فى أسواقها ، حيث يأتى اليها التجار من داخل أراضيها ومن أرض السواد ومن مختلف البلاد والنواحى ، وتجتمع بها أموال كثيرة لا حصر لها ، حتى أن بعض المراجع أجمعت على أن أموال سوق بغداد وحده ، تقدر بأموال بيت المسلمين كله .

بدأت هذه الغارات بعد الانتهاء من معركة البويب وكانت أولها على **سوق الخنافس** وهى سوق يتوافد اليها تجار كثيرون من جميع انحاء البلاد.. وكانت هذه السوق هى أقرب الأسواق الى موقع المثنى ، وكان موعدها قد قرب ، فتحرك اليها سريعا ، ووصلها فى موعد مناسب ، فهاجم السوق ، واستولى على ما بها .

ثم خرج بعد ذلك قاصدا **سوق بغداد** ، وكان معه عدد من أهل الحيرة يدلونه على الطريق ، ووصل بقواته الأنبار وهناك وجد الجسر مقطوعا ، فاستدعى مرزبانها ويسمى شفروخ ، ووعده الأمان ، وطلب منه المعاونة فى اصلاح الجسر ، دون أن يوضح له أنه فى طريقه الى سوق بغداد تحقيقا للمفاجأة وضمانا للسرية « انما أريد أن أغير على المدائن ، وأريد أن ترسل معى الأدلاء ، وتعقد لى الجسر لأعبر عليه الفرات الى المدائن » ، واستجاب له شفروخ وعقد له الجسر ، فعبر ، وتقدم ، ثم سأل الأدلاء « كم بيننا وبين بغداد ؟ » فأجابوه « أربعة أو خمسة فراسخ وقد يمضى عليكم ليل » .وهنا أدرك المثنى أن الجند قد أجهدهم السير وأن الأمر يتطلب منحهم بعض الراحة حتى يتجدد نشاطهم ، فأمر باقامة معسكر لجنده ، يقيمون فيه الليل .. وما أن أقيم المعسكر حتى صدرت تعليمات مشددة من القائد :

- باقامة أحراس على معسكر الجند تتناوب الحراسة ليلا ، ويسمح لباقى الجند بالراحة والنوم .

● بتكليف بعض فرسانه بالقيام بأعمال الدوريات حول المعسكر ، ولمسافات بعيدة .

● بالقبض على كل من يستراب فيه قرب المعسكر ، حتى لا تنتقل أخبار التحرك الى العدو فيعد نفسه للقائهم .

وهذه التعليمات تستهدف مبدأين هامين فى مبادىء الحرب الحديثة هما السرية الكاملة ثم تحقيق المفاجأة .. فبفضل السرية يظل العدو جاهلا بنوايا المسلمين .. وعلى قدر جهله تكون المفاجأة .

وفى آخر الليل أيقظ المثنى جنده استعدادا للتحرك ، فتناولوا فطورهم وعلفوا خيلهم ، وأعدوا سلاحهم ، ثم جاء أمر التحرك قبل طلوع الشمس ، وهذا يعنى أن يتم التحرك قبل أول ضوء على حد تعبير العسكريين اليوم، وفى اختيار هذا الموعد سبق عسكرى ، اذ أن كافة التيارات العسكرية الحديثة تختار دائما أول ضوء للتحرك أو للهجوم .

وتقدمت القوات الى هدفها ، وكان وصولها مفاجأة ، وهجومها مفاجأة، فلم تجد صعوبة فى وضع يدها على كل ما احتواه السوق .

وكانت آخر غارات المثنى فوق أرض العراق هى تلك الغارات التى قصدت اخضاع بعض العرب ، الذين يسكنون أرض السواد ، والذين يدينون بالولاء للفرس ، حتى لا يكونوا شوكة فى ظهر المسلمين عند لقاءاتهم المرتبة مع أعدائهم وتطهير هذه المناطق واخضاعها لسلطانه فكرة عسكرية سليمة ، تقتضيها متطلبات المعركة ، فليس من المقبول أن يواجه جيشا بينما تكون لهذا الجيش عيون وأعوان ، يمكنها أن تطعن من الخلف .. لهذا أرسل المثنى جرير بن عبد الله البجلى الى منطقة ميسان .. وهلال بن علفة الى ديستميسان وفرق جنده فى السواد تحت قيادة عصمة بن عبد الله الضبى ، وعرفجة بن هرثمة البارقى ، والكلح الضبى .. وأمر الجميع باخضاع سكان هذه المناطق من العرب لسلطة المسلمين .

وأرسل المثنى فرات بن حيان وعتبة بن النهاس للاغارة على احياء من تغلب والنمر فى صفين .. ثم لحق بهم وشاركهم فى الهجوم المفاجىء عليهم فاستسلم القوم دون قتال .

وكانت جماعة من تغلب قد تجمعت على دجلة مع قوم من تكريت ، فسار

اليهم المثنى ، وعلى مقدمتــه حذيفة بن محصن ، وعلى مجنبتيه النعمــان بن عوف ومطر الشيبانى ، وهاجم القوم فى تكريت ، وأصابهم .

ترى هل تحققت أهداف هذه الغارات ؟

نعم .. فالمنطقة كلها أصبحت تحت سلطة المسلمين وفى أيديهم ، واتسع نطاق الأرض التى يســيطرون عليها ، وأصبحت جموعهم قريبة من مواقع الفرس ، فى انتظار لقاء حاسم يحسم الأمور نهائيا .

نعم .. فالفرس تطلعوا الى هذا التوسع العربى بخوف وقلق ، وأحسوا بأن حياتهم قد قربت النهاية ، وأن سلطانهم الى زوال ، وأن النصر العــربى يتأكد يوما بعد يوم ، وأن استقرار المسلمين فوق أرضهم أصــبح أمرا مؤكدا كما أن نهاية دولتهم قد أصبحت أمرا وشيك الوقوع ، وكانوا يتساءلون « فما بعد بغــداد وســاباط وتكريت ، الا المدائن » .

نعم .. فقد غنم المسلمون مغانم كثيرة خسرها الجانب الآخــر ، فقــد انتقلت ثروة فارس الى أيدى العرب ، وبعث القائد العربى بنصيب بيت المال الى المدينة ، فامتلأت جوانب المسجد ، واضطر الخليفة عمر الى اقامة حراسة عليها ، كلف بها اثنين من أشد المسلمين هما عبد الرحمن بن عوف وعبد الله الأرقم .. لقد كان ما بعث به المثنى شيئا لم تره أعين المسلمين من قبــل .. جواهر ولؤلؤا وذهب وفضة وأشياء أخرى كثيرة .

* * *

بينما كان المثنى يقود المسلمين من نصر الى نصر .. كان الفرس يفكرون فى أمر أنفسهم .. ماذا بعد ؟.. المسلمون متقدمون منتصرون .. وهم يلقون الهزائم متكررة متعددة .. وأحس الفرس أن الخطوة الاسلامية التاليــة هى عاصــمة ملكهم ، فرأوا أن يفعلــوا شــيئا ينقــذون به بلادهم ، وكان واضحا أن هناك اختلافا كبيرا بين رستم والفيرزان على الســلطة ، فاجتمع معهما أهل فارس وتحدثوا اليهما صراحة « والله لتجتمعان أو لنبــدأن بكما ، وقبل أن يشمت بنا شامت ، ونشفين نفوسنا منكما » ، وازاء هذا الاصرار ، اتفقا على أن يتولى يزدجرد العرش ، وأن يتعاونا معــه لصد المثنى ، ولطرد القوات العربيــة .

وأدرك المثنى ما يجرى فى صفوف الفرس ، فجمع رجاله وعرض عليهم الأمر وتشاور معهم ، بعد أن وضع أمامهم تقديره للموقف ويتلخص فى أن الفرس

— وقد وحدوا كلمتهم وجمعوا صفوفهم — فى سبيل اعداد جيش يواجهونهم به ، فضــلا عن أن أهل السواد سيثورون عليهم عندما تحدث مواجهــة مع الفرس .. واتفق الرأى على أن يعرض الأمر على الخليفة وأن يطلب منه مددا سريعا .. كما اتفق على الانسحاب بالقوات الى تخوم شبه الجزيرة .

وانسحبت القوات فعلا واحتلت موقعا دفاعيا يمتــد من الجل (موقع بالبادية على امتداد القادســية) الى شراف (جنوب الكوفة بثلاثة أميــال) الى غضى (جبل البصرة) ، وعززت مواقعها باقامة مسالح ونقط عسكرية .

وأراد الخليفة عمر أن يخرج بنفسه قائلا « والله لأضربن ملوك العجــم بملوك العرب » ، ولكن أصحاب رسول الله اعترضوا ، وطلبوا منه أن يبقى بالمدينة ، قال له عبد الرحمن بن عوف « أقم وابعث جندا ، فقد رأيت قضاء الله لك فى جنودك قبل وبعد ، فانه ان يهزم جيشك فليس كهزيمتك ، وانك ان تقتل أو تهزم خشيت أن لا يكبر المسلمون ، وألا يشهدوا أن لا اله الا الله ابدا » .

وتقرر اسناد قيادة الجيش الى سعد بن ابى وقاص .

***

مرض المثنى مرضه الأخير واشتد عليه المرض نتيجة للجرح الذى أصابه يوم الجسر وأحس منيته ، فاستخلف على الجند بشير بن الخصاصية ورحل الى قومه فى شراف وهناك أسلم الروح .. وانتهت حياة قائد حمل على عاتقه أشرف رسالة وأداها أشرف ما يكون الأداء ... انتهت حياته ليقفز اسمه بين أسماء القادة العسكريين وليحتــل مكانة مرموقة بين رجال الحرب وأبطــال المعــــارك .

مات المثنى وهو رجل غير خامل الذكر و مجهول النسب ولا ذليل العماد.

ختـــــام

أما بعـــــد ..

فها هو ذا الكتاب يأتى الى نهايته .

والكتاب يتنـــاول خمس شخصيات عسكرية اسلامية ... صورا حيــة للقيـــادات المظفرة ، والعســـكرية الرائدة ... صورا مضيئة الجوانب ، مملوءة بالعزة والايمان والثقة والقدرة ... صورا واضحة المعـــالم للفكر العسكرى المتقدم ، وللعقلية العسكرية المتطورة .

والكتاب يعرض لحيـــاة خمس شخصيات عسكرية اســـلامية ... أبطالها رجال حرب أفذاذ ، وقادة معارك أشاوس ، أبلوا بلاء حسنا فى قيادة الدعوة الاسلامية والدفاع عنها ، وقدموا أروع الأمثلة وأرقاها فى القيادة الحكيمـــة ، والخطط الرشـــــيدة ، والانتصارات الباهرة ، والفتوحات العظمى ، والجندية الحازمة الواعيـــة .

واخيرا ....

أرجو مخلصـــا ، بقدر ما بذلت من جهـــد ، واخلصت من درس ، أن يجـــد القارىء فيه شيئا جديدا ومفيدا ... والله المستعان .

محمــــد فـــرج

مراجـــع الكتاب

أهم المراجع العربيـــة التى كانت موضع الدراسة خلال اعداد الكتاب
(مرتبة حســـب الحروف الأبجدية)

أسد الغابة فى معرفة الصحابة	ابن الأثــــير
الاستيعاب فى معرفة الأصحاب	ابن عبــد البر
الســـيرة الحلبيـــــة	
الطبقـــات الـــكبرى	ابن ســـــعد
تاريخ المـــلوك والأمم	الطـــبرى
رسالة العثمانيــــة	الجاحـــظ
ســـيرة ابن هشــام	
فتـــوح الاســـلام	الواقـــدى
فتـــوح البـــلدان	البـــلاذرى
مروج الـــذهب	المســعودى
نهـــج البـــلاغة	جمعه الامام اللغوى محمد بن احمد الحسينى

وكانت كافة الكتب والمؤلفات والبحوث والمحاضرات التى تناولت شخصيات هذا الكتاب تحت نظرنا أثناء اعداده ، ونظرا لكثرتها فاننـــا نكتفى بهذه الاشـــــارة .

فهرس

كتب للمؤلف

العبقرية العسكرية فى غزوات الرسول	دار الفكر العربى
السلام والحرب فى الاسلام	دار الفكر العربى
الفتح العربى للعراق وفارس	دار الفكر العربى
المدرسة العسكرية الاسلامية	دار الفكر العربى
شخصيات عسكرية اسلامية	دار الفكر العربى
الأمة العربية على الطريق الى وحدة الهدف	دار الفكر العربى
غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم (بدر - أحد - خيبر - الخندق)	دار الفكر العربى

رقم الايداع ١٩٧٤/٣٩٩٥

دار عطـــــوه للطبـــاعة

تطلب جميع منشوراتنا من
مؤسسة
دار الكتاب الحديث
للطبع والنشر والتوزيع .
الكويت شارع فهد السالم عمارة السوق الكبير
بجوار المخازن الكبرى محل رقم ٢٥٠ أرضى
ت : ٣٤٣٦٧٦٥ ص٠ ب ٢٢٧٥٤